



ابو حمزة الشاري

حَيَاةٌ مِنْ أَجْلِ الْحَقِّ

تأليف
الدكتور فرحان بن علي الجبيري



هذا الكتاب هو الاصدار الثانى من سلسلة "من اعلامنا"
التي تصدرها وزارة التربية والتعليم والشباب
سئون الشباب
المديرية العامة للنشاط الثقافى والاجتماعى ...

لأليف

دكتور فرحان بن حى (المبدي)

أبو حمزة الشارعي

حَيَاةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ

تأليف

دكتور فرحان بن علي الحلبي

مقدمة

قال تعالى ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾ صدق الله العظيم .

باسم الله نبدأ العام الثاني من عمر ندوة من أعلامنا وهي الحصيلة التاريخية والثقافية للسلف الصالح . حيث أنها المنبع الفكري والروحي والمنهل الثقافي الأصيل لشبابنا الذين يتحتم عليهم أن ينهلوا منه بما يعود عليهم بالفائدة الجمة ويهيء لهم السبل للتمسك بأصالة الماضي وضمان استمرار بقائه الحضاري واجلاء وابراز هويته الثقافية الأصيلة .

- تهدف هذه الندوة الى تعميق انتماء الشباب الى جذوره الاسلامية والعربية عملا وقولا وسلوكا والعناية باعلام الفكر الذين أسهموا في ارساء قواعد الأضالة الحضارية والثقافية .

ولعل من يُمن الطالع أن تنظم هذه الندوة كل عام لتشارك بها الوزارة (شؤون الشباب) في احتفالات البلاد بالعيد الوطني المجيد . فكان لحصيلة هذه الندوة الى جانب البحوث المقدمة تأليف هذا الكتاب الذي بين أيدينا ، وما هو إلا بقعة ضوء سلطت على حدث تاريخي في خشبة مسرح التراث العماني وهو كشف لبعض المكونات الحضارية .

ان المتصفح لهذا الكتاب لا شك أنه سيجد خصوصية نكهة التاريخ العماني ومواقف وأفعال رجالات قلما نراها بهذه الخصوصية وبهذا العبق الخاص الذي عرفت به مجان وما زالت .

وإننا ونحن نقدم هذا الكتاب لا يسعنا إلا ان نشيد بالمجهود الكبير الذي قام به الدكتور/ فرحات بن علي الجعيري في تأليفه لهذا الكتاب .

كما اننا عاجزون عن الشكر والامتنان للمجهود العظيمة التي قدمها بكل رحابة صدر معالي سماحة الشيخ / مفتي عام السلطنة الذي لم يدخر جهدا في تدعيم هذه الندوة والمساهمة الفعالة فيها .

كما نشكر أصحاب الفضيلة العلماء الاجلاء المشاركين في انجاح هذه الندوة سواء كانوا من داخل السلطنة أو خارجها .

نسأل الله أن يوفقنا لبناء مستقبل عمان المشرق الزاهر في ظل القيادة الحكيمة لحضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم حفظه الله وأيده بنصره .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يحيى بن محفوظ المنذري
وزير التربية والتعليم والشباب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين . . الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . . . الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله .

اللهم صل على نبينا محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين أنك حميد مجيد .

أما بعد ، ، ،

يقول عز من قائل ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ [١٢ يوسف ١١١] وقديما قالوا «تجارب الأقدمين مرآيا للمحدثين» .

ونحن على يقين أن صرح الحضارة الانسانية تعاقبت على وضع لبناته أجيال وأجيال . . كل جيل يترك بصمة من بصماته تستنير بها الأجيال اللاحقة فتترك ما كان زبدا لتستبقى ما ينفع الناس ﴿فأما الزبد فذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيبقى في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال﴾ [١٣ الرعد ١٧] . وتشاء العناية الربانية أن يستنير العالم بنور الرسالة المحمدية رسالة الاسلام الخالدة ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾ [٣ آل عمران ١٩] ﴿ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [٣ آل عمران ٨٥] ﴿فيدفع هذا النور الحضارة الانسانية أشواطا الى الأمام ما دام حاملو لوائه متمسكين به عقيدة وقولا وعملا .

ثم تدور عجلة الزمن وما أسرع دوران هذه العجلة فتقوم الحضارة العالمية المادية المعاصرة لتلتهم كل روحي ومقدس ظنا منها أن السعادة كل السعادة في كل ما هو مادي فحسب ،

فانبهر بزخرفها كثير من المتتمين الى الاسلام، والاسلام منهم براء، وظلوا وراء سراب هذه الحضارة يلهثون، ومن عطائها الغث والسمين يكرعون، وتصوروا ألا سبيل الى نهوض العالم الاسلامي إلا بالافتداء بهذه الحضارة شبرا بشبر وذراعا بذراع، ونبذ كل ما له صلة بالاسلام لأن الاسلام دين والدين لن يكون إلا أفيونا للشعوب.

وفعلا سرت في كثير من الشباب فكرة أن الاسلام رجعية وتراث، ككل تراث ليس له إلا أن يبقى محنطا في المتاحف بعيدا عن واقع الحياة النابض. إلا أن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الملاحدة والكافرون فيقيض للاسلام من المسلمين رجالا يشع من عقولهم المستنيرة بنور القرآن الكريم والسنة الشريفة نور صحوة إيمانية يقظة لمع في أرجاء المعمورة يبين للعالمين.. ألا سبيل الى النجاة الا بالدين القيم، دين الفطرة الزكية ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٣٠ الروم ٣٠]. وفعلا قال هؤلاء المصلحون بأعلى اصواتهم لا للتراث من أجل التراث ولكن نعم للتراث من أجل المستقبل بين ماض لا ينبغي أن نقف منه موقف المتأفف المتحسر وانما يجب أن نقف منه وقفة بناءة تنفض عنه غبار الزمن عسى أن تتقشع سماء وجهه، وبين مستقبل مشرق يستنير بأصالة أمتنا، هذه الأصالة التي لا يزال أعداء الاسلام يحاولون اجتثاثها من تحت ارجلنا.

وإيماننا بهذه الصحوة الإسلامية المباركة تم التعاون بين وزارة العدل والأوقاف والشؤون الإسلامية، وقطاع شؤون الشباب بوزارة التربية والتعليم والشباب بسلطنة عمان لأقامة ندوة سنوية بعنوان «من أعلامنا» ترمي الى نفوذ الغبار عن كثير من مشاهير هذا الجناح من أجنحة العالم الإسلامي الذي لن يطير عملاقا في سماء الحضارة العالمية إلا إذا التأم جميع أوصاله على درب واحد محوره كلمة الإيمان «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وقد وصلتنا رسالتان من الوزارتين المذكورتين مؤرختين بنفس التاريخ ١٤٠٩/٩/٢٥ الموافق ١٩٨٩/٥/٢ م.

الاولى بامضاء سباحة مفتي عام سلطنة عمان الشيخ / أحمد بن حمد الخليلي حفظه الله.

والثانية بامضاء سعادة الشيخ / سالم بن مستهيل بن أحمد المعشني وكيل وزارة التربية والتعليم والشباب لشؤون الشباب بالوكالة تطلبان «إعداد كتاب عن شخصية المجاهد أبي حمزة الشاري يكون موجها للمثقف العام مهتما بالحقائق دون اغراق في التفاصيل المتخصصة يعرض القضايا بتشويق للشباب بصفة خاصة، لا يتجاوز المائتي صفحة من القطع المتوسط».

وإننا لا يسعنا أمام هذه الثقة الغالية التي وضعها فينا الأخوة المشرفون على تنظيم هذه الندوة جازاهم الله كل خير، رغم قلة الزاد وقصر الباع، إلا أن نتوجه الى العلي القدير ليجزل لهم العطاء من خزائنه التي لا تنفذ، وليأخذ بأيدينا لنضطلع بهذه الأمانة التاريخية المتمثلة في عرض حقيقة رجل لم يخرج على خلافة عادلة وإنما ثار على دولة جائرة لم يلبث أن أخرجها جورها من دائرة التاريخ بعد ثورة أبي حمزة الشاري وإن لم يكن ذلك على يديه .

ولا أراني مضطرا بأن أطيل في عرض المنهج الذي سألتزمه في هذا العمل المتواضع وإننا أذكر بأنني لا أريد أن أسلك فيه مسلكا أكاديميا حتى لا تثقل الهوامش وإلا حالات على المثقف العام الذي يهيم مسار الأحداث أكثر مما تهيم مختلف مصادر الأخبار، وللقارئ المختص مندوحة في ما نعرض من قائمة المصادر والمراجع بشيء من الدقة في آخر الكتاب لمزيد الاطلاع إن كانت له رغبة في التحقيق والتحري .

ليس معنى ذلك أن أجنح في الخيال حتى أجعل من أبي حمزة أقرب الى الأسطورة بل سأتحري الحقيقة باذلا في ذلك كل ما في وسعي حتى أعرض بين يدي القارئ صورة جلية ناصعة عن اخلاص أبي حمزة في امتشاق السنن والافصاح بحسن البيان ليدفع كل انواع الطغيان .

ولتكن خطتنا كالتالي :

الباب الأول : العالم الاسلامي والدولة الأموية .

الفصل الاول : قصر الخلافة في دمشق .

الفصل الثاني : الحجاز:عزلة سياسية واغراق في اللهو .

الفصل الثالث : ظلم الولاة الثقفيين في اليمن .

الباب الثاني : استعداد أهل الاستقامة بمركز الدعوة بالبصرة لاهياء الامامة .

الفصل الاول : الامام جابر بن زيد وحكمة التنظيم في مسلك الكتان .

الفصل الثاني : الامام أبو عبيدة والاستعداد لمسلك الظهور .

الفصل الثالث : الامام عبد الله بن يحيى واعلان الظهور باليمن .

الباب الثالث : أبو حمزة الشاري والشوق الى إمامة المسلمين عامة .

الفصل الاول : النشأة الاولى .

(١) مجد تليد .

(٢) في صحار أعرق الأمصار .

٣) النبوغ في حلقات أبي عبيدة.

٤) تحسس الأخبار بين الحرمين واليمن.

٥) شار لا خارجي.

الفصل الثاني : المجاهد أبو حمزة الشاري.

١) عند عبد الله بن يحيى طالب الحق وعلان إمامة

الظهور في حضرموت.

٢) الثورة على الباطل واجب مقدس.

٣) أبو حمزة في مكة المكرمة.

٤) أبو حمزة في المدينة المنورة

٥) الانتصار: الخطب وضبط عوامل الثورة ومنهج الحكم.

٦) أخطاء حركية.

الفصل الثالث

النكبة والاستشهاد.

١) التعبئة الأموية.

٢) الهزيمة في الميدان «مكة».

٣) معركة مكة واستشهاد أبي حمزة.

٤) النكبة باليمن.

٥) العودة الى مسلک الكتان.

٦) تحويل الوجهة الى عمان والمغرب.

هذه هي مراحل هذا البحث أحببنا من خلالها أن نضع ثورة الامام عبد الله بن يحيى وقائده أبي حمزة في اطارها التاريخي العام حتى يدرك القارئ أنها ليست مجرد فتنة كما يذكر صاحب شذرات الذهب^(١)، ولا تمرد على السلطة الحاكمة من أجل اثارة البلابل والغزو والسلب والاستيلاء، وانما هي محاولة تصحيحية لمسار التاريخ الاسلامي لتعود للمسلمين امامتهم العادلة التي تقف عند حدود الاسلام بحق، وتطبق أحكام الشريعة في السلم والحرب.

وأرى لزاما علي - ازاء مناقشتي للمصادر الأمهات أباضية وغير أباضية - أن أعترف بالجميل للاستاذ عمرو خليفة النامي في اطروحته عن تطور الفكر الاباضي ١٩٧١م، وللدكتور عوض

(١) ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩/١٦٧٨)، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، منشورات دار أفاق الجديدة، بيروت د.ت: ١٧٧/١.

خليفات في كتابه «نشأة الحركة الأباضية الذي نشر بعمان الأردن سنة ١٩٧٨م وللأستاذ مهدي طالب هاشم في كتابه «الحركة الأباضية في المشرق العربي نشأتها وتطورها حتى نهاية القرن الثالث الهجري» لما وجدت في بحوثهم من حرص على تحري الحقيقة مكنهم من انصاف حركة طالب الحق وقائده أبي حمزة انصافا ليس بعده من انصاف، مع المام بكل خيوط هذه الحركة في أدق أسرارها، وما ذلك بغريب من رجال اطلعوا عن كذب على جميع النصوص التي أرخت لهذه الحركة دون تحيز لهذا أو ذاك.

ولا يفوتني كذلك أن أنوه بالمجهود الذي ما يزال يبذله الأستاذ مبارك الراشدي في رسالته عن الامام أبي عبيدة حيث أطلعني مشكورا على الفصول التي خصصها لتلاميذ الامام ومن بينهم طالب الحق وقائده أبو حمزة ورجاؤنا أن يكمل عمله بالنجاح لأنه نفذ الى دقائق لم ينتبه إليها من قبل.

وسيرى القاريء ان شاء الله تعالى أنني حرصت على التزام جميع ما حددت من التزامات من شأنها أن تجنبني الوقوع في الزلل والخطأ والانحياز، ومع ذلك فأني لا أبريء نفسي، ورجائي من القراء الكرام أن يدلوا على مواطن الزلل إن وجدت فطوبى لمن أهدى الي عيبي .

وليس لنا هنا إلا أن أردد قوله تعالى ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به وأعف عنا وأغفر لنا وأرحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ [٢ البقرة ٢٨٦].



الفصل الأول

قصر الخلافة في دمشق

هذا يعلم قصة رسول كسرى الذي ظل يبعث طويلاً عن قصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولم يجد قصراً يوجد من كان يظن أن بعده وراء القبة حجاباً مائلاً على كلوة الطير، قال قوله الشهيرة: «وعلمت فأبست فاستبدت».

واللهي ثلاثة غزوه على هذا الحديث وأمثاله، ويتحول مركز الخلافة من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بلاد الشام، دمشق حيث ما يزال مغارة عين الأسياب من زمان لاقامة دولة أموية، ومن هناك، ثم انصب مطالباً لهم هذا التاريخ، واستمر من العالم حادثة المصاحف، والحقكم فكانت

الباب الأول

العالم الإسلامي والدولة الأموية

في الكسوية والشعائر القديمة، وما أقدم عقوبة وصحة على مثل هذا.

ولا أريد في علم المسلم الواعي شيئاً اعتدماً إلا حظ هذا التأخر في أحوال الخلافة إلى القصر، ونحن نعلم أنها ليست من طينته واحدة، فإن وجد القصر فلا خلافة، وإن وجدت الخلافة فلا قصر، وما دام قد وجد القصر بل وجدت القصور فكم على الخلافة أرباباً وقبلاً صرح بذلك بلزج ابن خلدون وهم يريد من الحكم الأموي بأن مغارة حول الخلافة إلى ملك القصور».

وبذلك أتت القاري: «فقد نقلها عن الشيخ محمد الكفري بك أصول المقالة الصارخة بوجوب الخلافة وسوات الملك، وهذا قول قد تعرض عليك بعضاً من العبارات عن أحوال بني أمية، ملك تحكم بغيرك، هذه الدولة أو غيرها».

يسأل الشيخ المتأخر: «أليست الخلافة في عهد الدولة الأموية مطهر الملك وأبنته، وأنت حريص مطهر الحكم ومظلمته، فيجد أن كان الخلفاء الراشدين القصر كالملا ولا يستقيم

عبد الرحمن بن حنبل، ١٧٨-٢٤١هـ - القضاة

الفصل الأول

قصر الخلافة في دمشق

كلنا نعلم قصة رسول كسرى الذي ظل يبحث طويلا عن قصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولما لم يجد قصرا، ووجد من كان ينتظر أن يجده وراء ألف حجاب نائما على قارعة الطريق، قال قولته الشهيرة : «عدلت فأمنت فنمت».

وتمضي ثلاثة عقود على هذا الحديث وأمثاله، ويتحول مركز الخلافة من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بلاد الشام ليستقر في مدينة دمشق حيث ما يزال معاوية يهيئ الأسباب من زمان لاقامة دولة أموية وراثية، فوسع دائرة ولايته زمن عثمان، ثم انتصب مطالبا بدم هذا الخليفة، واخترع مع صاحبه عمرو بن العاص خدعة المصاحف والتحكيم فألت إليه الخلافة بعد مقتل الامام علي بصفة آليه اذ لا منازع إلا الحسن وقد سلم هذا المعاوية عام واحد وأربعين ٦٦١/٤١ فسمي معاوية هذا العام عام الجماعة، وهو في الحقيقة عام تغلغل العصبية الأموية التي من شأنها أن تفرق لا أن تجمع، وإنما هي السياسة الماكرة تعتمد على التموية والشعارات الفضفاضة، وما أقدر معاوية وصحبه على مثل هذا.

ولا أراني أزيد في علم المسلم الواعي شيئا عندما ألاحظ هذا التنافر في اضافة الخلافة الى القصر، ونحن نعلم أنها ليسا من طينة واحدة، فان وجد القصر فلا خلافة، وإن وجدت الخلافة فلا قصر، وما دام قد وجد القصر بل وجدت القصور فكبر على الخلافة اربعا، وقديما صرح بذلك المؤرخ ابن خلدون رغم قربه من الحكم الأموي بأن معاوية حول الخلافة الى ملك عضوض^(٢)

وهاك أيها القارئ فقرة ننقلها عن الشيخ محمد الخضري بك تصور المقابلة الصارخة بين سمات الخلافة وسمات الملك، وهذا قبل أن نعرض عليك بعضا من العينات عن أحوال بني أمية تجعلك تحكم بنفسك لهذه الدولة أو عليها.

يقول الشيخ المذكور «لبست الخلافة في عهد الدولة الأموية مظهر الملك وأبهته، واستشعرت سطوة الحكم وعظمته، فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم

(٢) عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨/١٤٠٦)، المقدمة.

دون الخلافة حجاب، ولا يصدهم عنه باب، وجد في العهد الأموي الحجاب والمقاصير في المساجد الجامعة، وبعد أن كان عمر بن الخطاب يقول على منبر رسول الله ﷺ من رأي منكم في أعوجاجا فليقومه قال عبد الملك بن مروان في خطبته بعد مقتل ابن الزبير «ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه» وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظهر الترف، يجترى أحدهم بأقل ما يجترى به الضعفاء من رعيته، ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفاف لا عليه ولا له، صرنا نرى بني مروان قد انغمسوا في الترف، فاختيرت لهم الألوان وتبسطوا بها لذ وطاب، فسمعوا الأغاني من القيان كما يروى عن يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد، وبعد أن كانت تختار من بيوت متعددة رأينا الخلافة في هذه الدولة قد انحصرت في بيت واحد، يختار كل خليفة ولي عهده من أهل بيته أما ابنه أو أخاه أو ابن عمه شأن الملك العقيم»^(٣).

أما عن معاوية فإنه يعترف بنفسه أنه شغوف بالدنيا وزينتها، وها هو في هذا الخبر الذي ينقله الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعدة بن حكمة الفزاري من بني آل بدر قال «انتقل معاوية من بعض كور الشام الى بعض عمله فنزل منزلا بالشام، فبسط له على ظهره اجار مشرف على الطريق فأذن لي فقعدت معه فمرت القطرات والرحائل والجواري والخيول فقال: يا ابن مسعدة، رحم الله أبا بكر لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا، أما عمر - او ابن حنتمه - فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصاب منه، وأما نحن فتمرغنا فيها»^(٤).

وأنى لرجل دعا عليه الرسول عليه السلام بألا يشبع الله بطنه ألا يعتز بالتمرغ في الدنيا، والواقعة كانت كالتالي: «كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول الله قد جاء، فقلت ما جاء إلا إلي، فأختبأت على باب فجاءني فخطاني خطاة او خطأتين ثم قال: اذهب فادع لي معاوية، وكان يكتب الوحي، فذهبت فدعوته له فقبل انه يأكل فأتيت رسول الله فقلت: انه يأكل، فقال: اذهب فادعه، فأتيته الثانية فقبل انه يأكل فأخبرته فقال في الثالثة: لا أشبع الله بطنه، فما شبع بعدها»^(٥).

(٣) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة الأموية، دار الفكر العربي - د.ت ٢٠٨/٢.

(٤) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٩٢٢/٣١٠) تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط ٢، ١٤٠٨/١٩٨٨ - ٢٦٧/٣.

(٥) عباس محمود العقاد - معاوية بن أبي سفيان - المكتبة العصرية - بيروت - د.ت. ص ٨٥.

وان كان لا ضرر على معاوية من هذا الترف ان هو كان عبدا شكورا ولكنه ها هو ذا يعترف بظلمه وطغيانه في وصيته لابنه يزيد في مرض موته « . . . إن معاوية لما مرض مرضته التي هلك فيها دعا يزيد ابنه ، فقال : يا بني اني قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذلت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب . . . »^(٦) .

وانظر الى معاوية وهو فعلا يذل الأعداء ، فمن هم الأعداء يا ترى ، ان جلهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتجلى هذا في أخذه البيعة قسرا لابنه يزيد من عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر والحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وغيرهم من المسلمين .

« . . . قال (بعد محاولات ومحاورات) : فإنني قد أحببت أن أتقدم إليكم انه قد أعذر من أنذر ، اني كنت أخطب فيكم فيقوم الي القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس ، فأحمل ذلك وأصفح ، واني قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد علي أحدكم بكلمة في مقامي هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه ، ثم دعا صاحب حرسه في حضرته فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف ، فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما . . . »^(٧) .

ثم الى جانب هذا فان معاوية وشيعته ان لم يلجأوا الى القوة فإنهم يلجأون الى الرشوات والهبات وفعلا فقد جرب الأمر مع عبد الله بن عمر قبل السيف حيث أرسل اليه معاوية مائة ألف درهم فقبلها فلما أدرك أنها من أجل بيعة يزيد ردها ثم قال : هذا أراد (اي بيعة يزيد) ان ديني عندي لرخيص وامتنع^(٨) .

ولم يكن معاوية ليخفى عليه ظلمه ، ويتجلى هذا في هذه المحاورة الظريفة بينه وبين عمرو بن العاص اذ كل منهما خبير بالآخر . قال عمرو بن العاص لمعاوية معايبا اياه ، وقد لذ له أن يخرجه ويعاكسه ، معرضا بأعماله السيئة وجرائمه واذا معاوية ينكشف له عن خصم أشد مضاء ودهاء وألطف تعريضا وأبلغ مقالا : « رأيت في النوم أن القيامة قد قامت وحيء بك وقد أجمك العرق ، فقال معاوية : هل رأيت هناك شيئا من دنائير مصر »^(٩) .

(٦) الطبري - تاريخ ٢٦٠/٣ .

(٧) ابن خلدون - التاريخ ٣٦/٣ نقلا عن ابن الأثير - الكامل ٢٥٢/٣ ، طبع مصر .

(٨) ن . م - ٣٥/٣ .

(٩) أحمد محمد الحوفي - الفكاهة في الأدب ، القاهرة - ١٦٩/١٩٦٦ .

وإن كان هذا رأي القرين المطلع على السرائر ومدير المكائد فلا نعجب من رأي الخصوم .
ومن ذلك ما جاء في رسالة من أهل الكوفة موجهة الى الحسين عند موت معاوية : « فالحمد
الله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي افترى على الأمة فابتزها أمرها ، وغصبها فيئها ،
وتآمر عليها بغير رضا منها ، ثم قتل خيارها واستقى شرارها ، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها
وأغنيائها . . . »^(١٠) .

ومن ذلك ما جاء في رسالة عبد الله بن أباض الى عبد الملك بن مروان « فلا تسأل عن
معاوية وعن صناعته غيري لأنني قد أدركته ورأيت عمله وسيرته ، ولا أعلم من الناس أحدا
أترك للقسمه التي قسمها الله ولا لحكم حكمه الله ولا أسفك لدم حرمه الله منه ، فلو لم يصب
من البلاء إلا دم ابن سمية^(١١) لكان فيه ما يكفروه . . . »^(١٢) .

ومن ذلك ما جاء في خطبة أبي حمزة الشاري : ثم « ولى معاوية بن أبي سفيان لعين رسول
الله ﷺ وابن لعينه وجلف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤلف طليق فسفك الدم
الحرام ، واتخذ عباد الله خولا ، ومال الله دولا وبغى دينه عوجا ودغلا ، وأحل الفرج الحرام ،
وعمل بما يشتهي حتى مضى لسبيله . . . »^(١٣) .

ثم يتربع على عرش (الخلافة) يزيد بن معاوية وقد وطأ له أبوه الاشياء وذلل له الأعداء
ومكنه من رقاب المسلمين ، لكنه حذره من أربعة نفر من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله
بن عمر ، وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر ، ودعاه بأن يصفح عن الحسين إن هو
ظفر به « لأن له رحما ماسة وحقا عظيما »^(١٤) .

لكن أننى (لأمير المؤمنين) صاحب الطرب والجوارح والكلاب والقروود والفهود ولزبانيته من
أمثال ابن زياد أن يدركوا دهاء معاوية وبعد مراميه وقدرته على الجمع من المتناقضات اذ
يضرب بيد ويعطي بأخرى .

(١٠) الطبرى - تاريخ ٢٧٧/٣ .

(١١) ابن سمية - هو عمار بن ياسر .

(١٢) أبو القاسم ابراهيم البرادي - الجواهر المتقاء لما أخل به كتاب الطبقات ، ط . حجرية القاهرة -
١٣٠٢/١٨٨٥ - ١٦٣ - ١٦٤ .

(١٣) انظر المحور الثالث - خطب أبي حمزة وتحليلها .

(١٤) الطبرى - تاريخ - ٢٦٠/٣ .

وما أن أعلن الحسين الثورة على الظلم حتى جند له يزيد أخلص أعوانه عبيد الله بن زياد للتصدي له ، ولا يهمننا هنا وصف المعركة بقدر ما يعيننا الوحشية التي عوملت بها جثة الحسين بسط رسول الله ﷺ ، وحشية فرعونية جاهلية ليس في قلوب أصحابها ريح الاسلام وإن كانوا ينطقون بكلمة الايمان .

ولك أيها القارئ ما جاء في تاريخ الطبري عن هذا الواقع الأليم الذي لا ينقله المؤمن إلا ليتألم لما صار إليه المسلمون وليثبت شرعية من ثار الثائرين إن كان على حق قال : فنادى شمر (أحد قواد الجيش الأموي) في الناس : وبحكم ، ماذا تنظرون بالرجل ؟ اقتلوه نكلتكم أمهاتكم . قال : فحمل عليه من كل جانب ، فضربت كفه اليسرى ضربة ، ضربها زرعة بن شريك التميمي ، وضرب على عاتقه ، ثم انصرفوا وهو ينوء ويكبو ، قال : وحمل عليه في تلك الحال سنان بن أنس بن عمرو النخعي فطعنه بالرمح فوق ، ثم قال لخولى بن يزيد الأصبحي : اختر رأسه فأراد ان يفعل ، فضعف فأرعد ، فقال له سنان بن أنس : فت الله عضدك وأبان يديك ، فنزل إليه فذبحه واحتز رأسه ، ثم دفع الى خولى بن يزيد وقد ضرب قبل ذلك بالسيوف

. . . . قال : وسلب الحسين ما كان عليه ، ومال الناس على الورس والحلل والابل وانتهبوها ، قال : وما الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه ، فان كانت امرأة لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها . . . قال : ثم ان عمر بن سعد نادى أصحابه : من ينتدب للحسين ويوطئه فرسه ؟ فانتدب عشرة . . قال : وما هو إلا أن قتل الحسين ، فسرح برأسه من يومه ذلك مع الخولى بن يزيد وحيد بن مسلم الأزدي الى عبيد الله بن زياد ، فأقبل به خولى فأراد القصر ، فوجد باب القصر مغلقا ، فأتى منزله فوضعه تحت اجانة في منزله . . . »^(١٥) .

سبحان الله اقدت قلوب هؤلاء الناس من حجر أم هي الرئاسة تعمى وتصم ، وتستمر رحلة هذا الرأس فيوضع بين يدي ابن زياد في موكب بهيج ويظل أمام الملأ «ينكب بقضيب بين ثنيتيه»^(١٦) ، ويتواصل الاحتفال وينصب رأس الحسين ويدار به في الكوفة تعبيرا عن النصر المبين ، ثم يسرح رأس الحسين ورؤوس أصحابه لتتشرف بالمثل امام (الخليفة) وينقل الطبري أن اليزيد دمعت عينه وقال قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين^(١٧) .

لكن هيهات هل ينفع مثل هذا البكاء ومثل هذا الكلام بين يدي الرحمن من (أمير المؤمنين) . إن هذه كافية لترجح كفة ميزان اليزيد ولكن لا بأس من أن تعرف أيها القارئ ضربا آخر من بطولات (امير المؤمنين) .

(١٥) ن . م - ٣٣٤ - ٣٣٦ . (١٦) ن . م - ٣٣٦ - ٣٣٨ . (١٧) ر . ن . م - ٣٣٨ - ٣٣٨ .

روى المسعودي في مروج الذهب (ج ٢ ص ٩٤): «وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقروء وفهود، ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرابه، وعن يمينه ابن زياد بعد مقتل الحسين، فأقبل على ساقيه فقال:

اسقني شربة تروي مشايي ثم صل فاسق مثلها ابن زياد صاحب السر والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنين فغنوا، وغلب على اصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسق...». وروى ابن طباطبا في الفخرى (ص ٤٩): «كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفا بالصيد لا يزال لا هيا به، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب... ويب لكل كلب عبدا يخدمه»^(١٨).

تلك حرمان رؤوس المسلمين ونسائهم وأموالهم عند من اختاره أبوه ليكون (احسن خليفة للمسلمين) ليؤا بالاثمين معا.

ويذكر ابن خلدون أن عمر بن سعيد والى اليزيد على المدينة عزم على استحلال بيت الله الحرام لقتال عبد الله بن الزبير عذل مروان بن الحكم له: «وعذله مروان بن الحكم في غزوة مكة، وقال له: اتق الله ولا تحل حرمة البيت فقال: والله لنغزونه في جوف الكعبة» ورغم نهى الصحابي أبي شريح الخزاعي: «وجاء أبو شريح الخزاعي الى عمرو بن سعيد فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما أذن لي بالقتال فيها ساعة من نهار، ثم عادت كحرمتها بالأمس» فقال له عمرو: نحن أعلم لحرمتها منك أيها الشيخ»^(١٩).

لكن الله تعالى لم يمكنه من ذلك اذ هزم عبد الله بن الزبير جيشه وسجن قائده عمرو بن الزبير وضربه بكل من ضربه بالمدينة حتى مات تحت السياط.

كما أنه ظهر في أيامه الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب كما يذكر المسعودي^(٢٠).

(١٨) نقلًا عن أحمد زكي صفوة - جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت - ١٣٥٢/١٩٣٣، الجزء الثاني للعصر الأموي - ٤٧٠.

(١٩) ابن خلدون - تاريخ - ٤٦/٣، وقد حلل القضية ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، ط. دار المعرفة بيروت - د. ت ٤١/٤ - ٤٣ و ٤٧ - ٤٨، وقد أورد إرادة الفقهاء في شأن استحلال حرم الله تعالى.

(٢٠) المسعودي (ت ٩٥٧/٣٤٦) مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٤٠٢/١٩٨٢، ٩٤/٢.

وهذا يجنى الزيد ثمرة النية على انتهاك الكعبة الشريفة بالسيف ومعة نشر الرذيلة في الحرمين الشريفين^(٢١) .

وهذا معاوية بن يزيد يكفيننا مؤونة تقويم حقيقة فترة حكم أبيه وجده حيث يقول: «ان جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن هو أحق به منه لقربته من رسول الله وسابقته في الإسلام وهو علي بن أبي طالب.

ثم تقلد أبي يزيد الأمر من بعده فكان غير أهل له ركب هواه وأخلفه الآمل وان من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء منقلبه وقد قتل عترة رسول الله ﷺ، وأباح الحرم وخرب الكعبة^(٢٢) .

ثم انا نعلم بعد ذلك أنه استعفى من هذه المسؤولية بقوله «فانى قد نظرت في أمركم فضعفت عنه، فابتغيت لكم رجل مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع اليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر، فلم أجدها، فانتم أولى بأمركم افختاروا لكم من أحببتكم^(٢٣) .

ولا نريد أن نثقل على القارئ الكريم بمتابعة أخبار كل (أمرء المؤمنين) الذين تولوا على عرش دمشق وانما ما دمنا مع بيت الله الحرام وعبد الله بن الزبير وجب أن نأتي الى الحجاج بن يوسف ولا نزيد في علم الناس شيئا اذا تحدثنا عن الحجاج وظلمه ما دام يعترف بذلك بنفسه في كل المواطن بل يعتز به كل الاعتزاز، وهو في ذلك يبيع آخرته في خدمة بني مروان والاخلاص لهم، وهاك قليلا من خطبته الشهيرة عندما ولاه عبد الملك بن مروان على العراق «إن امير المؤمنين عبد الملك نشر كنانته ثم عجم عيدانها فوجدني أمرها عودا وأصلبها مكسرا، فوجهني اليكم... أما والله لأخونكم لحو العود، ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الابل...»^(٢٤) .

ونحن نعلم من قبل أنه حاصر عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام ورمى الكعبة بالمنجنيق وبعث برأس عبد الله بن الزبير ورؤوس أخرى لعبد الملك بن مروان بعد أن أبقي جثة ابن الزبير مصلوبة منكسة على ثنية الحجون اليمنى، وقد جاء عند ابن خلدون في هذا ما يلي:

(٢١) سنن أبي داود في الحديث عن اللهو في مكة والمدينة في العنصر اللاحق إن شاء الله .

(٢٢) نقلا عن خالد محمد خالد - خلفاء الرسول ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٢ - ١٣٩٤ / ١٩٧٤ ، ص ٦٧ .

(٢٣) الطبري - تاريخ ٣ / ٣٧٩ .

(٢٤) الطبري - تاريخ ٥٤٨ .

ثم نصب الحجاج المنجنيق على (جبل) أبي قبيس، ورمى به الكعبة، فكانت الحجارة تقع بين يدي ابن الزبير وهو يصلى، فلا ينصرف، ولم يزل القتال بينهم، وغلت الأسعار وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح ابن الزبير فرسه وقسم لحمها في أصحابه ثم أجهدهم الحصار . ثم حمل (ابن الزبير) حتى بلغ الحجون فأصابته حجارة في وجهه فأرغش لها ودمى وجهه ثم قاتل قتالا شديدا وقتل

ولما فرغ الحجاج من ابن الزبير دخل الى مكة فبايعه أهلها لعبد الملك وأمر بكنس المسجد من الحجارة والدم .

ولم يكفه ذلك بل سار الى المدينة وأساء الى أهلها وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافا بهم كما فعل بأهل الذمة منهم جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك وسهل بن سعد ونقلت عنه في ذم المدينة أقوال قبيحة أمره فيها الى الله (٢٥) .

وتنتهي حياة الحجاج بالتباس عقله اثر قتله لسعيد بن جبير أحد كبار الفقهاء الصالحين وكان ذلك بعد محاورة بينهما انتهت بها يلي: الحجاج: والله لأقتلنك . فقال: انى لسعيد كما سمئنى أمى، فضربت عنقه فهلل رأسه ثلاثا أفصح منها بمرة، ويقال ان عقل الحجاج التبس يومئذ وجعل يقول: قيدونا قيدونا، فظنوها قيود سعيد بن جبير، فأخذوها من رجله وقطعوا عليها ساقيه، وكان اذا نام يرى سعيد بن جبير في منامه آخذا بمجامع ثوبه يقول: يا عدو الله فيم قتلتنى، فينتبه مرعوبا يقول: مالى ولسعيد بن جبير (٢٦) .

تلك هى عاقبة الظالمين وما عند ربك أشد وأبقى، ويستثنى من هذه الشناعات الخليفة العادل خامس الخلفاء الراشدين هذا الذي حرص على أن يملأ الارض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا، وجاءته الوفود مستبشرة من كل مكان ومن بينها وفد أهل الاستقامة ومنهم أبو الحر على بن الحصين وجعفر بن السماك والحباب بن كاتب ويكنى بأبى عبد الله بن كاتب، وأبو سفيان قنبر.

وكان من المحاورة بين عمر بن عبد العزيز وبينهم ما يلي: « ثم قالوا له: ان المسلمين قد شتموا على المنابر، فأظهر من عذرهم على المنابر، قال: انى أخاف أن لا أتمكن من ذلك، فقالوا له: ان أئمة العدل لا تسعهم التقية، وقد قتل المسلمون وصلبوا، وقطعت أيديهم وأرجلهم، فأظهر عذر المسلمين والبراءة من الظالمين فانه لا يسعك إلا ذلك .

(٢٥) أبى خلدون - تاريخ ٩٠/٣ .

(٢٦) ن . م - ١٤٣/٣ .

فقبل ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وقال نقيم العدل ولو غليت لحومنا المراحل بالعشى، وقال عمر بن عبد العزيز: ان فعلت ذلك عوجلت، ولكن على لكم ان نميت كل يوم بدعة، ونحى كل يوم سنة فلم يقبلوا منه، وقالوا نخرج عنك على الا نتولاك.

فقبل لما أخبر أبو عبيدة مسلم ابن أبي كريمة بما كان منه ومنهم قال: ليت القوم قبلوا منه^(٢٧).

وموقف أبي عبيدة هو الذي استقر عند أهل الاستقامة اذ يترضون جميعا على عمر بن عبد العزيز وانما كانت رغبة الوفد في دفع العجلة بقوة، وفعلا حرص هذا الخليفة العادل بكل ما في وسعه على أن يحول الأموية الى خلفه راشدة وذلك من يومه الأول حيث أراد أن يستعفى من البيعة لكن الناس أبوا الا أن يبايعوه.

وفعلا قد صدق حدس عمر في اجابته للوفود بأنه ان تعجل عوجل، وقد عوجل بحق اذ تتفق المصادر على أنه دس له السم فرحة الله عليه.

وهاك وصيته ليزيد بن عبد الملك وقارن بينها وبين وصية معاوية التي عرفتها من قبل «اما بعد فاتق يا يزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة، ولا تقدر على الرجعة، انك ترك ما أترك لمن لا يحمذك وتصير إلى من لا يعذك والسلام»^(٢٨).

ثم تولى اليزيد بن عبد الملك فغير كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز^(٢٩) ومن ذلك ما كان بين ولاته وبين آل المهلب، وكالعادة ترسل الرؤوس فت نصب، وشتان بين الخليفة الناسك والفتى الماجن الذي يعز عليه أن يفارق حبابة المغنية حية وميتة اذ أقام أياما لا يدفنها وقد ماتت في قصره حتى جيفت، وجاء في الأغاني «كانت حبابة مولدة من مولدات المدينة حلوة جميلة الوجه ظريفة حسنة الغناء، وقد قال يزيد بن عبد الملك: ما تقر عيني بما أوتيت من الخلافة حتى أشتري سلامة وحبابة، فأرسل فاشتريتا له، فلما اجتمعنا عنده قال: أنا الآن كما قال القائل:

فألقب عصاها واستقر بها النوى كما قر عين بالاياب المسافر

ثم يذكر أبو الفرج أن مسلمة بن عبد الملك لأمه على ذلك وكان على وشك التوبة إلا أن حبابة احتالت عليه وأرجعته الى مجونه «فعدل اليها عندما غنت:

(٢٧) خميس بن سعيد الشقصي - منهج الطالبين وبلاغ الراغبين، تحقيق سالم بن حمد الحارثي، ط. مطبعة عيسى البابي الحلبي، وشركاه القاهرة، نشر وزارة التراث القومي ١٩٧٩ - ١/٦١٧ - ٦١٨.

(٢٨) أبْن خلدون - تاريخ ١٦٥/٣ . (٢٩) ن . م . ١٦٥/٣ .

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وان لام في ذو الشنان وفندا
وقال صدقت والله ، فقبح الله من لامنى فيك»^(٣١).

وجاء عند ابن طباطبا في الفخرى (ص ١٧): «كان يزيد بن عبد الملك خليع بنى أمية
شغف بجاريتين اسم احدهما سلامة والأخرى حبابة فقطع معها زمانه وقالوا فغنت يوما
حبابة:

بين التراقى واللهاة حارة ما تطمئن ولا تسوغ فتبرد
فأهوى يزيد ليطير، فقالت: يا أمير المؤمنين لنا فيك حاجة، فقال: والله لا طيرن، قال
فعلى من تدع الأمة؟ قال: عليك وقبل يدها فخرج بعض خدمه وهو يقول «سخت عينك
فما أسخنك»^(٣٢).

ويورد المسعودى في مروج الذهب (١٧٥/٢) مدى شغفه بها مبينا أنه شغف تجاوز الحد
وذلك في ما يلي: «ان حبابة اعتلت، فأقام يزيد أياما لا يظهر للناس ثم ماتت، فأقام أياما
لا يدفنها حتى جيفت فقبل له: ان الناس يتحدثون بجزعك وان الخلافة تجل عن ذلك
فدفنها وأقام على قبرها فقال:

ان تسل النفس أو تدع الهوى فبالياس تسلو النفس لا بالتجلد
ثم أقام أياما قلائل ومات»^(٣٣).

هذا هو كما ترى عمل (الخليفة) الذى عمل بعكس وصية سلفه الصالح عمر بن عبد
العزیز.

ويتربع هشام بن عبد الملك عشرين سنة على عرش الخلافة لكن كيان هذا العرش بدأ
يتزعزع من شدة ما عرف الناس من الظلم اذ بلغ الأمر الى أن تؤخذ الجزية حتى ممن أسلم:
«وألح هانىء في الخراج واستخف بفعل العجم والدهاقين، وأقيموا في العقوبات وحرقت
ثيابهم وألقيت مناطقهم في أعناقهم وأخذت الجزية ممن اسلم»^(٣٤)

٣٠ أبو الفرج الاصبهاني - الأغاني ١٣/١٤٨ نقلا عن جمهرة خطب العرب - ٤٧٣ .

٣١ ن . م ٤٧٣ .

٣٢ ن . م ٤٧٣ .

٣٣ أبين خلدون - تاريخ - ١٨٧/٣ .

وقد بلغ ظلم الولاة أشده خاصة في أطراف البلاد الأمر الذي اضطر هشام الى الأمر بعزل أسد بن عبد الله عن خراسان ذلك انه كان: «يتعصب حتى أفسد الناس وضرب نصر بن سيار بالسياط، وعبد الرحمن بن نعيم، وحلقهم وسيرهم إلى أخيه وكتب اليه أنهم أرادوا الثوب بي، فلامه يوما فلعن أهل خراسان»^(٣٤)، ولكنه وان انتبه إلى خراسان فانه غفل عن افريقية فثار عليه أهلها بعد أن أقاموا الحجة وأيقنوا أن الخليفة شريك للولاة في طغيانهم اذ أقاموا ببابه حتى نفدت نفقاتهم دون أن يسمح لهم بالدخول عليه رغم ما تجشموه من عناء الرحلة.

«لم يزل أهل افريقية، من أطوع أهل البلد، واسمعهم الى زمان هشام، حيث دب اليهم أهل العراق فاستشاروهم وشقوا العصا وفرقوا بينهم الى اليوم، وكانوا يقولون: لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال، فقال لهم انما يعمل هؤلاء بأمر أولئك فقال حتى نخبرهم. فخرج ميسرة في تسعة وعشرين رجلا فقدموا على هشام فلم يؤذن لهم فدخلوا على الابرش فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزونا وبجنده فإذا غنمنا نفلهم ويقول هذا أخلص لجهادكم، وإذا حاصرنا مدينة قدمنا وأخرهم، يقول هذا ازدياد في الأجر، ومثلنا كفى اخوانه، ثم انهم عمدوا الى ماشيتنا فجعلوا يبقرون بطونها عن سخاها ويطلبون الفراء الابيض لأمر المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد، فاحتملنا ذلك، ثم أنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ونحن مسلمون فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم فكتبوا أساءهم ودفعوها الى وزرائه، وقالوا: ان سأل أمير المؤمنين فاخبروه، ثم رجعوا الى افريقية فخرجوا عن عامل هشام وقتلوه، واستولوا على افريقية وبلغ الخبر هشاما فسأل عن النفر فعرف أساءهم فإذا هم الذين صنعوا ذلك».

ولإزاء ثورة أهل افريقية نشطت ثلاث حركات في المشرق دعت الى الكتاب والسنة، أما الأولى وهي التي ستطرح بهذا العرض بعد حين لكن لتقيم عرشا وراثيا مماثلا له، وهي الحركة العباسية، وقد انطلقت متحالفة مع بعض الشيعة وقد حرص هشام وعماله على وأدائها قبل أن تولد. ومن ذلك «أن أسد بن عبد الله في ولايته الثانية سنة سبع عشرة أخذ سليمان بن كثير ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب، ولاهز بن قريط بثلاثمائة سوط، كما أنه من قبل قتل أبا محمد زياد، مولى همدان في عشرة من أهل الكوفة لانهم سعى بهم لديه^(٣٥) كما أن هشام نفسه قطع أيدي من ظفر به منهم (دعاة العباسية) وصلبه»^(٣٦).

(٣٤) ن . م - ١٨٦/٣ .

(٣٥) ابن الأثير (١٢٣٢/٦٣٠) - الكامل في التاريخ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨/١٩٨٧ - ٤٥٣ .

(٣٦) ابن خلدون - تاريخ ٢١٦/٣ . (٣٧) ن . م ٢١٥ .

وأما الثانية فهي حركة زيد بن علي، وقد كان الحكم بن الصلت على الكوفة من قبل يوسف بن عمر حين انطلقت الثورة الزيدية شعارها «الدعوة الى الكتاب والسنة وإحياء السنن وإطفاء البدع، لأن الأمويين ظلموا المسلمين أجمعين» (٣٨).

وتنتهي الثورة بقتل زيد بن علي لكن ليت الأمر وقف عند هذا الحد وإنما هو الطغيان والرغبة في إهداء الرؤوس تدفع إلى نبش القبور «... ثم رمى زيد عند المساء بسهم أثبتته فرجع أصحابه وأهل الشام يظنون أنهم تحاجزوا، ولما نزع النصل من جبهته مات فدفنوه، وأجروا عليه الماء وأصبح الحكم يوم الجمعة يتبع الجرحى من الدور، ودله بعض الموالي على قبر زيد فاستخرجه وقطع رأسه وبعث به الى يوسف بالحيرة، فبعثه إلى هشام فنصبه على باب دمشق، وأمر يوسف الحكم أن يصلب زيدا بالكناسة ونصر بن قريمة ومعاوية بن اسحاق، ويحرسهم فلما ولى الوليد أمر باحراقهم» (٣٩).

تلك هي حرمة الموتى عند الأمويين تقطع الرؤوس وتصلب الجثث، كل ذلك عبرة لمن يعتبر حتى لا يجرؤ امرؤ على مخالفة بنى مروان كأن الملك يجب أن يكون فيهم أبديا لكن لله في خلقه شؤون.

وأثناء هذه المهرجانات الخالدة تلقى الخطب وتنشد الأشعار التي تقلب الحق باطلا والباطل حقا، ومن ذلك خطبة يوسف بن عمر على منبر الكوفة في هذه المناسبة السعيدة لدى أسياده ومنها «... أما والله ما علوت منبري إلا أسمعتمكم ما تكرهون عليه، فإنكم أهل بغي وخلاف، ما منكم الا من حارب الله ورسوله... ولقد، سألت أمير المؤمنين أن يأذن لي فيكم، ولو اذن لقتلت مقاتليكم وسبيت ذرايكم» (٤٠).

ومن الاشعار قول قائلهم :-
 ألا يا ناقص الميثا ق أبشر بالذي ساكا
 نقضت العهد والميثا ق قدما كان قدماكا
 لقد اخلف ابليس الـ ذي قد كان مناكا

هكذا فالمخالف للفكر الأموي حينئذ يتحرك عن أماني أبلـيس ويحق سبى ذراريه ليرتدع . ويموت هشام ورغم تردده في شأن الوليد تأتيه هذه (الخلافة) على ما هو عليه من مجون وليس

(٣٨) ن . م ٢١٥ .

(٣٩) ن . م ٢١٣ .

(٤٠) الطبري - تاريخ ٢١٠/٤ .

هو الأول من نوعه فلا غرابة في الأمر بل العكس هو الغريب . وتأمل في رحلته التأديبية الى الحج كما يوردها الطبري «واتخذ الوليد ندماء فأراد هشام أن يقطعهم عنه فولاه الحج سنة ١١٩هـ - ٧٣٧م فحمل معه كلابا في صناديق فسقط منه صندوق، فاجالوا على الكرى السباط، فأوجعوه ضربا، وحمل معه قبة عملها على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة وحمل معه خمرا . . . وظهر للناس منه تهاون بالدين واستخفاف به . . . »^(٤١) .

ولم تشته (الخلافة) عندما أفضت اليه عما كان عليه بل «لم يزد في الذي كان فيه من اللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق الا تماديا وحدا»^(٤٢) .

ومما نسب اليه من الشنائع رميه المصحف بالسهم حين استفتح فوقه على قوله تعالى ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ [١٤ إبراهيم ١٥] وينشدون في ذلك :

تهدني بجبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل: يا رب خزني الوليد^(٤٣)

ويكفي هذا الخليفة - ولا فخر - انه لم يكتف بقبول رأس يحيى بن يزيد هدية وما أكثر الرؤوس المتطايبة الى عاصمة الخلافة بل «كتب الى يوسف بن عمر اذا أتاك كتابي هذا فانظر عجل العراق فأحرقه ثم انسه في اليم نسفا، قال: فأمر يوسف خراش بن حوشب، فأنزله من جذعه (وقد كان مصلوبا) وأحرقه بالنار، ثم رضه فجعله في قوصرة، ثم جعله في سفينة ثم ذراه في الفرات»^(٤٤) .

وينتهي أمر الوليد بأن يقتل في قصره وهو أخذ المصحف وأحبه يوما كيوم عثمان وقدم رأسه هدية ليزيد كما استقبل هو من قبل رؤوسا هدية، وحجة القتلة أنهم ينقمون عليه في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيه واستخفافه بأمر الله لكنه ذكر لهم أن في ما أحل الله سعة»^(٤٥)

ولم يستقر الأمر لا لليزيد ولأخيه ابراهيم من بعد وتأججت نار الخلافة من كل مكان، ورغم الجهد الجبار الذي بذله مروان بن محمد لانقاذ العرش الأموي أبت هذه الدولة التي شاخت إلا أن تلفظ أنفاسها لتخلفها دولة أخرى شبيهة بها ألا وهي دولة بني العباس .

(٤٤) الطبري - تاريخ - ٢٣٣/٤ - ٢٣٤ .

(٤١) ن . م - ٢٢٥/٤ .

(٤٥) ر.ن.م. - ٢٤٣/٤ .

(٤٢) ن . م - ٢٣٥/٤ .

(٤٣) أبن خلدون - ٢٢٥/٣ .

تلك اذن بعض معالم خلافة بنى أمية ، تلکم الخلافة التي سخر معاوية كل مكره ودهائه لإرساء قواعدها على أسس الطغيان والجبروت ، وأبى إلا أن تبقى سفيانية أموية إلا أن القدر أبى إلا أن يحبط قراره فقام حفيده معاوية ليدین الأموية كما رأينا ادانة تامة .

ويتزعزع الايوان الكسرى وتكاد تعصف به العواصف لكن مروان قفز قفزة فرعونية فضرب الرقاب ، وقهر العباد ، وحول مجرى الوادي الى المروانية فورثها عبد الملك وجاء من بعده الوليد ويكفي هذا العهد المجيد فخرا شهادة عبد الملك نفسه «ماذا سأقول يوم المسألة عن أمر الحجاج» هذا الحجاج الذي بشر بوعيده فأخذ الولي بذنب مولاه ، والمقيم بذنب الظاعن ، والمطيع بذنب العاصي ، فصار الرجل يلقي أخاه فيقول أنج سعد فقد هلك سعيد ، ولم يكفه ذلك فلم يسلم من عتوه حتى أول بيت وضع للناس .

بهذا وغيره مما عرفت انقلبت القيم فصار الصالحون يلعنون على المنابر والحجاج يمدح في المحافل .

ولم أر كالحجاج عوناً على التقى ولا طالبا يوماً طريدة نابل
بسيف الله يضرب من عصي على قصر الاعناق فوق الكواهل

وكذا تحول الوليد الى امام مصطفى على حد تعبير جرير:

ان الوليد هو الامام المصطفى بالنصر هز لواؤه والمغنم
ذو العرش قدر أن تكون خليفة ملكك فاعل على المنابر واسلم

وفي هذا القدر كفاية لتعلم لماذا ثار ابو حمزة وأمثاله لتخليص العباد من عبادة العباد الى عبادة رب العباد ، وقبل أن تنتقل الى ذكر استعداد أهل الاستقامة لاقامة امامة الظهور يحسن ان نطوف قليلا في حمى الحرمين لنعلم شيئا مما تردت اليه الاوضاع هناك .

- (١) ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩/١٦٧٨) ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت د.ت : ١٧٧/١ .
- (٢) عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨/١٤٠٦) ، المقدمة .
- (٣) الشيخ محمد الخضري بك : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة الأموية ، دار الفكر العربي - د.ت ٢٠٨/٢ .
- (٤) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠/٩٢٢) تاريخ الأمم والملوك ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ط ٢ ، ١٤٠٨/١٩٨٨ - ٢٦٧/٣ .
- (٥) عباس محمود العقاد - معاوية بن أبي سفيان - المكتبة العصرية - بيروت - د.ت. ص ٨٥ .
- (٦) الطبري - تاريخ ٢٦٠/٣ .
- (٧) ابن خلدون - التاريخ ٣٦/٣ نقلا عن ابن الاثير - الكامل ٢٥٢/٣ ، طبع مصر .
- (٨) ن . م - ٣٥/٣ .
- (٩) أحمد محمد الحوفي - الفكاهة في الأدب ، القاهرة - ١٦٩/١٩٦٦ .
- (١٠) الطبري - تاريخ ٢٧٧/٣ .
- (١١) ابن سمية - هو عمار بن ياسر .
- (١٢) أبو القاسم أبراهيم البرادي - الجواهر المنتقاء لما أخل به كتاب الطبقات ، ط . حجرية القاهرة - ١٣٠٢/١٨٨٥ - ١٦٣-١٦٤ .
- (١٣) أنظر المحور الثالث - خطب أبي حمزة وتحليلها .
- (١٤) الطبري - تاريخ ٢٦٠/٣ .
- (١٥) ن . م - ٣٣٤/٣ - ٣٣٦ .
- (١٦) ن . م - ٣٣٦/٣ .
- (١٧) ر . ن . م - ٣٣٨/٣ .
- (١٨) نقلا عن أحمد زكي صفوة - جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة ، المكتبة العلمية بيروت - ١٣٥٢/١٩٣٣ ، الجزء الثاني للعصر الأموي - ٤٧٠ .
- (١٩) ابن خلدون - تاريخ - ٤٦/٣ ، وقد حلل القضية ابن حجر العسقلاني في فتح الباري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، وعجب الدين الخطيب ، ط . دار المعرفة بيروت - د.ت ٤١/٤ - ٤٣ و ٤٧ - ٤٨ ، وقد أورد آراء الفقهاء في شأن إستحلال حرم الله تعالى .
- (٢٠) المسعودي (ت ٣٤٦/٩٥٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٤٠٢/١٩٨٢ ، ٩٤/٢ .

(٢١) سنفضل الحديث عن الله في مكة والمدينة في العنصر اللاحق إن شاء الله .

(٢٢) نقلا عن خالد محمد خالد - خلفاء الرسول ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٢ - ١٣٩٤/١٩٧٤ ، ٦٧ .

(٢٣) الطبري - تاريخ ٣/٣٧٩ .

(٢٤) الطبري - تاريخ ٥٤٨ .

(٢٥) ابن خلدون - تاريخ ٣/٩٠ .

(٢٦) ن . م - ٣/١٤٣ .

(٢٧) خميس بن سعيد الشقصي - منهج الطالبين وبلاغ الراغبين ، تحقيق سالم بن حمد الحارثي ، ط . مطبعة عيسى البابي الحلبي ، وشركاه القاهرة ، نشر وزارة التراث العماني ١٩٧٩ - ١/٦١٧-٦١٨ .

(٢٨) ابن خلدون - تاريخ ٣/١٦٥ .

(٢٩) ن . م - ٣/١٦٥ .

(٣٠) أبو الفرج الأصبهاني - الأغاني ١٣/١٤٨ نقلا عن جمهرة خطب العرب - ٤٧٣ .

(٣١) ن . م ٤٧٣ .

(٣٢) ن . م ٤٧٣ .

(٣٣) ابن خلدون - تاريخ ٣/١٨٧ .

(٣٤) ن . م - ٣/١٨٦ .

(٣٥) ابن الاثير (٦٣٠/١٢٣٢) - الكامل في التاريخ ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨/١٩٨٧ - ٤٥٣ .

(٣٦) ابن خلدون - تاريخ ٣/٢١٦ .

(٣٧) ن . م ٢١٥ .

(٣٨) ن . م ٢١٥ .

(٣٩) ن . م ٢١٣ .

(٤٠) الطبري - تاريخ ٤/٢١٠ .

(٤١) ن . م - ٤/٢٢٥ .

(٤٢) ن . م - ٤/٢٣٥ .

(٤٣) ابن خلدون - ٣/٢٢٥ .

(٤٤) الطبري - تاريخ ٤/٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٤٥) ر . ن . م - ٤/٢٤٣ .

الفصل الثاني

الحجاز، عزلة سياسية واغراق في اللهو

يروى عن الطبري بسنده عند حديثه عن معركة قديد^(١) واصفا جيش الحجازيين بما يلي : «فنزّل قوم مغتروا ليسوا بأصحاب حرب» .

وجاء في الأغاني «فوجه (والى المدينة) ثمانية آلاف رجل من قريش والأنصار والتجار اغمار لا علم لهم بالحرب، فخرجوا في المصبغات والثياب الناعمة واللهو»^(٢) .

لماذا لم يكن أهل المدينة أصحاب حرب وكانوا قوما مغترين على حد تعبير الطبري، وغيره؟ هذا ما سنعرفه في هذه السطور بشيء من الاختصار غير المخل .

كل مسلم عندما يذكر عنده الحرمان الشريفان يهتز كيانه ويتصور الا يكون هناك الا ما يقارب الكمال من الرجولة والشجاعة والتقوى والورع خاصة في القرن الأول لهجرة رسول الله ﷺ . لكن سرعان ما يتبدد هذا التصور ويحل محله العكس تماما أو يكاد ولم يكن ذلك من باب الصدفة وانما هو تخطيط السياسة التي عرفنا من اخطبوطها في ما سبق ، فإذا ما تتبعنا قائمة أسماء الولاة الذين ولاهم الأمويون بعد ان استأثروا بعاصمة الخلافة في دمشق - على الحجاز بما فيها مكة والطائف والمدينة وجدنا أن ثلثهم أو اكثر من الأسرة الحاكمة والبقية من المواليين لها من الثقفيين والمخزوميين، كأن أمر الحجاز محجور على أهله .

مع العلم أن السلطة المركزية قد تجعل واليا واحدا على الحجاز وقد تفرد لكل من الحرمين واليا، وقد تضيف إلى أحدهما الطائف وفي بعض الأحوال تكون الجزيرة كلها بما فيها لوال واحد^(٣) .

وبهذا ندرك كيف ابعدت الدولة الأموية ابناء المهاجرين والانصار عن عالم السياسة حفاظا على كيانها لأنهم نازعوا مؤسسها من يومها الأول ما كانوا من أهل العراق من صف الامام علي، ولم يكن معاوية لينقصه الذكاء وهو من أكبر دهاة العرب فعمل على إغداق الأموال على

١ (سنفضل الحديث ان شاء الله عن هذه المعركة في المحور الرابع ضمن أخبار أبي حمزة الشاري .

٢ (الطبري - تاريخ - ٣٢٨/٤ - الأغاني ١٢١/٢٣ .

٣ (لزيادة التفصيل أنظر - ابن خلدون - تاريخ عمال بني أمية على النواحي ٢٨٧/٣ - ٣٠٣ .

وكان عمر بن عبد العزيز (وكان واليا على المدينة آنذاك) اذا وجد رجل يصفف جمته السكينية جلده وحلقه»^(١١)، والثانية عائشة بنت طلحة وأنظر إليهما تحتصمان إلى عمر بن أبي ربيعة «قالت سكينة لعائشة بنت طلحة: أنا أجمل منك، وقالت عائشة: بل أنا فاخترتصمتا إلى عمر بن أبي ربيعة، فقال: لا قضين بينكما، أما أنت يا سكينة فأملح منها، وأما أنت يا عائشة فأجمل منها، فقالت سكينة: قضيت لي والله»^(١٢).

وكانتا تتنافسان ومن ذلك ما جاء في الاغاني «أن عائشة بنت طلحة حجت وسكينة بنت الحسين (رضي الله عنهما) معا، وكانت عائشة أحسن آله وثقلا فقال حادياها:

عائش يا ذات البغال الستين لا زلت ما عشت كذا تحجين

فشق ذلك على سكينة ونزل حادياها يقول:

عائش هذه ضرة تشكوك لولا أبوها ما أهتدى أبوك
فأمرت عائشة حادياها أن يكف فكف»^(١٣)

أنى لشباب الحجاز أن يصمد وهاتان ومثيلاتهما كثير يعملن على أن يجعلن من أنفسهن تحفا فنية، تحفا تملك ضروبا وألوانا من الحسن والجمال لا حسنا واحدا ثابتا، وإذا لتفننهن في زينتتهن تأثير شديد قاهر حتى في هيئة الرجال وزنهم، فيعمدون إلى تقليدهن دون مبالاة بما يحتمه فارق الجنس من إختلاف في الزي والهيئة»^(١٤).

وهذه جميلة تجرؤ على عبد الله بن جعفر تستزيه بعد أن هيأت المجلس ونسقته تنسيقا غريبا «جلست جميلة يوما للوفادة عليها وجعلت على رؤوس جواربها شعورا كالعناقيد إلى أعجازهن، والبستهن الثياب المصبغة، ووضعت فوق الشعور التيجان وزينتتهن بأنواع الحلى، ووجهت إلى عبد الله بن جعفر تستزيه، فما كان من عبد الله بعد أن لبي الدعوة وحضر المجلس إلا أن قال «ما ظننت أن مثل هذا يكون أو أنه لما يفتن القلب»^(١٥).

ولا ترى سكينة حرجا من التحرر في القول . . . ولعل من أسباب هذا التحرر (والعهدة على صاحب الأغاني) الذي حدا بها الى الأفحاش في القول أحيانا إختلاطها بالرجال مما قد يؤدي الى التشبه بهم وإحتذائهم في القول والفعل»^(١٦).

(١١) الأغاني - ٩٤/١٦. (١٢) ن. م. - ١٠٠/٦. (١٣) ن. م. - ١٧٧/١١ - ١٧٨.

(١٤) البشير المجدوب - الظرف والظرفاء بالحجاز في العصر الأموي - دار التركي للنشر - تونس ١٩٨٨/١٤٠٨ - ٣٤.

(١٥) الأغاني - ٢٢٧/٨ - ٢٢٩. (١٦) ن. م. - ٩٤٤/١٦.

هؤلاء، ومال طائل مع فراغ مهول ويأس من خوض غمار السياسة لا تولد إلا أحد أمرين إما علم ونسك وزهد في الدنيا، وإما إنغماس في الشهوات إلى الأذقان.

وفعلا فقد عرف الحرمان الشريفان، مدرستين إسلاميتين عريقتين تخرج منهما جيل من التابعين على أيدي أصحاب رسول الله ﷺ ويأتي في مقدمتهم في مكة مجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح، وطائوس بن كيسان، وفي المدينة سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام^(٤).

لكنهما أيضا عرفا طبقة من المترفين الذين ضربوا أشواطا في اللهو والعبث والمجون، ومن سياسة الأمويين انهم كانوا يدينون هؤلاء حتى بقوا دائما تبعاء لهم، ومن ذلك ما جاء في الأغاني «كان السلطان بالمدينة إذا جاء مال الصدقة أذان من أراد من قرش منه، وكتب بذلك صكا عليه فيستعبدهم به ويختلفون إليه ويدارونه فإذا غضب على أحد منهم أستخرج ذلك منه»^(٥).

ويذكر أحمد أمين أسبابا عدة من بينها العامل السياسي «وربما كان السبب أن الأمويين تبوأوا الخلافة وحصروها فيهم بل في بيت من بيوتهم وضيقوا على من عداهم من بطون قرش، وحجروا عليهم التفكير في الشؤون السياسية فأنصرف فتيان الحجاز بالهزم من مال وفير وجاه عزيز عن الأمانة والخلافة والسياسة إلى اللهو فكان الظرف وكان الغناء وكان المجون»^(٦).

وذلك هو مذهب طه حسين حيث يقول «وربما كان من الخير أن نلاحظ أن الذين ذهبوا مذهب اللذة في هذا الفن (الغزل) كانوا المترفين من أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار الذين ورثوا الأموال الطائلة الضخمة عن آبائهم وحيل بينهم وبين العمل السياسي. ومن هنا كانت مكة والمدينة - في العصر (عصر عمر بن أبي ربيعة) أقرب إلى اللهو والمجون والإفتتان باللذة وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل من دمشق عاصمة الملك ومستقر الخلافة»^(٧).

٤ () إنظر - أحمد أمين - فجر الإسلام - مكتبة النهضة المصرية ط ٦ ١٩٦٤ ص ١٧٠ - ١٧٦ .

٥ () أبو الفرج الأصفهاني (٩٦٦/٣٥٦) الأغاني - دار الثقافة بيروت ١٩٨٣ - ٦/١٥ - ٧ .

٦ () أحمد أمين - فجر ١٧٩ .

٧ () طه حسين - المجموعة الكاملة - دار الكتاب اللبناني - بيروت ط ٢ - ١٩٨٠ - حديث الأربعاء - ٣٣٨/٢م .

والى جانب سياسة الامويين الهادفة يذكر ما نال اهل المدينة ومكة من خير الجوارى وأرفعهن نسبا والأمراء تأدبا، ومنهن من تربت ببيت الملوك والأمراء وتأدبت بأداب الحضارة فنقلن ذلك الى الحجاز وصبغنه بالصبغة العربية، وكان لهن الفضل في تأسيس مدرسة الغناء بالحجاز^(٨). وفي هذا المضمار يطوف بنا أبو الفرج الأصفهاني في أطراف مكة والمدينة ونواحيهما ومجال الأئس فيها فنجد ما لا يخطر على بال حتى يدخلنا الريب أنحن في الحرمين حيث كانت الأرض متصلة بالسماء، أم بدلت الأرض غير الأرض وتمرد الأحفاد على مسلك الرعيل الأول الذي لم يعرف في حياته إلا الجد والتفاني في الدعوة الى الله، ذاك هو الواقع وإن كان أليها وثقيلا على النفس الطاهرة التي لا ترى في الحرمين إلا القداسة.

وهل لك أن تعيش مع هذا المشهد لتدرك كلف أهل الحجاز بالغناء والمغنين «أجتمع أبن سريج ومعبد والغريض وكتبوا لحنين (وهو بالعراق) يقولون: نحن ثلاثة وأنت وحدك فأنت اولى بزيارتنا، فشخص إليهم . . وأجتمعوا بمنزل سكيئة فلما دخلوا أذنت للناس إذنا عاما فغصت الدار بهم . . وأزدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه، فسقط الرواق على من تحته ومات حنين تحت الهدم»^(٩).

وإن بدا لك هذا المشهد غريبا فأنظر إلى أهل المدينة وهم ينتحبون بكاء، لماذا يا ترى؟ لأصاب جلل!! نعم إنه لمصاب أن تفارق سلامة المغنية محيطهم: «قدمت رسل يزيد بن عبد الملك المدينة فاشترؤا سلامة المغنية من آل رمانه بعشرين ألف دينار . . فخرجت حتى نزلت ساقية وشييعها الخلق من أهل المدينة، فلما بلغوا الساقية قالت للرسول: قوم كانوا يخشونني ويسلمون علي، ولا بد لي من وداعهم والسلام عليهم، فأذن للناس عليها فانقضوا حتى ملأوا رجة القصر ووراء ذلك فوقفت بينهم ومعها العود فغنتهم:

فارقوني وقد علمت يقينا ما لمن ذاق ميتة من إياب
قال عيسى «وكننت في الناس، فلم تزل تردد هذا الصوت حتى راحت وأنتحب الناس
بالبكاء عند ركوبها، فما شئت أن أرى باكيا إلا رأيته»^(١٠).

وإذا قلنا غناء فما وقود ذلك إلا نساء وشعراء وشعر ومجالس، أما عن النساء فقد اشتهرت اثنتان بدلالهن وتفنتهن في هذا المضمار، إحداهن سكيئة بنت الحسين وقد «كانت أحسن الناس شعرا وكانت تصفف جمعتها تصفيفا لم ير أحسن منه، وكانت الجمرة تسمى السكيئة

٨ (أحمد أمين - فجر ١٧٩.

٩ (نقلا عن احمد امين - فجر ١٧٦ - الأغاني ١٢٢/٢ - ١٢٣.

١٠ (الأغاني - ٣٤٥/٨.

كما أن هذه المجالس لا تخلو غالبا من الخمرة وهذه جميلة تقول (وقد أجتمع لديها مغنون من مكة ضيوفا عندها وبعض من مغنى المدينة «ما أحسن مجلسنا لو دام إجتماعنا، ثم دعت بالغذاء فأتى باللوان الأطعمة وأنواع من الفاكهة ثم قالت: لولا شناعة مجلسنا لكان الشراب معدا ولكن الليل بيننا، فلم يزالوا يومهم ذلك بأطيب مجلس وأحسن حديث، فلما جنهم الليل دعت بالشراب ودعت لكل رجل منهم بعود وأخذت هي عودا فضربت...»^(١٧).

وما يذكر في باب لطف معاملة الجلساء والرفق بهم ومراعاة منازعهم الخاصة والحرص على عدم إخراجهم عدم إلزام الحاضرين بتناول الشراب، وتلطفها (جميلة) في إلتماس ذلك منهم «... ثم دعت بأنواع الأشربة فقال عمر بن أبي ربيعة: لا أشرب، وقال إلى عتيق مثل ذلك فقال الأحوص لكنني أشرب، وما جزاء جميلة أن يمتنع من شربها؟ قال عمر: ليس ذلك كما ظننت، قالت جميلة: من شاء أن يحملني بنفسه ويخلط روحي بروحه شكرناه، ومن أبى عذرناه، ولم يمنعه ذلك عندنا من قضاء حوائجه والأنس بمحادثته، قال ابن أبي عتيق ما يحسن بك إلا مساعدتك، قال عمر: إلا أكون أخسكم، إفعلوا ما شئتم تجدوني سميعا مطيعا، فشرب القوم أجمعون»^(١٨).

ولم يكن عمر بن أبي ربيعة حكرا على جميلة بل كان يريد أن تزول الفروق بين الجنسين وألا يكون بينهما حجاب ولذلك فهو لم يكن يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض للجمال فلا يفرغ من تشييع امرأة إلا قال الشعر الجيد يسبقها الى موطنها، ولا يلبث أن يسقط بين أيدي المغنين فإذا هو مصدر للهو والطرب لهذه الارستقراطية المترفة من أبناء قريش والأنصار فكان موسم الحج موسم شعر وغناء في الحجاز، فالصلة الجنسية حينئذ هي أساس الحياة الأدبية وغايتها بالقياس إلى عمر فهو لم يكن يتصور المرأة إلا على أنها مكملة للرجل لا يستطيع ان يعيش بدونها^(١٩) وها أنا أدخل بك المطاف - وأنت تعلم قداسة هذا المكان الذي تساوى فيه الصلاة مائة ألف صلاة في غيره من الأماكن - لتلقى عمر بن أبي ربيعة، ما يفعل يا ترى؟ إنه بلغة العصر يعاكس امرأة عفيفة، «قدمت امرأة مكة وكانت من أجمل النساء، فبينما عمر بن أبي ربيعة يطوف إذ نظر إليها فوقع في قلبه فدنا منها فكلمها فلم تلتفت إليه، فما كان في الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابها فقالت: إليك عني يا هذا، فإنك في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمه، فألح عليها يكلمها حتى خافت أن يشهر بها، فلما كانت في الليلة الأخرى قالت لأخيها: أخرج معي يا أخي فأرني المناسك فإني لست أعرفها، فأقبلت وهو معها فلما رآها عمر أراد أن يعرض لها فنظر الى أخيها فعدل عنها فتمثلت المرأة بقول جرير:

(١٧) البشير المجذوب - الظرف ٤١ هامش ٣٩ . (١٨) الأغاني - ١٩٧/٨ - ١٩٨ .

(١٩) الأغاني - ٢٠٨/٨ - ٢٠٩ .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى صولة المستأسد الضاري^(٢٠)

وترى الصلحاء يخشون على بناتهم من شعر عمر لشدة كلف الناس به ولما فيه من إثارة، يقول أبو الفرج « حدثني ضبية - مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب - قالت : مررت بجذك عبد الله بن مصعب ، وأنا داخله منزله بفنائيه ، ومعى دفتري ، فقال : ما هذا معك ؟ ودعاني فجئته وقلت : شعر عمر بن ابى ربيعة ، فقال : ويحك ، أتدخلين على النساء بشعر عمر بن أبى ربيعة ؟ إن لشعره لموقعا في القلوب ومدخلا لطيفا ، لو كان شعر يسحر لكن هو ، فأرجعني به قالت : ففعلت^(٢١) .

كما أن الأمر لا يقف عند الكلام بل يتحول إلى الفعل حيث «واعدت الثريا عمر بن أبى ربيعة أن تزوره فجاءت في الوقت الذي ذكرته ، فصادت أخاه الحارث قد طرده وأقام عنده ، ووجه به في حاجة له ونام مكانه وغطى وجهه بثوبه ، فلم يشعر إلا والثريا قد ألفت نفسها عليه تقبله ، فانتبه وجعل يقول : أغربي عني فلست بالفاسق ، أخزأكما الله ، فلما علمت بالقصة أنصرفت ورجع عمر فأخبره الحارث بخبرها فأغتم لما فاتته منها وقال : أما والله لا تمسك النار أبدا وقد ألفت نفسها عليك ، فقال له الحارث : عليك وعليها لعنة الله^(٢٢) » ويا ليت يقف عند هذا الحد بل شاع الزنا وكيف لا يشيع وكل مقدماته معروضة في الطريق وفي هذا الخبر دليل على ذلك .

يروى الأصفهاني أن أم أشعب قد زنت «فُضِرَت وحلقت وطيف بها وهي تنادي : من رأي فلا يزين ، فأشرفت عليها امرأة فقالت : يا فاعلة ، نهانا الله عز وجل عن الزنا فعصيناه ، ولسنا ندعه لقولك وأنت مخلوقة مضروبة يطاف بك^(٢٣) .

ويضاف إلى هذا ظاهر التخنث والانحراف الجنسي ويتجلى ذلك في ما يروى عن الدلال (وهو من المخنثين) من أخبار تتصل بإنحرافه الجنسي ومجونه الذي بلغ حد الاستهانة بحرمه الدين حتى لقد عد هذا المغنى المخنث خطرا على أخلاق أهل المدينة ، ولا سيما النساء .

أنظر إليه كيف يكون سببا في قتل مروان بن الحكم بنت أخيه : «كان الدلال ملازما سعيد الأسلمية وبنت ليحيى بن الحكم بن أبى العاص ، وكانتا من أجمن النساء كانتا تخرجان فتركبان الفرسين فتستبقان عليهما حتى تبدوا خلاخيلهما فقال معاوية لمروان بن الحكم أكفني

(٢٢) الأغاني - ٨٦/١ .

(٢٠) انظر طه حسين - حديث الأربعاء ٣١٣/١ .

(٢٣) ن . م - ٢١٨/١ .

(٢١) الأغاني - ٨٦/١ - ٨٧ .

بنت أخيك، فقال: أفعل، فأستزارها وأمر بيثر فحفرت في طريقها، وغطيت بحصير، فلما مشى عليه سقطت في البئر، فكانت قبرها، وطلب الدلال فهرب إلى مكة، فقالت نساء أهل مكة: قتل نساء أهل المدينة وجئت لتقتلنا»^(٢٤).

وقد رثاها عمر بن أبي ربيعة وأنتصر لها تلميحا لا تصرحا:

إن من أعظم الكبائر عندي قتل حسناء غادة عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وعلى المحصنات جر الذبول^(٢٥)

ونختم الحديث عن الدلال بما جاء من ذكر لا برز سمات شخصيته في الأغاني «إنما لقب بالدلال لشكله وحسن دلاله وظرفه وحلاوة منطقه وحسن وجهه وإشارته وكان مشغوبا بمخالطة النساء ووصفهن للرجال...»^(٢٦)

ومن أراد التعرف على ما وصل الأمر إليه من الفحش فليعد إلى أخباره في الأغاني مما نصون عنه صفحات هذا الكتاب.

ولا يفوتنا أن نذكر أيضا ما عرفته هذه الربوع الزكية من رغبة في الضحك والإضحاك رغم علم أهلها أن كثرة الضحك تميم القلب وهل بقت لمثل هؤلاء قلوب «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» [٢٢ الحج ٤٦].

وهذه منافسة بين مندرين - أشعب والغافري - «بلغ أشعب أن الغافري قد أخذ في مثل مذهبه ونواده، وأن جماعة قد أستطابوه، فربه حتى علم أنه في مجلس من مجالس قريش يهادئهم ويضحكهم، فصار إليه ثم قال له: بلغني أنك قد نحوت نحوي وشغلت عني من كان يأليني، فإن كنت مثلي فأفعل كما أفعل، ثم غص وجهه وقال له: أفعل هكذا وطول وجهه حتى كاد ذقنه يجوز صدره، وصار كأنه وجه الناظر في سيف، ثم نزع ثيابه وتحادب فصار ظهره حدة كسنام البعير، وصار طوله مقدار شبر أو أكثر. ثم قام فتطاول وتمدد وغطى حتى صار كأطول من يكون من الرجال، فضحك والله القوم حتى أغمى عليهم، وقطع الغافري فما تكلم بنادرة ولا زاد على أن يقول: يا أبا العلاء لا أعاود ما تكره وإنما أنا تلميذك وغيرك، ثم أنصرف أشعب وتركه»^(٢٧).

(٢٦) عمر بن أبي ربيعة - الديوان ٤٩٨ .

(٢٤) ن . م - ١٤٦/١٩ .

(٢٧) الأغاني - ٢٧٢/٤ - ٢٧٣ .

(٢٥) الأغاني - ١٠٤/١٦ - ١٠٥ .

ولأشعب نوادر عديدة مع أبان بن عثمان وهو أمير على مكة^(٣٨) ومع أبي بكر بن يحيى من آل الزبير^(٣٩) ومع محمد بن عمر بن حزم^(٤٠) والي المدينة فيها من الاخلال بالمرءة ما فيها.

والملاحظ أنه لم يسلم من أشرار هذا المحيط حتى من صلحت حاله من الصحابة والتابعين والعباد لكن مع محافظتهم على وقارهم وإنها هي الطرفة تعرض للصالح فلا يعرض عنها ولكنه لا يأتيها ولا يولع بها.

وتعترض عائشة بنت طلحة ثلاث مرات لأبي هريرة فيعبر عن إعجابه بجملها تعبيراً يحسب فيه الأجر من الله.

الأولى : «أن عائشة (بنت طلحة) نازعت زوجها الى أبي هريرة، فوقع خمارها عن وجهها، فقال أبو هريرة: سبحان الله ما أحسن ما غذاك أهلك، لكانها خرجت من الجنة»^(٤١).

الثانية : «..... فصارمت عائشة زوجها، وخرجت من دارها غضبي، فمرت في المسجد وعليها ملحفة تريد عائشة أم المؤمنين، فرأها أبو هريرة فقال: سبحان الله، كأنها من حور العين»^(٤٢).

الثالثة : «قال أبو هريرة لعائشة بنت طلحة: ما رأيت شيئاً أحسن منك إلا معاوية أول يوم خطب على منبر رسول الله ﷺ»^(٤٣).

ولا تعجب إذا علمت أن ابن عباس كان يحفظ شعر ابن أبي ربيعة ويستجيده وما أخاله إلا لبراعته الأدبية لما فيه من خلافة ومجون وقد جاء في الأغاني «بينما ابن عباس في المسجد الحرام، وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين موردين أو ممصرين حتى دخل وجلس فأقبل عليه ابن عباس فقال أنشدنا فأنشده:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجّر
حتى أتى على آخرها، فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال: الله يا ابن عباس، أنا نضرب إليك أكباد الأبل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام، فتثاقل عنا، ويأتيك مترف من مترفي قريش فينشدك:

(٢٨) ن . م . ١٠٢/١٩ . (٣٠) ن . م . ٨٢/١٩ . (٣٢) ن . م . ١٧٨/١١ - ١٧٩

(٢٩) ن . م . ١١٩/١٩ - ١٢١ . (٣١) ن . م . ٨٥/١٩ - ٨٨ . (٣٣) ن . م . ١٦٩/١١ - ١٧٠

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيخزي وأما بالعشي فيحسر
فقال ليس هكذا قال، قال: فكيف قال، قال:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيحضر
فقال ما أراك إلا قد كنت حفظت البيت، قال: أجل وإن شئت أن أنشدك القصيدة
أنشدتك أياها . . . قال ولامه بعض أصحابه في حفظ القصيدة فقال: إنا نستجدها فكان
أبن عباس، بعد ذلك كثيرا ما يقول هل أحدث هذا المغيري شيئا بعدنا» (٣٤).

ويذكر البشير المجذوب أنه نسب نفر غير قليل من أهل الصلاح والتقوى في الحجاز إلى
الظرف وأشتهروا به حتى قيل (ظرف عباد الحجاز) تنويعا به وتمييزا لهم عن عباد سائر الأمصار
الislamic، نذكر منهم أبا السائب المخزومي، وعطاء بن أبي رباح، وجريج، وسعيد بن
المسيب والمجاهشون، وعبد الله بن جعفر ونسوق خبرا واحدا من بين أخبار عديدة
يوضح هذه النسبة ويساعد على تصور هذا اللون من الظرف، ومن أخص ما فيه جملة تتكلم
بكلام رفث فيه، فأدثيت ناقتي منها ثم قلت يا أمة الله أأست حاجة؟ أما تخافين الله؟
فسفرت عن وجه يبهر الشمس ثم قالت: تأمل يا عمر، فإنني ممن عناه العرجى بقوله:

أما طت كساء الخنز عن حر وجهها وأدنت على الخدين بردا مهلهلا
من اللائي لم يحججن بغية حسبة ولكن ليقتله البريء المغفلا

قال فقلت لها: فإني أسأل الله أن لا يعذب هذا الوجه بالنار، قال وبلغ ذلك سعيد بن
المسيب فقال: أما والله لو كان من بعض بغضاء العراق لقال لها: أغربي قبحك الله، ولكنه
ظرف عباد أهل الحجاز» (٣٥).

تلك هي خطة بني أمية في تشجيع تيار الترف واللهو بالحجاز قد آتت أكلها، فصرف
أعيان قريش عن السياسة وأقبلوا على متع الفن ولذات الحياة، وأولعوا خاصة بالغناء
والفكاهة والمزاح، سدا للفراغ، وتعويضا عن الحرمان من السلطة، بحيث يصح القول أن
القرن الأول بالحجاز كان عصرا ضاحكا مرحا على ما فيه من جد وعلم عبادة.

وفعلا قد طرأ تطور مدهش على النفسية العربية في مدى جيل واحد ويتضح هذا الفارق
الكبير بين ما عرف به جيل الصحابة وجانب من جيل التابعين من جد وورع وبين ما جاء
في الأغاني من أخبار عن الجيل الموالي من أمثال أبان بن عثمان (وكان من أهزل الناس

(٣٥) ن. م. ٨١/١-٨٢.

(٣٤) ن. م. ١٨/١١.

وأعجبهم) وعبد الله بن جعفر ومصعب بن الزبير وسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهم كثير^(٣٦) انها لمقابلة صارخة ليس بين الأبناء والأحفاد وانما هي بين الأباء والأبناء فأين ابان من عثمان، واين مصعب من الزبير، واين سكينة من الحسين، واين عائشة من طلحة، وانت تعلم ما هؤلاء الصحابة المهاجرين من سابقة في الإسلام لم يعرف لها التاريخ مثيلا.

انها السياسة التي عرفت كيف تستغل لصالحها ما تدفق من الأموال على المدينة ومعلوم أن معاوية أرسى قواعد هذه السياسة المتمثلة في إغداق الأموال على الخصوم حتى تلين شوكتهم ويأمن شرهم.

وتروي كتب التاريخ توفر عنصر آخر مزج الأجناس ألا وهو عنصر الرقيق، فمعاوية ذاته أرسل زمن عمر إلى عاصمة الخلافة آنذاك أربعة آلاف من أسرى قياسية، كما قسم الوليد بن عبد الملك، وهو الذي فتحت الأندلس وشطر كبير من الهند في عهده، رقيقا كثيرا بين سكان أهل المدينة^(٣٧).

كل هذا ممكن من أن يجتمع في الحجاز في هذا القرن من مشهوري المغنين والمغنيات جميلة، وهيت، وطويس والدلال، وبرد الفؤاد ونوحة الضحى، ورحمة وهبة الله، ومعبد، وأبن سريج، والغريض، ومالك، وإبن عائشة، ونافع بن طنبورة، وعزة الميلاء، وحبابة، وسلامة، وبلبله، ولذة العيش، والسعيدة الزرقاء^(٣٨).

ومع ذلك يبقى موطن الخير وإن طغى الشر وحرص على أن يتعالى، ومهما حاولت الدولة الأموية عزل الحجاز حتى يطمئن لها الأمر فإن أهلها في غرق الأذقان في السياسة وهددت معارضته كيان الدولة الأموية.

فمن الحجاز خرج عبد الله بن الزبير بن العوام ودعا لنفسه بالخلافة «ودوخ جيوش بني أمية ورجالهم حيناً، وكان بها بيت علي بن ابي طالب» كما أن العلم لم يندرس فقد تخرج من الحجاز فقهاء نذكر منهم الإمام مالك الذي حضر خطبة أبي حمزة الشاري وشهد لها بما سيرد ذكره في مما يلي - ذاك الذي كاد يحرقه شرار اللهو لولا حسن توجيه أمه . جاء في الأغاني «قال (مالك بن أنس) نشأت وأنا غلام حدث أتبع المغنين وأخذ عنهم، فقالت لي أمي يا بني إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الى غنائه، فدع الغناء وأطلب الفقه، فإنه

(٣٦) ن . م - ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٣٨) شوقي ضيف - الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية - دار المعارف القاهرة - ٥٠ .

(٣٩) أحمد أمين - فجر ١٧٦ .

- ١ (سنفضل الحديث إن شاء الله عن هذه المعركة في المحور الرابع ضمن أخبار أبي حمزة الشاذلي .
- ٢ (الطبري - تاريخ ٣٢٨/٤ - الأغاني ١٢١/٢٣ .
- ٣ (لزيادة التفصيل أنظر - ابن خلدون - تاريخ عمال بني أمية على النواحي ٢٨٧/٣ - ٣٠٣ .
- ٤ (أنظر - أحمد أمين - فجر الإسلام - مكتبة النهضة المصرية ط ٦ ١٩٦٤ ص ١٧٠ - ١٧٦ .
- ٥ (أبو الفرج الأصفهاني (٩٦٦/٣٥٦) الأغاني - دار الثقافة بيروت ١٩٨٣ - ١٥/٦ - ٧ .
- ٦ (أحمد أمين - فجر ١٧٩ .
- ٧ (طه حسين - المجموعة الكاملة - دار الكتاب اللبناني - بيروت ط ٢ - ١٩٨٠ - حديث الأربعاء - ٣٣٨/٢م .
- ٨ (أحمد أمين - فجر ١٧٩ .
- ٩ (نقلا عن أحمد أمين - فجر ١٧٦ - الأغاني ١٢٢/٢ - ١٢٣ .
- ١٠ (الأغاني - ٣٤٥/٨ .
- ١١ (الأغاني - ٩٤/١٦ .
- ١٢ (ن . م - ١٠٠/٦ .
- ١٣ (ن . م - ١٧٧/١١ - ١٧٨ .
- ١٤ (البشير المجذوب - الظرف والظرفاء بالحجاز في العصر الأموي - دار التركي للنشر - تونس ١٩٨٨/١٤٠٨ - ٣٤ .
- ١٥ (الأغاني - ٢٢٧/٨ - ٢٢٩ .
- ١٦ (ن . م - ٩٤٤/١٦ .
- ١٧ (البشير المجذوب - الظرف ٤١ هامش ٣٩ .
- ١٨ (الأغاني - ١٩٧/٨ - ١٩٨ .
- ١٩ (الأغاني - ٢٠٨/٨ - ٢٠٩ .

- (٢٠) أنظر طه حسين - حديث الأربعاء ٣١٣/١ .
- (٢١) الأغاني - ٨٦/١ - ٨٧ .
- (٢٢) الأغاني - ٨٦/١ .
- (٢٣) ن . م - ٢١٨/١ .
- (٢٤) ن . م - ١٤٦/١٩ .
- (٢٥) الأغاني - ١٠٤/١٦ - ١٠٥ .
- (٢٦) عمر بن أبي ربيعة - الديوان ٤٩٨ .
- (٢٧) الأغاني - ٢٧٢/٤ - ٢٧٣ .
- (٢٨) ن . م - ١٠٢/١٩ .
- (٢٩) ن . م - ١١٩/١٩ - ١٢١ .
- (٣٠) ن . م - ٨٢/١٩ .
- (٣١) ن . م - ٨٥/١٩ - ٨٨ .
- (٣٢) ن . م - ١٧٨/١١ - ١٧٩ .
- (٣٣) ن . م - ١٦٩/١١ - ١٧٠ .
- (٣٤) ن . م - ١٨/١١ .
- (٣٥) ن . م - ٨١/١ - ٨٢ .
- (٣٦) ن . م - ٣٧٩ - ٣٨٠ .
- (٣٧) أنظر البشير المجدوب .
- (٣٨) شوقي ضيف - الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية - دار المعارف القاهرة - ٥٠ .

- (٣٩) أحمد أمين - فجر ١٧٦ .
- (٤٠) شوقي ضيف - المصدر السابق ٢٠ .
- (٤١) أحمد أمين - فجر ١٧٧ .

الفصل الثالث

اليمن : ظلم الولاة من بني ثقيف

بعد أن عرفت بلاد اليمن لذة العيش في رحاب الاسلام في ظلال أصحاب رسول الله ﷺ من أمثال معاذ بن جبل تنكب بعض أهلها للاسلام وأردت منهم من أردت فقومهم أبو بكر كما قوم غيرهم ، ثم شكا الناس يعلي بن أمية والى عمر على اليمن فشخص إلى المدينة وأظهر بطلان الشكاية فأسعفه عمر بن الخطاب لكنه شكى أخرى فدعاه إلى أن يشخص إلى المدينة ماشيا لكن ما إن أنطلق من صنعاء ملبيا حتى وافاه خبر مقتل عمر وإقرار عثمان إياه على اليمن ففقل راكبا راجعا وأستمر في الإثراء وجمع المال إلى أن عزله علي وعين مكانه ابن عمه عبيد الله بن العباس فما كان من يعلي بن أمية ويقال له يعلي بن منية الا أن انضم إلى طلحة والزبير وعائشة وأعان بهال وابل^(١) ، ويقول فيه الإمام علي بأنه أعطى الناس لأنه كان يعطي الرجل الفرس ، والسلاح وثلاثين دينارا على أن يخرج فيقاتلني «يقول ابن الأثير: ثم صار من اصحاب علي ، وقتل وهو معه في صفين»^(٢) .

وقبل أن يستقر الأمر لمعاوية أرسل بسر بن أرطاة وهو قائد جبار من الفتاكين في ثلاثة آلاف إلى المدينة فأخضعها ، وإلى مكة فأحتلها ، وإلى اليمن فدخلها^(٣) «فسفك الدماء وأرتكب الأفعال الشنيعة ، وقتل ابي عبيد الله بن العباس»^(٤) ، وكان معاوية أمره أن يوقع بمن يراه من أصحاب علي فقتل منهم جمعا وعاد إلى الشام»^(٥)

(١) راجع تاج الدين اليماني - تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن - تحقيق مصطفى حجازي - دار الكلمة صنعاء ط ٢ ١٩٨٥ .

(٢) ن . م . ٢٠

(٣) الزركلي - الأعلام طبعة ٦ دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٤ - ٢٠٤/٨ .

(٤) ن . م . ٥١/٢١ . (٥) اليماني - تاريخ اليمن - ٢٠ - ٢١ . (٦) الأعلام - ٥١/٢ .

ولاية بني أمية على اليمن

بسر بن أرطاة	
عثمان الثقفي	
عتبة بن أبي سفيان	
النعمان بن بشير الأنصاري	معاوية
سعيد بن دادويه من أبناء الفرس	
الضحاك بن فيروز	
يحيى بن زيان الحميري - صنعاء - الجند	يزيد
محمد بن يوسف الثقفي (من قبل الحجاج)	عبد الملك بن مروان
أيوب بن يحيى الثقفي (أبن عم الحجاج)	الوليد
عروة بن محمد السعدي	سليمان
مسعود بن عوف الكلبي	يزيد
يوسف بن عمر الثقفي	هشام
الصلت بن يوسف الثقفي	
مروان بن محمد بن يوسف الثقفي (أبن أخي الحجاج)	الوليد بن يزيد
الضحاك بن واصل السكسكي	يزيد بن الوليد
القاسم بن عمر الثقفي (أخو يوسف بن عمر)	مروان بن محمد

إن المتأمل في أسماء ولاية بني أمية على اليمن يدرك أن الأمويين إنما أرادوا أن يجعلوا من اليمن مقاطعة ثقفية خاصة وقد أدركوا أن هوى اليمنيين مع الزبير والعلويين .

ونحن نعلم أن هذه البلاد صارت تابعة لأبن الزبير زمن إعلانه الخلافة وهذا مما زاد الأمويين شراسة وكثيرا ما تتكرر عبارات «فسفك الدماء» و«قاطعة عليها ببال عظيم» . والمتتبع لأخبار بعض هؤلاء الولاة يتحقق أنهم لم يختاروا إلا ليسوموا أهل اليمن سوء العذاب ، كذا

كان بسر بن أرطاة كما رأينا ويليهِ في العسف بجير بن زيان الحمري إذ « قاطعه يزيد عليها (مخلاف صنعاء ومخلاف الجند) بهال عظيم في كل سنة يرسله إليه وكان بجير عاتيا متجبرا »^(١١) أما محمد بن يوسف الثقفي فيكفي أنه موفد من قبل الحجاج والطيور على أشكائها تقع ، وأستمع إلى عمر بن عبد العزيز يقول في خلافة الوليد « الوليد بالشام ، والحجاج بالعراق ، وأخوه (محمد بن يوسف) باليمن ، وعثمان بن حيان بالحجاز ، وقرّة بن شريك بمصر ، أمتلاءت الأرض والله جورا »^(١٢) .

ويذكر ابن الأثير أنه « كان يأخذ الخراج من أهل اليمن مجددا »^(١٣) ، ومن شرأته أنه قد جمع المجدومين بصنعاء وجمع لهم الحطب ليحرقهم ، فمات قبل ذلك «^(١٤) » ولسنا ندرى ماذا أصاب الوالي ممن أبتلاهم الله تعالى بمثل هذا الداء ، وكيف يجرو على إحراق خلق الله بغير ذنب أقترفوه . ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى واليه على اليمن « يأتّم بأقتصار على العشر وترك ما جدد ، محمد بن يوسف »^(١٥) لكن لم تدم حلاوة العيش هذه لأهل اليمن ولا لغيرهم من المسلمين في أطراف العالم الاسلامي وحالما تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك « أمر وإلى مسعود بن عوف الكلبي أن يأخذها (الأموال) من أهل اليمن حتى إذا إقتضى الحال أن يصبحوا ضد الدولة الأموية »^(١٦) .

ثم تربع على كل مخالف اليمن مدة ثلاث عشرة سنة يوسف بن عمر الثقفي ، وهو من جبابرة ولاة بني أمية ، يسلك سبيل الحجاج في الأخذ بالشدة والعنف ، وكان يضرب به المثل في التيه والحمق ، يقال أتيه من أحق ثقيف ، ويقول عنه الذهبي « كان مهيبا جبارا ظلوما »^(١٧) .

ويعتبر هشام بن عبد الملك صقرا من قريش إذ يقذف به من اليمن إلى العراق ليزل واليه خالد بن عبد الله القسري لأنه أظهر بعض التمرد حيث يقول متوعدا خالدا « أما والله إنني لأظن أن أول من يأتيك صقر من قريش يشد يدك إلى عنقك »^(١٨) . ولم يشأ يوسف أن تنفلت منه اليمن بخيراتا فيستخلف عليها أبنه الصلت^(١٩) وينطلق إلى العراق ليلبي رغبة سيده في العسف والطغيان ، وهذا ظلت بلاد اليمن ثقفية صرفا زمن هشام بن عبد الملك تتلظى بنار القسر والقهر مع هؤلاء الذين توارثوا الظلم صاغرا عن كابر . وتبقى مع الوليد بن

٧ (اليمني تاريخ اليمن - ٢١ .

٨ (الأعلام ١٤٧/٧ .

٩ (أبن الأثير - الكامل في التاريخ ١٦٦/٤ . ١٣ (الإعلام - ٢٤٣/٨ . ١٥ (ن . م - ٢٠٦/٣ .

١٠ (اليمني - تاريخ اليمن - ٢٢ . ١٤ (أبن خلدون - تاريخ ٢٠٥/٣ .

يزيد سنة أخرى ولاية ثقفية بأمره مروان بن محمد بن يوسف الثقفي، ثم تختتم الحلقات بالقاسم بن عمر الثقفي، الذي يقول طالب الحق في عهده «أنه رأى اليمن جورا ظاهرا وعسفا شديدا وسيرة في الناس قبيحة»^(١٦).

وفي هذا المعنى يقول أحمد جابر عفيف: «فقد تعددت الثورات في داخل البلاد في العهد الأموي والعباسي عندما كان يأتي الى اليمن ولاية قساة يظلمون أبناء البلاد ويسعون الى ابتزاز أموالهم»^(١٧).

وهكذا يتراءى لنا - مع مهدي طالب هشام - «بوضوح أن الحكم في اليمن وراثي تقريبا في بني ثقيف خلال نصف قرن تقريبا من تاريخ اليمن ومثل هذا العسف الذي يحرم أهل البلاد، من التصرف في بلادهم من شأنه أن يثير حفيظتهم من هؤلاء الولاة ومن الخلفاء الذين يهدفون بهم إليهم الواحد تلو الآخر، ليكونوا على استعداد ليثوروا مع أول داع للثورة»^(١٨).
وحق لطالب الحق أن ينشد عندما عزم على الخروج كما سنرى في الفصول اللاحقة:

كوى بالأسى قلبي وأبكى نواظري بكاء اليتامى وإبتسام الجبابرة^(١٩)
وكيف لا يبكي المظلومون وهم تبتز أموالهم صباح مساء ولا يبتسم الجبابرة وهم في القصور
يرفلون، وقد كان «سماط يوسف بن عمر كل يوم خمسمائة مائدة»^(٢٠).

وهذا ندرك أن الأوضاع الخاصة باليمن بلغت درجة قصوى من التدهور من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كافة ذاك أن الحكم فيها عوض أن يقوم على مبادئ الإخاء والتقوى قام على أساس التعصب القبلي المخالف لروح الشريعة الإسلامية.

كل هذا مع ما عرفته الدولة الاموية من تقلص في أطرافها جعل أهل الإستقامة يتحنبون الفرصة من اليمن بغية الوصول إلى دمشق عسى أن تتحقق على أيديهم الإمامة الراشدة التي ما زالوا ينشدونها منذ عزموا القعود سنة ٦٤/٦٨٤ في إجتماع البصرة.

(١٦) الأغاني - ٢٣ .

(١٧) أحمد جابر عفيف - الحركة الوطنية في بلاد اليمن ط١ دار الفكر دمشق ١٤٠٢/١٩٨٢ - ٤٠ .

(١٨) مهدي طالب هاشم - الحركة الإباضية في المشرق العربي - ط١ - دار الإتحاد العربي للطباعة - ١٩٨١/١٤٠١ م - ١٠٢ .

(١٩) ن. م. - ١٠٢ .

(٢٠) الأعلام - ٢٤٣/٨ .

- ١ (راجع تاج الدين اليماني - تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن - تحقيق مصطفى حجازي - دار الكلمة صنعاء ط ٢ ١٩٨٥ .
- ٢ (ن . م - ٢٠
- ٣ (الزركلي - الأعلام طبعة ٦ دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٤ - ٢٠٤/٨ .
- ٤ (ن . م - ٥١/٢١ .
- ٥ (اليماني - تاريخ اليمن - ٢٠ - ٢١
- ٦ (الأعلام - ٥١/٢ .
- ٧ (اليماني تاريخ اليمن - ٢١ .
- ٨ (الأعلام ١٤٧/٧ .
- ٩ (ابن الأثير - الكامل في التاريخ ١٦٦/٤ .
- ١٠ (اليماني - تاريخ اليمن - ٢٢ .
- ١١ (ابن الأثير - الكامل ١٦٦/٤ .
- ١٢ (ن . م - ١٦٦/٤ .
- ١٣ (الأعلام - ٢٤٣/٨ .
- ١٤ (ابن خلدون - تاريخ ٢٠٥/٣ .
- ١٥ (ن . م - ٢٠٦/٣ .
- ١٦ (الأغاني - ٢٣ .
- ١٧ (أحمد جابر عفيف - الحركة الوطنية في بلاد اليمن ط ١ دار الفكر دمشق ١٩٨٢/١٤٠٢ - ٤٠ .
- ١٨ (مهدي طالب هاشم - الحركة الإباضية في المشرق العربي - ط ١ - دار الإتحاد العربي للطباعة - ١٤٠١/١٩٨١ م - ١٠٢ .
- ١٩ (ن . م - ١٠٢ .
- ٢٠ (الأعلام - ٢٤٣/٨ .

الفصل الأول

أهم جابر بن زيد وحكمة التنظيم في مسلك الكتبان

عَنْ أَبِي جَابِرٍ إِذَا خَلَعْتُمْ عَنْ ذِكْرِ وَأَمْرِ وَسُلْطَانِكُمْ شَعْرًا وَبَقَالًا لَعَنُوا إِلَّا أَكْرَمَكُمْ
فِي ذَلِكَ أَكْرَمَكُمْ. (إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ) [١٩١ المبررات ١٢٢]

عَنْ أَبِي جَابِرٍ إِذَا خَلَعْتُمْ عَنْ ذِكْرِ وَأَمْرِ وَسُلْطَانِكُمْ شَعْرًا وَبَقَالًا لَعَنُوا إِلَّا أَكْرَمَكُمْ
فِي ذَلِكَ أَكْرَمَكُمْ. (إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ) [١٩١ المبررات ١٢٢]

الباب الثاني

إستعداد أهل الإستقامة بمركز الدعوة بالبصرة لإحياء الإمامة

عَنْ أَبِي جَابِرٍ إِذَا خَلَعْتُمْ عَنْ ذِكْرِ وَأَمْرِ وَسُلْطَانِكُمْ شَعْرًا وَبَقَالًا لَعَنُوا إِلَّا أَكْرَمَكُمْ
فِي ذَلِكَ أَكْرَمَكُمْ. (إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ) [١٩١ المبررات ١٢٢]

عَنْ أَبِي جَابِرٍ إِذَا خَلَعْتُمْ عَنْ ذِكْرِ وَأَمْرِ وَسُلْطَانِكُمْ شَعْرًا وَبَقَالًا لَعَنُوا إِلَّا أَكْرَمَكُمْ
فِي ذَلِكَ أَكْرَمَكُمْ. (إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ) [١٩١ المبررات ١٢٢]

عَنْ أَبِي جَابِرٍ إِذَا خَلَعْتُمْ عَنْ ذِكْرِ وَأَمْرِ وَسُلْطَانِكُمْ شَعْرًا وَبَقَالًا لَعَنُوا إِلَّا أَكْرَمَكُمْ
فِي ذَلِكَ أَكْرَمَكُمْ. (إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ) [١٩١ المبررات ١٢٢]

الفصل الأول

الإمام جابر بن زيد وحكمة التنظيم في مسلك الكتان

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾ [٤٩ الحجرات ١٣].

تلك هي رسالة الإسلام التي قام بها المصطفى الذي أرسله ربه رحمة للعالمين ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [٢١ الأنبياء ١٠٧] ولم يفتر عن الدعوة إلى الله تعالى مذ قال لزوجته خديجة: مضى عهد النوم يا خديجة عندما قال له ربه ﴿يا أيها المدثر قم فأُنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر﴾ [٧٤ المدثر ١-٧].

لقد ظل قائماً إلى آخر رزق في حياته يبشر وينذر ويحول العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن وحشة الفرقة إلى أنس الإخاء والمحبة والوثام، فتقاربت أطراف الجزيرة العربية وتعارفت قبائلها وشعوبها بعد أن كانت مضرب الأمثال في التنافر والتناحر، بل ضمت الدعوة في جنباتها الحبشي والرومي والفارسي، وأجلست في حلقة واحدة العبد وسيده، كل ذلك عسى أن يحصل على درجة الإتيقن ورجاء أن يكون عند الله أكرم. ولم يكن ذلك حكراً على العرب في جزيرتهم بل لم ينتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن وصلت رسائله مبشرة بنور الهدى أطراف العالم المعروف آنذاك تنعم بالمسلمون المخلصون بالطمأنينة فتألقوا وتآخوا وتحابوا، وأقاموا مجتمعاً إسلامياً سامياً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فكانوا كالبنیان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

بأرساء هذا المعاني والتمسك بها أندحر المرتدون وواصل الفاتحون التبشير بدين الله مخلصين له الدين همهم أن تكون كلمة الله هي العليا لا أن يغنموا ويكدسوا من متاع الدنيا الفاني. هكذا كان الأمر رحاً من الزمن، مسلك واحد وأمة واحدة.

ثم طراً ما طراً - وياليتي لم يطرأ - لكن لله في خلقه شؤون، فكانت واقعة الدار وقتل عثمان، وقام علي فكانت واقعة الجمل، ثم جاءت الطامة الكبرى في صفين، وأي طامة أكبر على

المسلمين من صفين هذه المعركة التي فرقت المسلمين بعد الوحدة، وأذكت فيهم نار العصبية من جديد بعد أن أدركوا أنها منتنة. وتعصف رياح الملك التي حبك أمرها داهيتان من دهاة العرب - وليتهما سخرًا دهاءهما في ما يجمع لا في ما يفرق - بالإمام علي وينزع من أمامته الشرعية نزع الخاتم من يد أبي موسى الأشعري، وليثبت مكانه فيها معاوية كما تثبت الخاتم في أصبع عمرو بن العاص.

يا لها من لعبة سخيفة ليس بعدها سخف أفنت الطريف والتالد، وصيرت المسلمين ثلاث كتل، إذا أراد علي أن يمضي في طريقه وأصر معاوية على عناده في المطالبة بدم عثمان، وقامت جماعة كان بها نصر علي وشيكا في قتال الفئة الباغية، وبايعت لها إمام هو عبد الله بن وهب الراسبي في النهروان، إذ عزل الإمام علي، ولا قيمة لمعاوية، ولا بد في الشرع من امام، وكان شعارهم لا حكم إلا لله، وهي ليست كلمة حق أريد بها باطل، وإنما هي كلمة حق أريد به حق، أثبت التاريخ نجاعتها إذ لو رفض علي الخدعتين خدعة رفع المصاحف وخدعة التحكيم وثبت أنها خدعتان من صنع عمرو بن العاص - لما كان ما كان، ولكن انى للوأن تنفع قد سبق السيف العدل، كما يقول المثل. وهكذا إنقسم المسلمون إلى ثلاث كتل وما يزالون.

وتضطرب الأمور أمام علي وقد عزله صاحبه عن الإمامة فيصب جام غضبه على أهل النهروان ويكاد أن يستأصلهم، فلا ينجو منهم إلا قليل من بينهم عروة بن أديه وأخوه أبو بلال علما الشراء والثورة على الباطل ويستقر الأمر لمعاوية بعد أن يقتل علي - والله أعلم كيف تم تدبير قتله إذ لم يصاب علي ولا يصاب عمرو ومعاوية والخطة واحدة^(١).
ويسلم الحسن لمعاوية كما ذكرنا في المحور السابق.

وما كان لعروة وأخيه مرداس ومن أنظم اليهما أن يسكتوا على جور الأمويين الذين تجسم في كل ربوع العالم الإسلامي وتطايرت رؤوس الأحرار المعبرين عن آرائهم بكل قوة وإخلاص صلبت أجسادهم على أبواب دمشق وغيرها. وقد تجلى هذا الظلم الزعاف أكثر ما تجلى في كعبة العراق آنذاك مدينة البصرة مركز من مراكز العلم ومنازة من منارات الحضارة.

١ - قتل الإمام علي بن أبي طالب قد تم بتدبير من الأشعث بن قيس ولا تنس العلاقة بين الأشعث ومعاوية بن أبي سفيان فقد بات عبد الرحمن بن ملجم ليلة مقتل الإمام علي مع الأشعث وكان حجر بن قيس وهو أخو الأشعث حاضرا فسمع أخاه الأشعث يقول لعبد الرحمن بن ملجم قم لقد فضحك الصبح، وعندما شاع خبر مقتل الإمام علي قال حجر لأخيه الأشعث أنت قتلت يا عدو الله، أنظر مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني ص ٣٣ والكامل للمبرد وفي قصيدة أبي الأسود الدؤلي في رثاء علي بن أبي طالب وإشارة واضحة إلى ذلك انظر تاريخ الطبري الجزء الخامس ص ١٥٠.

أتعرف مدينة البصرة إنها مدينة ساحلية تقع جنوب بلاد الرافدين على ضفاف شط العراق أقامها المسلمون بأمر من الخليفة عمر لتكون منطلقا لكل خير ومحطة تربط بين طرفين من أطراف العالم الإسلامي نعم إنها محطة للالتقى الحضارات الفارسية والهندية والصينية، ويكفي هذه المدينة فخرا أنها من الأمصار التي مصرها عمر وأنها آوت جمعا من أصحاب رسول الله ﷺ من بينهم حبر الأمة عبد الله بن عباس وأنس بن مالك خادم رسول الله وزيد بن ثابت كاتب الوحي، وغيرهم ممن كانوا يترددون عليها، وقد تخرج على أيديهم جيل من التابعين راسخ في العلم يأتي على رأسهم جابر بن زيد والحسن البصري وأبن سيرين. هؤلاء جميعا كانوا هناك لكن ما كان أبن زياد وأبنة عبيد الله أن يتورعا عما جبلا عليه من ظلم وقد لحق ظلمها بعضا من هؤلاء الذين شهد لهم الناس بالتقوى والصلاح. وما كان لعروة بن أديّة ليسكت على ظلم أبن زياد ونحن نعلم أنه أول من عمل سيفه على الأشعث بن قيس في صفين يوم جاء ينادي للتحكيم، وهو يقول ما هذه الدنية يا أشعث، وما هذا التحكيم، أشرط أوثق من شرط الله. ولما أحس زياد بخطر حركة الشراة ظل يتبعهم في كل مكان إلى أن أتى له بعروة مع مولاة، فدارت بينهما المحاوراة التالية :-

«سأل زياد عروة عن أحوال الخلفاء والولاة حتى سأله عن نفسه فقال: أولك لزنّى وآخرك لدعوى وأنت بعد عاص لربك» ورغم ذلك يبقى عليه زياد إلى أن يؤتى به لعبيد الله بن زياد فكان ما يلي: «ثم قال له أبن زياد: اختر لنفسك من القصاص ما شئت فأمر به فقطعوا يديه ورجليه ثم قال هل كيف ترى؟ قال: أفسدت علي دنياي وأفسدت عليك آخرتك. ثم أمر به فقتل ثم صلب على باب داره».

ثم دعا مولاه فقال له صف لي أموره فقال «أأظنب أم أختصر؟ فقال: أختصر، فقال: ما أتيت به بطعام نهارا قط، ولا فرشت له فراشا بليل قط»^(١). هذا هو عروة الشاري فارس بالنهار وراهب بالليل، لا يخاف في الله لومة لائم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بلسانه ويده ولم يختر أضعف الإيثار فمات شهيدا على المبدأ، وما كنت لأظنب بعض الشيء في سيرته لولا أنه مولى أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة الإمام الثاني لأهل الأستقامة كما سنعلم بعد حين، فمن علمه أقتبس ومن جرأته كرع^(٢).

ولا يمكن أن يذكر عروة دون أن يذكر مرداس فهما صنوان، «لكل منهما أيام الشراء وأيام

(١) أبو العباس أحمد الدرجيني (حوالي ١٢٧١/٦٧٠) طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق أبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة الجزائر د. ت ٢١٦/٢.

(٢) ن. م. ٢١٦/٢/٢ و ٢٢٤. (٣) الجاحظ - البيان والتبيين - بيروت ١٩٤٨ - ١٨٠/٢.

القعود، كل مواطن مرضى، وكل مقام محمود لأنهما عرفا بالتشمير والتصميم في الدين، والأنفة عن طريق المهادين»^(٤). فاستمع إلى أبي بلال لما أحس وأصحابه ألا قدرة على الظهور يقول لأصحابه «أنه والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين تجرى علينا أحكامهم مجانفين للعدل، مفارقين للفضل، والله إن الصبر على هذا لعظيم، ولكننا نشد عنهم، ولا نجرد سيفاً، ولا نقاتل إلا من قاتلنا»^(٥).

ذاك هو الشراء بعينه تعبير صريح عن إنكار المنكر عند العجز عن التصدي له وفي ذلك يقول أبو بلال:-

أبعد أبن وهب في الوفاء وفي التقى ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحب لقاء أو أرجى سلامة وقد قتلوا زيد بن حسن ومالكا
فيا رب سلم نيتي وبصيرتي وزدني التقى حتى ألقي أولائك

نعم إنه الإخلاص للدين والمبدأ مهما كان الثمن.

وفعلا يخرج شاريا على ألا رجوع إلى موطن المنكر ويدرك أبن زياد قيمة هذا الشراء فلا يمكن أن يسكت عليه، فيرمى هذه القلة التي بلغت الأربعين الناجية بدينها بجيش قوامه ألفان من الفرسان المدربين على شتى وجوه القتال بقيادة أسلم بن زرعة، «فلما صار اليهم (أبن زرعة) صاح به أبو بلال: أتق الله يا أسلم فانا لا نريد قتالا ولا نحتجز إلا فيثا، فما الذي تريد؟ قال: أريد أن أردكم لأبن زياد، قال مرداس إذن يقتلنا، وقال: وإن قتلكم. قال تشرك في دماننا قال: أذن الله بأنه محق وأنتم مبطلون، فصاح به حريث بن حجل هو ممن يطيع الفجرة، وهو أحدهم، يقتل بالظنة، ويحضر بالفيء، ويجور في الحكم ثم حملوا عليه حمله رجل واحد فانهمز هو وأصحابه بغير قتال وفي ذلك يقول عيسى بن فاتك التميمي:-

فلما أصبحوا صلوا وقاموا إلى الجود العتاق مسومينا
فلما أستجمعوا حملوا عليهم فظل ذوو الخصال يقاتلوننا
بقية يومهم حتى أتاهم بأن القوم ولوا هاربينا
أللقا مؤمن في مازعمتهم وهزمهم بأسك أربعونا
كذبتهم ليس ذاك كما زعمتهم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصروننا^(٦)

٤ (الدرجيني- طبقات ٢/٢١٥ . ٥ (ن . م- ٢/٢١٨ .

وهكذا لحقت المعرة هذا الجيش العاتي وصار قائده أحدثه لدى الناس وأضحكة لدى صبيان البصرة كلما مر بهم صاحوا به بلال وراك، لكن ابن زياد يعيد الكرة مرة أخرى فيرسل عباد بن علقمة المازني ولما أعجزت هذا القائد المغوار المواجهة لجأ إلى الخيانة وأنهال يقتل أبا بلال وأصحابه وهم بين راع وساجد بعد أن أتفقوا على الهدنة لأداء الصلاة. وما أعلاها شهادة أن يموت الإنسان وهو أقرب ما يكون إلى ربه. وأتى برأس أبي بلال وهذا شأن هؤلاء كما علمنا قام حكمهم على قنص الرؤوس. ولم يكن من الشرة بعد ذلك إلا أن أقتصوا من عباد فقتلوه بعد أن قاموا عليه الحجة بعد محاورة طويلة محورها حكم القاتل ظلما أنتهت بقولهم: «أيلحقه من الله إثم؟ قال: لا فحكم هو وأصحابه (أي الشرة) (أي قالوا لا حكم إلا لله) وخبطوه بأسيا فهم»^(٧).

وما كان للظالم ابن زياد أن يسلم فقد جاءه يومه وقتله في ما يروى أبراهيم بن الأشتر من قبل المختار من الشيعة وقد جاء الخبر عند ابن خلدون كما يلي «وقال بأن الاشتري إني قتلت رجلاً تحت راية منفردة شممت منه رائحة المسك، وضربت بسيفي فقصمته نصفين، فالتمسوه فإذا هو ابن زياد فأخذت رأسه وأحرقت جثته»^(٨).

ذاك هو جزاء أكلة الرؤوس وصلاب الجثث تجتث رؤوسهم على ما فيها من مسك وتحرق جيفهم وما هذا بفعل أهل الإستقامة كما سنرى. وقد أورد المبرد في كاملة أخبار أبي بلال مفصلة أكتفى منها بواحد لتدرك القواعد التي أرساها أئمة أهل الإستقامة الأول وأبو بلال وهو الإمام الثاني بعد عبد الله بن وهب الراسبي.

أعرف من يعود إلى السجن رغم علمه بقرار الحكم بالإعدام، وذاك حتى لا يلقي الله غادرا، إنه أبو بلال مرداس بن حدير أحد بني ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن نعيم. إنه العهد والوفاء بالوعد ما كان ليخفى على أبي بلال قوله تعالى ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [١٧ الإسراء ٣٤] وقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...﴾ الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴿٢٣ المؤمنون ٨﴾ وهو يرغب في الفلاح، ويعلم أن الله بين أن الذين يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً لا خلاق لهم في الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَإِيمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خلاق لَهُمْ فِي الآخرة وَلَا يَكلمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامة وَلَا يَرْكَبُهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [٣ آل عمران ٧٧].

(٧) ن . م - ٢٢٣/٢ .

(٨) ابن خلدون - تاريخ ٦٦/٣ .

نعم إنه إلترزم لدى السجن أن يرجع إلى السجن بعد أن يبيت في داره كل ليلة وفي إحدى الليالي وهو في عقر داره يناجي ربه فيفد عليه أصحابه وعلم علم اليقين أن عبيد الله مقر العزم على قتل كل من في السجن لأن أحد الشراة قتل رجلاً من الشرطة إنه سجين بالقول طليق بالفعل كل ليلة، وذلك لفضل تعلق السجن به وإعجابه بشدة إجهاده وحلاوة منطقة، وما ذلك إلا من فضل الله. وها هو الآن طليق يمكن أن يطلق ساقيه للريح حتى ينجو من إعدام ثابت لكن نفسه المؤمنة القانئة ما كانت تحدّثه بمثل ذلك، وفي هذا الظرف يضعف الأهل مهما كانت قوة الإيمان ويشير بعضهم عليه بالفرار - إنه إبتلاء في ساعة العسرة - فيجيب إجابة المؤمن البصير الذي يعلم علم اليقين أن الأجل بيد الله «ما كنت لألقى الله غادراً»، وأنى لنفس كنفس أبى بلال أن تغدر، وهكذا يسير نحو حتفه، لكن حتفه لا يسير اليه ويكتب ذلك في ميزان حسناته، ويقبل عند السحر على السجن فيزداد به إعجاباً - وما أخاله إلا شارباً - عندما علم أنه بلغه عزم عبيد الله بن زياد فقال: «أوعلمت ورجعت؟»^(٩). نعم إنه شار علم ورجع حتى يلقى الله وهو عنه راض، وما كان أبو بلال وهو رأس الدعوة وهي تعيش مسك الكتمان وتتهياً للظهور يوماً بعد يوم وتتحين له الفرصة أن يسكت عن إعداد من هو أهل للإضطلاع بالأمانة. وفعلاً قد وجد بغيته في العديد من أصحابه برز منهم على الواجهة العلمية الإمام جابر بن زيد وعلى الواجهة السياسية عبد الله بن أباض، فانظر إليهما - أبو بلال وجابر - وهما في جولة تصحيحية حول بعض الأحداث التي ذكرنا فهما يؤمان أم المؤمنين عائشة ويعاتبانها بما كان منها يوم الحمل فما كان منها إلا أن تتوب وتستغفر وما أيسر الإنابة والإقرار والإستغفار لدى الصالحين الأبرار، وما أعسرهما على الفساق الفجار.

إن في هذا دليلاً واضحاً على أنهما على درب واحد يتمثل في تقويم الأحداث والأعداد للمستقبل. وها هما يولع أحدهما بالآخر في طريق أهل الإستقامة إلى حد أن أبا بلال يصرح بأنه لا يقدر على مفارقة جابر ذلك أنها يقضيان كامل الوقت مفكرين في أحوال المسلمين محاولين عرض خطة للخلاص ولا يفترقان إلا من بعد صلاة العشاء إلى وقت السحر.

وكان أبو بلال لا يفارق جابراً إلا من بعد ما يلي العتمة إلى آخر الليل مع بعد ما بين منزليهما فيقول له «أرق بنفسك». فيجيب بأنه لا يقدر على مفارقتها^(١٠)، نعم إنه لا يقدر على مفارقتها لأنه يرى فيه أمل أهل الإستقامة لما توفر لديه من علم ورجاحة عقل، وقد علمت

٩ (الدرجيني - طبقات - ٢/٢١٧).

١٠ (أبو العباس أحمد الشماخي (١٥٢١/٩٢٨) - سمر المشائخ ط. حجرية القاهرة ١٣٠١ - ٦٧).

من قبل إنه من أبرز فقهاء البصرة في رعيها الأول من التابعين الذين أخذوا العلم من منابه، من أقرب خلق الله إلى رسوله.

وفعلا يستشهد أبو بلال سنة ٦١/٦٨٠ ليصدق حدسه في جابر الذي تمكن في نيف وثلاثين سنة بعد أبي بلال من إرساء قواعد مدرسة إيبانية علمية سياسية كان لها من الشأن ما كان وما يزال. لكن قبل أن نقف عند بعض ملامح هذا العبقرى الفذ يحسن أن نعرض على صنوة عبد الله بن أباض الذي علمت من قبل أنه راسل عبد الملك بن مروان، وأبان له بصراحة ووضح ما يحيط بالدولة الأموية من عسف وطغيان عبر المكان والزمان.

وفيه يقول الدرجيني «كان عبد الله بن أباض إمام أهل الطريق، وجامع الكلمة لما وقع التفريق، فهو العمدة في الاعتقادات، والمبين لطرق الاستدلالات والإعتادات، والمؤسس لأبنية هي مستندات الأسلاف، والمهدم لما أعتمد أهل الخلاف، وكان رأس العقد، ورئيس من بالبصرة وغيرها من الأمصار، والمتقدم في حلبة الفضل بين أولئك الأخيار، قعد عن اللحاق فاشتره من غير إنكار، وقنع بالخمول من غير قصور ولا إقصار، وقلى ما أعتقده أبن الأزرق في المحمدية، وعدل عن طريقي البهيسية والنجدية، وسلك محجة العدل، وكان قدوة لأهل الفصل، فإليه اليوم النسبة في العقائد»^(١١).

ولم يكن الدرجيني ليطلق الكلام جزافا فقد أستطاع كما سترى يضع في هذه السطور جميع ملامح شخصية الإمام عبد الله بن أباض. فهو بدون منازع رأس العقد وإمام أهل الطريق ذلك أنه كان الناطق الرسمي بأسم جماعة أهل الإستقامة وقد كان أحد رؤوس المحكمة البارزين لكن نعلم من جهة أخرى أنه كانه «يصدر في أمره عن الإمام جابر»^(١٢). ولذلك ما أن رجع مع المحكمة من مناصرة عبد الله بن الزبير عندما علموا رأيه في عثمان وقرر أبن الأزرق وبقية رؤوس المحكمة الخروج المسلح على الدولة صرح عبد الله بن أباض بالقعود وإلى ذلك يشير الدرجيني بقوله «قعد عن اللحاق وقنع بالخمول». نعم قعود هادف يرمى إلى الاستعداد لا إلى الإستسلام وهذا أبن أباض يعلل هذا القعود «وذلك أن المسلمين بعد قتل أبى بلال إجتمعوا بجامع البصرة وعزموا على الخروج وفيهم عبد الله بن أباض ونافع بن الأزرق ووجوه المسلمين فلما جن الليل سمع عبد الله دوي القراء وترنين المؤذنين وحنين المسبحين، فقال لأصحابه أعن هؤلاء أخرج معهم فرجع وكنتم أمره»^(١٣).

(١١) الدرجيني - الطبقات ٢/٢١٤ . (١٢) الشماخي - سير ٧٧ .

(١٣) ابو القاسم البرادي (ق ٩ هـ / ١٥ م) الجواهر المنتقاء في اتمام ما اخل به كتاب الطبقات (الدرجيني) ط . حجرية القاهرة ١٣٠٢ / ١٨٨٥ - ١٥٥ .

ولا نشك في أن موقف ابن أباض هذا لم يكن ناتجاً لا عن جزع ولا عن تسرع، وإنما هو التخطيط المسبق مع جابر بن زيد. وقد زاد موقفه من ابن الأزرقي توضيحاً لا يدعو إلى أدنى شك في رسالته لعبد الملك بن مروان حيث يقول: «إنا براء إلى الله من ابن الأزرقي وصنيعه وأتباعه لقد كان حين خرج على الإسلام في ما ظهر لنا، ولكنه أحدث وأرتد وكفر بعد إسلامه فنبأ إلى الله منهم»^(١٤). ومن هذا التاريخ - أي تاريخ إجتماع جامع البصرة ٦٤/٦٨٤ - تم الانفصال بصفة نهائية عن المحكمة، وتسمى عبد الله بن أباض وجابر بن زيد مع جماعتهما بجماعة المؤمنين أو أهل الدعوة، أو أهل الإستقامة، ولم ينسبوا إلى عبد الله بن أباض إلا بعد ربح من الزمن فقبلوا هذه النسبة كما يشير إلى ذلك الدرجيني لأن ابن أباض أحد فضلائهم. وتتجلى عبقرية عبد الله بن أباض في رسالته لعبد الملك بن مروان هذه الرسالة التي سكتت عنها جميع كتب التاريخ رغم أننا نشك في توفرها في خزائن الأمويين لكن لما فيها من جرأة على الحكام الظالمين عامة والأمويين خاصة وقع إهمالها.

كلا إن التراث الأباضي حافظ على هذه الرسالة وتتمثل عناصرها في:

- عرض موقف الأباضية من عثمان ومن الأمويين لعبد الملك بن مروان.
- والرد على اتهام جماعة ابن أباض بالغلو في الدين.
- وتعريف الذين خرجوا على الباطل.
- والبراءة من الأزارقة.
- والنصيحة والتمييز بين إمامة الهدى وإمامة الجور.

أما عن موقف ابن أباض من معاوية ودولته فقد عرضنا شيئاً منه من قبل، فدل على أن الرجل عايش الأحداث عن كثب ويميز بين غشها وسمينها، وفند حجة عبد الملك في قوله بأن الله قام مع معاوية وعجل نصره وبلغ حجته وأظهره على عدوه، وبين له أن هذا النصر ليس بدليل على تأييد الله ورضاه إذ لا يعتبر الدين من قبل الغلبة في الدنيا وما إظهار طرف على آخر من باب الابتلاء للصالح والإملاء للكافر، ويختتم هذا الإحتجاج بما ييكت عبد الملك وغيره: «فلا تعتبر الدين من قبل الدولة فقد يظهر الناس بعضهم على بعض، فقد أعطى الله فرعون ملكاً وظهر في الأرض وأعطى الذي حاج إبراهيم في ربه ملكاً»^(١٥).

وفي هذا تعريض واضح بأن ملك معاوية فرعوني نمرودي بعيد كل البعد عن معاني الإمامة التي يدعو إليها ابن أباض. كما بين «أن معاوية إنما أشتري الأمانة من الحسن

(١٤) ن. م - ١٦٥.

(١٥) البرادي - الجواهر - ١٦٣.

بن علي ولم يف له بما أشرطه عليه، وعاهد الله العظيم ليوفين له وقد قال الله تعالى ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا، إن الله يعلم ما تفعلون﴾ [١٦ النحل ١٩]. وليس بالغريب أن ينقض الإيمان من ملكه فرعوني هرقلي، وأكثر من هذا فإن ابن أباض يحتج على عبد الملك في شأن معاوية من داخل آل مروان الذين حولوا (الخليفة) مروانية بعد أن حرص معاوية على أن تكون أموية من صلب معاوية لكن حفيده معاوية كان آية في التقوى وتركها للمروانيين يفعلون بها ما يشاؤون فيقول «فاتق الله يا عبد الملك ولا تخادع نفسك في معاوية فقد أدركنا أهل بيتكم يطعنون في معاوية ويزيد ويعيبون عليهما كثيرا في ما يصنعون»^(١٧). أما المغالي في الدين حسب ابن أباض فهو الذي يعمل بغير كتاب الله الذي بين سنة نبيه التي سن، إلا الذي غضب الله حين عصى، ورضي بحكم الله ودعا إلى كتاب الله وإلى سنة نبيه وسنة المؤمنين بعده.

فالمغالون في الدين حينئذ عبد الملك وجماعته لا عبد الله بن أباض وجماعته، وبهذا رد الإمام هذه التهمة التي لا تزال تلاحق الأباضية إلى يومنا هذا إذ كثيرا ما يخلط الناس بين التمسك والتشدد فإن كان التمسك مدحه يرفع من درجة المؤمن فإن التشدد - وهو تجاوز الحدود الله مذمة يحط من درجة من يرى فيه خيرا ومن غالب دين الله غلبه.

وتميز الرسالة بعد ذلك بين نوعين من الخروج، أما الخروج الأول فهو عين الثورة على الباطل فيتبناه الإمام ويترضى عن أصحابه، ولكن النوع الثاني من الخروج فهو خروج عن الدين كخروج ابن الأزرق وأصحابه في إستعراضهم للمحسن وللمسيء فإن ابن أباض يتبرأ منه ومن أصحابه كما ذكرنا قبل حين. ويأتي القسم الأخير من الرسالة مفعما بالنصائح القائمة على كتاب الله وعلى سنة رسوله، ومن خلاله تتضح المقابلة بين إمامة الضلالة وإمامة الهدى وفي هذا تعريض وتوجيه لعبد الملك وعرض ضمني لمنهج الأباضية في الحكم.

«فإن الناس إنما يتبعون في الدنيا والآخرة إمامين، إمام هدى وإمام ضلالة: فإمام الهدى الذي يتبع كتاب الله ويقسم بقسمة الله ويحكم بحكم الله، وهو الذي قال الله عز وجل فيه ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ [٢١ الأنبياء ٧٣] وهؤلاء هم الأئمة الذين أمر الله بطاعتهم ونهى عن معصيتهم. وأما أئمة الضلالة فهم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ويقسمون بغير قسمة الله، ويتبعون أهواءهم بغير سنة من الله فهؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾ [٢٨ القصص ٤١] وفيهم قال: ﴿ولا تطع الكافرين وجاهدكم به جهادا كبيرا﴾ [٣٣ الأحزاب ١] وقال تعالى ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وآتبع هواه﴾ [٢٨ الكهف ٢٨]^(١٨)

ولا يكتفي عبد الله بن أباض في هذه الرسالة بالألا يعترف لعبد الملك لا بأمره المؤمنين ولا بالخلافة، إذ مخاطبه في عدة مواضع بإسمه المجرد بل يتهمة بالمعصية والضلالة ما دام مقتدياً بأسلافه أئمة الضلالة «وأنت بعد على سبيلهم وطاعتهم تجامعهم على معصية الله» وقد وقف مهدي طالب هاشم في تنفيذ آراء من قالوا بأن العلاقة ودية بين عبد الملك وعبد الله بن أباض حيث يقول: وهذا الاتهام (إتهام عبد الملك بالغلو في الدين) لا يمكن بأي حال أن يفهم منه العلاقة الودية بين عبد الملك وعبد الله بن أباض، ولكن هذا الخط المعتدل، ومنهم عبد الله بن أباض عرفوا باللقاء الحجة على المخالف حتى في القتال، وكما هو واضح من الرسالة أن عبد الله بن أباض أراد أن يعرض مبادئ فرقته على عبد الملك بن مروان... (١٨).

وغاية ابن أباض من هذا العرض أن يميز عبد الملك بين مسلك الكتان لدى القعدة ومسلك الغلو لدى الأزارقة.

وفعلا قد أفاد الطرفان من هذه الهدنة ذلك أن الخلافة الأموية كان يكفيها ما حصل لها من بلاء من ثورات الأزارقة وغيرهم. كما أن الأباضية لم يداهنوا في المبدأ فجاء موقفهم صريحاً من الحاكم لكنهم إختاروا عن بينة مسلك القعود لتنظيم صفوفهم، وإسترداد أنفاسهم للتعبئة للمستقبل لأن عمر الدول قصير وإن طال ولا بد للظلم أن ينجلي مهما طال أمده.

تلك هي رسالة عبد الله بن أباض صراحة جارحة في غير تهور، وحجة شرعية لا يمكن أن ترد، وبيان سياسي واضح المعالم، وموعظة إيمانية صادقة، عسى أن يثوب عبد الملك إلى رشده إذ يدعوه في آخرها إلى إمعان النظر فيها وقت الفسحة «فأنشذك الله لما قرأته» (الكتاب) وأنت مشغول حتى تتفرغ له وتدبر معانيه وتنظر فيه بعين البصيرة» (١٩) وعند هذا الحد يطوي التاريخ أخبار عبد الله بن أباض فلم نجد له ذكراً بعد خلافة عبد الملك وذلك شأن كل الأنشطة السرية لا تأتي أخبارها متتابعة متكاملة ولا يستطيع الباحث تتبع خيوطها إلا بعناء.

لقد سبق أن عرفنا الصلة الوثيقة بين أبي بلال مرداس وجابر بن زيد ذلك أنهم لا يفترقان إلا من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر رغم بعد المسافة مسكنيهما.

كما أنها كانا على درب واحد في فهمهما للأحداث التي فعلت فعلها في المجتمع الإسلامي، وقد علمنا موقفهما من السيدة عائشة أم المؤمنين حول معركة الجمل، ونعلم من خبر آخر أن جابر بن زيد لم تشغله السياسة عن العلم والتعلم، ولا قيمة للأنشغال بالسياسة في المحيط الإسلامي لمن لم يتبحر في جميع العلوم الإسلامية لأن السياسة جزء من الدين ومن يأتيها عن جهل بأمور الدين يهلك نفسه ويدمر من حوله من المسلمين. وهذا الخبر يمثل في أن جابر بن زيد لم يكن ليكتفي بما يكتفي به طلاب العلم العاديين، وإنما كانت له رغبة

في التعريف حتى على أدق أمور الشريعة مما قد يستحي الإنسان عن السؤال عنه، ونحن نعلم ألا حياة في الدين، ومن ذلك أنه كان يسأل السيدة عائشة أم المؤمنين عن حياتها الداخلية مع الرسول عليه السلام وجبينها يتصبب عرقا وهي تقول سل يا بني^(٢١) وأمله في ذلك التعرف على جميع دقائق سنة الرسول عليه السلام ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ [الأحزاب ٢١] وما أحوج الشباب المسلم إلى التعرف على آداب الزواج والمعاشرة من كتاب الله ومن سنة الرسول عليه السلام ومما جاء في الموضوع من تفاصيل في كتب الفقه عوض أن يتعلموها مما ينشر من نشرات خليعة بشتى الألوان والأشكال، ومما يعرض صباح مساء على الشاشات الصغيرة بأنواعها والكبيرة وهم يسمون ذلك تربية عمرانية أحيانا وتربية جنسية أحيانا أخرى، ويذهبون في ذلك مذاهب يندى لها الجبين.

ولا أريد أن أطيل الحديث عن حياة الإمام جابر المتعلم والعالم المعلم فذلك ما كان محور الحديث الندوة السابقة^(٢٢) وإنما أحببنا أن نلقي بعض الأضواء على الجانب السياسي في حياة الإمام لنعرف جذور المدرسة التي خرجت المجاهد أبا حمزة الشاري. فنحن نعلم أن أبا الشعثاء جابر بن زيد اليمامي الأزدي الجوفي البصري العماني ولد بفرق وهي قرية تقع قرب مدينة نزوى بأرض عمان، وأنه قضى أغلب حياته في مدينة البصرة وكان لا يتخلف عن موسم الحج حيث أخذ عن عدد كبير من أصحاب الرسول ﷺ إذ أدرك سبعين بدريا ويقول أنه حوى ما عند هؤلاء الأصحاب سوى عبد الله بن عباس حبر هذه الأمة. كما أنه لم يحتكر هذا العلم لنفسه بل أخذ عنه جمع غفير من التابعين وتابعي التابعين وقد ذكرنا من قبل أنه كان قطبا من أقطاب مدينة البصرة إلى جنب الحسن البصري. . . نكتفي بهذا القدر من حياة الإمام جابر العلمية وإن أردت التبحر في ذلك فعليك بكتاب الأستاذ يحيى بكوش: فقه الإمام جابر فستجد فيه ما يشبع نهمك عن سعة أفق الإمام في جميع فنون العلوم الإسلامية وما ذلك منه بغريب وهو عالم العرب وأعلم أهل الأرض^(٢٣). . . بشهادة الصحابي أنس بن مالك، وهو الذي «لوسأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه» بشهادة شيخه عبد الله بن عباس^(٢٤).

وأني لمن عرف أسرار الشريعة أن يكون في معزل عن معترك الحياة السياسية، نعم إنه خاض غمار هذا المعترك لكن بكل ذكاء وحكمة لأنه لم يناسب وراء زخارف الدولة الأموية، ولم يكثرث بما فيها من بهرج، بل ناله من شرارها النفي رغم دقة التكتّم ونال أقرب الناس إليه السجن والتعذيب.

(٢٠) الشياخي - سير - ٧٣.

(٢١) انعقدت الندوة الأولى من ندوات من أعلامنا بعان في ديسمبر ١٩٨٨م وكان محورها الأمام جابر بن زيد وقد كتب الكتاب للندوة الدكتور أحمد درويش.

(٢٢) الشياخي - سير - ٧٠. (٢٣)

إن ما ذكرنا قبل حين عن علاقة جابر بأبي بلال يدفعنا إلى اليقين بأنه في صلب حركة المحكمة بل هو من محركيها الأساسيين وما يدعم ذلك ما نقله الرقيشي « فقد بلغنا أن أبا بلال مرداس بن حدير. . . وغيره من أئمة المسلمين لم يكونوا يخرجون إلا بأمر أمامهم في دينهم جابر بن زيد العماني رحمه الله، ومشورته ويحبون ستره عن الحرب لثلاث موت دعوتهم»^(٢٤) وهذا يبيت من المؤكد أن جابر بن زيد كان على بينة مما أبطل به أصحابه على يدي زياد بن أبيه وأبنيه عبيد الله ومن ذلك سياسة الثاني الانتقامية التي أدت الى قتل عروة بن أدية كما ذكرنا فتتجت عن ذلك حركة الشراء التي أنطلقت مع أخيه أبي بلال ولا شك أن هذه الحركة تمت بمشورته كما يؤكد ذلك النص المذكور آنفا. بعد هذه التجربة التي ذهبت بأبي بلال وبأربعين من الشارة من خيرة أهل الإستقامة مع ما تمر به البلاد من صد لحركة الإزاقة وغيرها، ومع إخفاق المحاولة مع عبد الله بن الزبير، أختارت الجماعة وعلى رأسها الإمام جابر الانفصال عن حركة الأزاقة في أجمع صومعة البصرة كما ذكرنا في سيرة الإمام عبد الله بن أباض ولم يكون هذا الموقف إلا بعد إقامة الحجة عليهم ومناظرتهم.

ويروي ضمام بن السائب أحد تلاميذ الإمام جابر بن زيد فيقول «كان جابر بن زيد يأتي الخوارج فيقول لهم: أليس قد حرم الله دماء المسلمين بدين، فيقولون نعم، حرم الله دماء المسلمين بدين، فيقول: أليس قد أحل الله دماء أهل الحرب بدين بعد تحريمها بدين؟ فيقولون: بلى، فيقول: وحرم الله ولا يتهم بدين، فيقولون نعم، فيقول هل أحل الله بعد هذا بدين؟ فيسكتون»^(٢٥)

وهكذا يتضح أن عبد الله بن أباض وجابر بن زيد ليسا من الخوارج الذين يستحلون، دماء المسلمين في شيء وإنما هما على رأس حركة سرية ترى أن الوقت لم يحن للمواجهة وتسلك مسلك الكتمان وتصبر على الأذى. كما أن الجماعة أمام هذا الحرص الأموي لقمع كل الحركات المعارضة ثبت لديها ألا سبيل إلى الظهور ولا إلى الشراء فلم يبق إلا مسلك الكتمان الذي يعد بحكمة إلى الظهور. ورغم هذا التستر التام الذي دفعهم إلى شتى وجوه الإحتيال لحضور المجالس السرية للحركة فإن بعضا من رؤوس الجماعة لم يسلموا من التنكيل والتعذيب والسجون. ومن هذه الأساليب المواكبة لمسلك الكتمان عمد أفراد الجماعة إلى التنكر عند إرتياد مواطن اللقاء، «فكانوا يأتون المجالس أيام زياد وأبنيه في هيئة النساء في

٢٤) الرقيشي (ق - ١٠هـ / ١٦) - مصباح انظام - ورقة ٢٠ ب نقلا عن مهدي طالب هاشم - الحجة الأباضية في الشرق - ٥٤ .

٢٥) الشماخي - سير ٧٦ .

النقاب وغير ذلك يتشبهون بالنساء . . وكان أحدهم ليحمل على ظهره جرة بهاء ويحمل حملة متاع كأنه يباع حتى يدخل المجلس»^(٢٦) .

ولكن ما كانت أعين الشرطة لتنام - وهي كما يقال عيون لا تنام - ولكن يجعل الله من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا إذا كانوا يناصرون الباطل على الحق - وقد ظلت تتبع كل شاردة وواردة خاصة في مدينة البصرة لكنها لم تظفر لهؤلاء ولو على مجلس وإنما كادت في مرة من المرات لكن لم حيل دونهم قبيل الجواب على ما فيه لأنهم أيقنوا ألا سبيل إلى الإفثكاك أمر من عجوز، وهاك الخبر:

«قال أبو سفيان محبوب بن الرحيل: وما بلغنا أنهم ظفر بهم في مجلس قط إلا أنهم كانوا ذات مرة في عهد زياد وأبنته أتاها الخبر بأن الخيل تريدهم فخرجوا مسرعين وتركوا نعالهم على باب البيت الذي كانوا فيه (وهذا سهو حركي ما كان يجب أن يقع) فجاء الشرط فنظروا إلى النعال، فقالوا للعجوز صاحبة البيت ما هذه النعال؛ فقالت: مكاتب لنا يسأل الناس فيعطى النعال وغيرها، فقالوا: بالله ما ذلك ما ذكرته، فإن هذا موضع ريبة، قال فقال بعضهم قد ذكرت العجوز ما ذكرت فلا تعرضوها للبلاء فلعلها أن تكون صادقة»^(٢٧) .

ورغم ذلك الاحتياط وتدبير حراسة مواطن الحركة السرية لم تكن الجماعة ليسلم بعضها من الوقوع . فهذا أبو بلال المرداس بن حدير يقع بين يدي ابن زياد ولسنا ندري كيف وقع، وإنما هو الإمام يذكر ذلك لأبن عباس في محاورة لهما في مكة المكرمة» وكانا (جابر وأبو بلال) يحجان معا فيلقيان ابن عباس رضي الله عنه فلاقاه جابر مرة ولم يكن معه أبو بلال فقال ابن عباس: أين صاحبك؟ قال: أخذه ابن زياد. قال: ابن عباس لجابر: وأنه لمتهم، قال: نعم فأضاف ابن عباس: اللهم بلى، وخاطب جابرا قال: أوأنت متهم؟ قال جابر: اللهم بلى»^(٢٨) .

وهذا أبو سفيان قنبر يؤخذ بالظنة ويجلد جلدا مبرحا عسى أن ينبس بينت شفة إلى أن يتزعزع كيان جابر أو يكاد ولكن أنى لزبانية الأمويين مهما تعسفوا أن يختلسوا. خبرا ممن رسخ إيمانهم كرسوخ الجبال وأكثر، جاء في سير الشماخي: «وكان (أبو سفيان قنبر) شيخا كبيرا أخذ وجلد أربعمائة سوط على أن يدل على أحد المسلمين فلم يفعل قال جابر: وكنت قريبا منه وما كنت أنتظر إلا أن يقول هذا هو فعصمه الله»^(٢٩) . فعلا عصم الله العجوز وعصم أبا بلال وأبا سفيان فحفظ الله جابرا ودل ذلك على إخلاص الجماعة لله تعالى، ولمبدئها،

(٢٨) ن . م . ٩٦ .

(٢٦) ن . م . ١٠٨ .

(٢٩) ن . م . ٩٣ .

(٢٧) ن . م . ١٠٨ .

ولبعضهما البعض ، وتلك هي علامة القدرة على إحكام كل تنظيم وخاصة السري منه . لكن هذه الجماعة وإن كانت تصبر على الأذى من الأمويين فإنها لا تقبل أن تدب الخيانة في داخلها فتفتضح أسرارها وتؤاد حركتها قبل أن تبرز للعيان لتؤتي أكلها .

ولذلك وقف الأمام موقفا صارما ممن ثبت لديه أنه سعى بجماعة من المسلمين فقتلوا كما يروى أبو سفيان «أتى شاب أبا الشعثاء فقال: أي الجهاد أفضل؟ قال: قتل خردلة»^(٣٠) . مع العلم أن الفكر الأباضي يتحرى في قضايا الدماء حتى زمن الحرب كما سنرى في معارك أبي حمزة وأنما اغتيل خردلة قصاصا ممن قتلوا بسبب سعيه وشايبته ، كل هذه الاحداث الحازمة المحكمة تدل دلالة واضحة على مكانة جابر بن زيد من هذا التنظيم السري وخاصة منها الحدث الأخير يثبت إنه كان مرجع الفتوى والقيادة إذ يصدر حكما بالأعدام عليه وقصاصاً على من يفشي أسرار الجماعة وبشكل خطرا على الدعوة في نشأتها وفي هذا عبرة لمن يعتبر فليخرج من أراد أن يخرج لكن على شرط ألا يفشي سرا .

وينتهي أمر ابن زياد كما رأينا بأن يقد نصفين ويتربع على عرش العراق الحجاج بن يوسف الثقفي نمرودا جبارا .

لكن الجماعة أحكمت أمرها أي ما أحكم ووصلت من حيث الدقة أنها استطاعت أن يكون أحد أنصارها الكاتب الخاص للحجاج وهو يزيد بن أبي مسلم وهذه قصة جابر بن زيد مع الحجاج : «وفد جابر بن زيد في ما كان يفد فيه إلى يزيد ابن أبي مسلم كاتب الحجاج ، وكان به خاصا ، قال فأدخله على الحجاج فكان في ما كان يسئله أنه قال له : أتقرأ؟ قال : نعم ، قال : أتفرض؟ قال نعم ، فعجب الحجاج ثم قال : ما ينبغي لنا أن نؤثر بك أحدا بل نجعلك قاضيا بين المسلمين . قال : جابر إني أضعف من ذلك ، قال وما مبلغ ضعفك؟ قال يقع بين المرأة وخادمها شر فلا أحسن أن أصلح بينهما ، قال : إن هذا هو الضعف ، ثم قال : فهل لك حاجة؟ قال : نعم ، وما هي؟ قال : تعطيني عطائي ، وترفع عني المكروه ، فقال الحجاج : هذا أمر لا يستقيم أن نعطيك من بيت مال المسلمين ولا نستعملك لهم ، فقال له : يزيد بن أبي مسلم : أصلحك الله إن ها هنا خصلة تحف على الشيخ وفيها عون للمسلمين ، قال وما هي؟ قال : تجعله في أعوان صاحب ديوان البصرة ، قال : وذلك .

قال فلما خرج من عنده قال له جابر : ما صنعت شيئا أتراني أن أكون عوناً لصاحب الديوان قال يزيد : أكتب إلى صاحب الديوان ألا يكلفك مؤونة ويعطيك عطاءك كاملا ، قيل وكان عطاؤه سبعمائة أو ستمائة درهم ، قيل وكان في ديوان المعاملة»^(٣١) . إن من لا يعرف

(٣٠) ن . م - ٧٥ - ٧٦ .

إنتهاء يزيد ابن أبي مسلم إلى الحرمة يعجب من هذه المعاملة المرنة لدى الحجاج الذي عرف بضرب الرؤوس، ولا شك أن هذا الكاتب ما زال يهون من أمر جابر لدى الحجاج حتى أطمأن إلى ذلك.

وهذا أستطاع الإمام أن يستعفى من مهمة القضاء في الوقت الذي كان يتهاافت الناس لبلوغها لما تدر على أصحابها من مال ولما تجعل لهم من وجاهة، ولكن الذي يعلم أن قاضيين في النار وقاضيا في الجنة، القتل أهون عليه من أن يتولى القضاء وخاصة للحجاج. ويتجلى النضج الفكري في التمييز بين ظلم الأمويين وقبلو العطاء لأن الإمام يعلم أن من موارد خزينة الدولة ما هو حق لجميع المسلمين فهو حق مشترك حتى وأن مر بيد الظلمة وكذلك فعل أبو بلال عندما أعترض الركب الذي حل الجباية فأخذ عطاءه وعطاء الشراة معه وأطلقوا البقية على مسؤولية غيرهم، «فمر به (بأبي بلال) مال يحمل إلى ابن زياد، وقد قارب أصحابه أربعين فحط ذلك المال، فأخذ منه عطاءه ورد الباقي على الرسل»^(٣٢).

والأساس أن أخذ هذا العطاء لا يزحزح مثل هؤلاء عن مواقفهم وإنما هو مورد حلال يمكن من التفرغ إلى الدعوة إلى الله، وإلى رعاية الأنصار أثناء الليل وأطراف النهار، لكن رغم كل هذا الحذر لم تسلم جماعة جابر في النهاية من سجون الحجاج وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وأبو سلمة (وقد بقي هؤلاء في السجن إلى أن أختل عقل الحجاج ومات ففروا)، كما نفي جابر بن زيد وهيرة إلى عمان وكان في نفيهما خير كثير على عمان إذ وجد الإمام أكبر حرية لتركيز الدعوة حيث ستقوم الإمامات الأباضية واحدة بعد الأخرى، وحيث ما تزال هذه الربوع العمانية تتفياً ظلال هذه النبتة الطاهرة الزكية وتنعم بثمارها التي لا تنضب رغم عوادي الزمن. ومن تمام التنظيم السري إرسال الدعاة بعيدا عن مركز الدعوة بحثا عن المكان المناسب في أطراف الدولة مما تصعب السيطرة عليه بسهولة عند الرغبة في الظهور. . وقد عثر أخيرا على مجموعة من رسائل الإمام إلى عديد الدعاة تقوم على العناصر التالية :-

- ١ - خطبة الرسالة .
- ٢ - سؤال عن الأحوال والإعلام بوصول الرسالة .
- ٣ - خاتمة : تحية مختصرة معبرة .
- ٤ - فتاوي : أجوبة على أسئلة موجهة من الداعية .

ولا مجال للدخول في التفاصيل هنا لأننا عازمون على نشر هذه الرسائل إن شاء الله تعالى . وإنما نبين أن خطب هذه الرسائل تحمل شحنة إيمانية صادقة تدفع هؤلاء الأتباع إلى الثبات

(٣١) الدرجيني - الطبقات ٢/ ٢١١ - ص ٢١٢ . (٣٢) ن . م - ٢/ ٢١٨ .

على المنهج السليم الذي رباهم عليه الإمام والإخلاص لله تعالى : «وكن إنما تعمل لله فأنتك مهما تعمل لله من خير فلن يدفعه عنك ، وما يعمل لغيره فالث لله عنه غني»^(٣٣) . بينما الأساس في عنصري السؤال عن الأحوال والحوادث إذ يعبر فيهما الإمام عن حقائق حركية مهمة فيصفح عما ينتاب الحركة من شدة ورخاء ويستفسر من أحوال الدعاة ومن معهم بكل إلحاح . «أكتب إلي بما حدث من أمر قبلكم»^(٣٤) . . . «أكتب إلي بما كانت لك من حاجة»^(٣٥) .

وإن كانت سمات القيادة تتجلى في ما ذكرنا فإنها تبرز جليلة أكثر في الدعوة إلى الكتمان المطلق . «أكتب إلي بما كانت من حاجة في سر وثقة فإنك قد علمت الذي نحن فيه وما نتخوف من الذي يطلب العلل علينا . . . »^(٣٦) «وأعلم أنه لا يعجبني أن تترك لي عندك كتابا الا محوته»^(٣٧) «ولا ترو عني شيئا مما أكتب به إليك»^(٣٨) ومعلوم أن الثبات على مثل هذا المنهج هو سر النجاح .

أما الفتاوي فهي ثروة فقهية تدل على منهج الإمام القرآني السني الثري وعلى مدى ثقة الدعاة في إمامهم إذ يعتبرونه المرجع في حل كل المشاكل . وهذا يثبت لدينا ما تمر به الحركة من مرحلة حرجة في عقودها الأولى وهما أن يصلب عودها قبل أن يكشف أمرها .

هذا هو الإمام جابر أصالة إسلامية نادرة وعلم غزير، وحكمة في حسن التدبير، ولم يتوفى إلا بعد أن أرسى قواعد مدرسة رصينة هادئة تكرر من منبعي الشريعة دون أن تعرض عن وجوه الإجتهد، علمت بمسلك الكتمان حتى تصارع عوادي الزمان فتجلى أنها بهذه المرونة حملت معها بذور النمو والإتساع، بينما حملت حركات المعارضة الأخرى معها بذور الفناء، فلم يبق للحركة الزبيرية أثر رغم صدق نية صاحبها كما لم يبق للأزارقة وغيرهم أثر.

وما أن توفي الإمام سنة ٩٣ / ٧١١ حتى رفع المشعل جميع من كانوا حواليه وبايعوا إمامهم الثاني في مسلك الكتمان وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي بالولاء . . . وسنرى في ما يلي ما نتج على يدي هذا الرجل من خير طالما هيا له الجليل السابق، وأبو حمزة الشاري إنما هو ثمرة من ثمرات هذه المدرسة عندما تولى قيادتها هذا المولى رغم أن المدارس الأخرى ترى إلا حق في القيادة إلا للقرشي أو لمن هو من آل البيت كأن شروط الإمام حكر على هؤلاء وكأن العبقرية حكر على قبيلة واحدة من قبائل العرب .

٣٣) الإمام جابر بن زيد - الرسالة ١٥ - ص ٣٥ . ٣٦) ن . م - رسالة ١٦ - ص ٢٨ .

٣٤) ن . م - رسالة ٩ - ص ٢٤ . ٣٧) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .

٣٥) ن . م - رسالة ٣ - ص ٣٥ . ٣٨) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .

- ١ (أبو العباس أحمد الدرجيني (حوالي ١٢٧١/٦٧٠) طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسطنطينة الجزائر د.ت ٢١٦/٢ .
- ٢ (ن . م ٢١٦/٢/٢ و ٢٢٤ .
- ٣ (الجاحظ - البيان والتبيين - بيروت ١٩٤٨ - ١٨٠/٢ .
- ٤ (الدرجيني - طبقات ٢١٥/٢ .
- ٥ (ن . م - ٢١٨/٢ .
- ٦ (ن . م - ٢٢١/٢ .
- ٧ (ن . م - ٢٢٣/٢ .
- ٨ (أبن خلدون - تاريخ ٦٦/٣ .
- ٩ (الدرجيني - طبقات - ٢١٧/٢ .
- ١٠ (أبو العباس أحمد الشماخي (١٥٢١/٩٢٨) - سمير المشائخ ط . حجرية القاهرة ١٣٠١ - ٦٧ .
- ١١ (الدرجيني - الطبقات ٢١٤/٢ .
- ١٢ (الشماخي - سير ٧٧ .
- ١٣ (أبو القاسم البرادي (ق ٩ هـ / ١٥ م) الجواهر المنتقاء في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات (الدرجيني) ط . حجرية القاهرة ١٣٠٢ / ١٨٨٥ - ١٥٥ .
- ١٤ (ن . م - ١٦٥ .
- ١٥ (البرادي - الجواهر - ١٦٣ .
- ١٦ (ن . م - ١٦٦ .
- ١٧ (ن . م - ١٦٤ .
- ١٨ (مهدي طالب هاشم - الحركة الاباضية - ٦٨ .
- ١٩ (البرادي - الجواهر - ١٦٦ .
- ٢٠ (الشماخي - سير - ٧٣ .
- ٢١ (إنعقدت الندوة الأولى من ندوات من أعلامنا بعمان في ديسمبر ١٩٨٨ م وكان محورها الإمام جابر بن زيد وقد كتب الكتاب للندوة الدكتور أحمد درويش .
- ٢٢ (الشماخي - سير - ٧٠ .

- (٢٣) ن . م - ٧٠ .
- (٢٤) الرقيشي (ق - ١٠هـ / ١٦) - مصباح الظلام - ورقة ٢٠ ب نقلا عن مهدي طالب هاشم - الحركة الأباضية في الشرق - ٥٤ .
- (٢٥) الشماخي - سير ٧٦ .
- (٢٦) ن . م - ١٠٨ .
- (٢٧) ن . م - ١٠٨ .
- (٢٨) ن . م - ٩٦ .
- (٢٩) ن . م - ٩٣ .
- (٣٠) ن . م - ٧٥ - ٧٦ .
- (٣١) الدرجيني - الطبقات ٢ / ٢١١ - ص ٢١٢ .
- (٣٢) ن . م - ٢ / ٢١٨ .
- (٣٣) الإمام جابر بن زيد - الرسالة ١٥ - ص ٣٥ .
- (٣٤) ن . م - رسالة - ٩ ص ٢٤ .
- (٣٥) ن . م - رسالة - ٣ ص .
- (٣٦) ن . م - رسالة ١٦ - ص ٢٨ .
- (٣٧) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٣٨) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٣٩) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٤٠) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٤١) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٤٢) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٤٣) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٤٤) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٤٥) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٤٦) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٤٧) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٤٨) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٤٩) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٥٠) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٥١) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٥٢) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٥٣) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٥٤) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٥٥) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٥٦) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٥٧) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٥٨) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٥٩) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٦٠) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٦١) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٦٢) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٦٣) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٦٤) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٦٥) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٦٦) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٦٧) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٦٨) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٦٩) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٧٠) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٧١) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٧٢) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٧٣) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٧٤) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٧٥) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٧٦) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٧٧) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٧٨) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٧٩) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٨٠) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٨١) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٨٢) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٨٣) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٨٤) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٨٥) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٨٦) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٨٧) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٨٨) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٨٩) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٩٠) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٩١) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٩٢) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٩٣) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٩٤) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٩٥) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٩٦) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٩٧) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٩٨) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (٩٩) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .
- (١٠٠) ن . م - رسالة ١١ - ص ٢٨ .

الفصل الثاني

الإمام أبو عبيدة والإستعداد لمسلك الظهور

أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم قطب أهل الإستقامة وإمامهم الثاني بعد جابر بن زيد، أدرك عددا من الصحابة كجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك وأخذ عنهم كما أخذ عنهم شيوخه من أهل الدعوة، هؤلاء الشيوخ الذين وجدوا فيه الأرض الخصبة فبذروا كل ما لديهم من علم ليؤتي أكله بعد حين.

فهذا عروة بن أدية موله قد علمنا من شجاعته وشرائه وعبادته الشيء الكثير قد ورث هذا المولى كل تلك الخصال، ويضاف إليه حديث جابر وفقهه وحسن تدبيره دون أن ننسى ما أخذ عن صحاب العبدى من معرفة للأخبار وقدرة على البيان وبراعة في الجدل والأحتجاج.

كل هذه الخصال مكنت هذا الفتى المتفاني في طلب العلم وفي خدمة الجماعة في مركزها الأساسي في البصرة وفي بيت الله الحرام من أن تبوء الجماعة المكانة التي تليق به إلا وهي الإمامة إمامة الكتان، الكتان الذي يحرص على الإستعداد لإمامة الظهور. ولم يكن أبو عبيدة رغم ما أتاه الله من علم أن يندفع إلى الإعتداد بالرأي وإنما أرسى في مدرسته التعلق بالأثار مما جعلها مدرسة سنية راسخة القدم لا تبتغي عن حديث الرسول عليه السلام وأخبار صحابته بديلا.

وقد قال قبله شيخه جابر في هذا لصد «ومن ضيع للناس أمرا مخالفا للسنة فإنه لا يمكن أن يكون على صواب»^(١). وها هو يقول: من لم يكن له أستاذ من الصحابة فليس هو على شيء من الدين وقد من الله علينا بعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام، وهم الراسخون في العلم، فعلى آثارهم أقتفينا بقولهم أقتدينا وعلى سيرهم أعتدنا، وعلى مناهجهم سلكنا.^(٢) فلا قيمة لمذهب ليس له سنده المتين الذي يربطه بالرسول محمد ﷺ، ولا قيمة لمدرسة ليس لها مرجع راسخ في العلم «كل صاحب حديث ليس له إمام في الفقه فهو ضال مضل ولولا من الله علينا بجابر بن زيد رضي الله عنه لضللنا»^(٣). ولا قيمة للرأي عند أبي عبيدة إلا بعد أن يستنفد البحث في السنة والأثار.

(٣) ن. م. - ٢٤/١.

(١) جابر بن زيد - الرسائل - ص ٥.

(٢) إسماعيل الجيطالي (١٣٤٩/٧٥٠) - شرح التوبة خ ٢٤/١.

وقال: وإذا كان للإنسان نفس خبيثة مل العمل لله، وأستثقل العبادة فكان أكثرهم في الجدل والمراء فإذا بلغه حديث فيه الرغبة في العمل عارضه بالقياس وقال: إن هذا ليس صحيحاً لأن رأيه وما يوافق هواه ليس فيه العمل بطاعة الله^(٤). بمثل هذا الأفق الواسع وبمعنية شيوخ وطلبة مخلصين، وبصيانة العمل بنظام الولاية والبراءة، أستطاع أهل الإستقامة بأمامة أبي عبيدة مسلم أن يدوخوا الدولة الأموية والعباسية بعد حين في المغرب والمشرق وأن يقتطعوا العالم الإسلامي رقعتين أقاموا في الأولى الإمامة الرسمية التي عمرت أكثر من الدولة الأموية، وفي الثانية الإمامة التي تدوال عليها أئمة فضلاء بأرض عمان، وإن كان أملهم أوسع من ذلك إذ طمحووا إلى الأمامة العامة كما سترى مع طالب الحق وأبي حمزة. أن النظام السري الذي أرسيت قواعده بالبصرة مركز الدعوة، هذه المدينة التي أوت جل المشائخ ووجد فيها أهل الإستقامة السند الكامل من عديد من القبائل كالأزد والتميميين والمهالبة ومنطلقاً لبث الدعوة في أطراف البلاد عمان واليمن والحجاز وخراسان والمغرب، هو السبب في نجاح هذه الحركة الباهرة.

لقد عرف أهل الإستقامة نظام المجالس السرية من وقت مبكر فيروي المبرد أن عروة بن أديّة مولى أبي عبيدة أخذ في سرداب حيث كان يتعبد^(٥) وكذا بالنسبة إلى أبي بلال حيث يقول لأحد السعاة لدى الدولة: «إذ كانت في مجلس فأحسن حملان رأسك»^(٦) وإذا الأمر مع الإمام جابر. لكن هذه المجالس لم تعرف دقة التنظيم إلا مع أبي عبيدة في البصرة حيث يتضح من عديد من الشواهد أنها كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع، مجالس الشيوخ، ومجالس العامة، ومجالس تكوين الدعاة.

النوع الأول: مجالس الشيوخ :-

«قال أبو سفيان: قال المليح بلغنا ذات ليلة أن في منزل حاجب مجلساً قال أبو سفيان: وكان المشائخ لا يدعوننا أن نحضر معهم المجالس بالليل فقلت لرجل من أهل عمان: إنطلق بنا إلى منزل حاجب لعلهم يأذنون لنا فجئنا فأذن لنا، فوجدنا المختار بن عوف ورجلين أو ثلاثة من المشائخ. فقال لنا حاجب: أخبرا بلج بن عقبة وأخبراه بمكاننا، فأخبرناه فأتى فلما صلينا العتمة أخذوا في الكلام فيقوم أحدهم فيتكلم ماشاء الله ثم يجلس فيقوم الآخر فكذلك حتى أضاء لنا الصبح. قال المليح: ما رأيت متكلماً قائماً في مجلس قبله ولا بعده. فجاء شعيب بن عمر وكانت أخته تحت حاجب فردّه وأبى على إدخاله وكان يومئذ من أفضل الفتيان. وكان بين منوله ومنزل حاجب نحو ثلاثة أميال»^(٧).

٤ (إسماعيل الجيطال - قناطر الخيرات - القسم الاول - تحقيق عمرو خليفة النامي مكتبة وهبة القاهرة - ط ١ - ١٣٨٥ / ١٩٦٥ - ١٧ - ١٨ .

٥ (المبرد - الكامل ٩٠٩ / ٣ . ٦ (الشماخي - السير ٦٦ . ٧ (ن . م - ١٩ .

١ - إن هذا الخبر المنقول عن شاهد عيان تتجلى منه عدة حقائق: فعدد الحاضرين لا يتجاوز السبعة .

٢ - لا يسمح للفتيان أن يحضروا هذه المجالس ولا شك أن هناك مراحل يجب أن يمر بها المرء ليرقى إلى مستوى القيادة .

٣ - لا خلط بين القرابة وبين المسؤولية الحركية فلا محسوبة ولا تهاون في المبدأ إذ ليس من اليسير أن يمنع الإنسان صهره من بيته ، ولكن حاجبا منع هذا الصهر لأن الدار ملك المجلس تلك الليلة .

٤ - رغبة أبي سفيان مع المليح العماني في حضور المجلس تدل على أنهم لم يرتقوا إلى مستوى القيادة بعد وإنما هم قريبون منها . قد تقدم تاريخ إنتمائهم للحركة ولذلك إذن هؤلاء المتشوفين إعداد للمستقبل .

٥ - أن يحضر الاجتماع ثلاثة من رواد حركة طالب الحق المختار بن عوف وبلج بن عقبة الأول إنجيله في صدره والثاني يعدل الفا في ميدان القتال مع الممول المادي للحركة فيه دلالة على انعقاد المجلس في فترة ليست ببعيدة عن انطلاق الثورة باليمن .

٦ - التفاني في معالجة القضايا بحماس فكل يفصح عن رأيه قائما أو لم يكن هذا لساعة من الزمن وإنما من صلاة العشاء إلى مطلع الفجر .

فصدق من سمى أمثال هؤلاء رهبان الليل وفرسان النهار، وفي هذا الصبر سعى لأستيفاء كل القضايا المطروحة والإلام بجميع متطلبات الحركة .

وكم كان من ودنا لو أشار راوي الخبر ولو بشيء من التلميح الى المواضيع المطروقة، ولعل قد حال دون ذلك التزامه بالكتمان التام وقد كتب هذه الأخبار في مرحلة ليست ببعيدة عن انعقاد المجالس بل ما تزال تنعقد مثيلاتها في مراكز الدعوة .

النوع الثاني : المجالس العامة :-

هي أيضا مجالس سرية لكن يحضرها عامة أهل الدعوة ويخصص جانب للنساء وكما رأينا من قبل مع الإمام جابر بن زيد فإنها تكون محروسة من أفراد الحركة وإذا بدا أن خطر ينفذ المجلس بسرعة وكأن لم يك شيء . وهذه المجالس موكولة إلى المشايخ ولكل مجلسه الذي يعظ فيه أهل الدعوة ويعلمهم أمر الدين ومن هؤلاء أبو الحر علي بن الحصين وكان له مجلس يومي الاثنين والخميس^(٨) ، وعبد الملك الطويل وأبو سفيان قنبر .

قال أبو جميل : ما رأيت أحدا ممن مضى يذكر الجنة والنار ويصف من أمرهما مثل ما كان يصف ويذكر قبره، وكان يصف صفة من رأى وعاین وشاهد وكانو يقولون ما رأينا متكلما يتكلم بالقرآن مثل أبي سفيان قنبر^(٩) وقد كانت هذه المجالس تنعقد في النهار وكان روادها يحتالون للوصول إليها ويتنكرون كما رأينا كل ذلك بأشراف الإمام أبي عبيدة وبمساعدة بقية شيوخ أهل الدعوة إذ لم يجعل المجالس العامة حكرا عليه بل جعلها رمزا للتعاون وفرصة لكسب الأنصار ولتدريب المنتمين وتعليمهم .

وهذا حاجب الطائي العضد الأيمن لأبي عبيدة يتفقد هذه المجالس ويدعو إلى مزيد من السرية، قال أبو سفيان : بلغ حاجبا أن في منزل عبد الملك الطويل مجلسا بالليل تكثر فيه الجماعة ولهم كلام يسمعه الجيران ، فأرسل إليه فقال له : أرفق على نفسك يا عبد الملك ما هذا الذي بلغني أنكم تفعلون؟ قال : إنا لنفعل وإن أمرتنا ألا نفعل تركنا فسكت طويلا ثم قال : لئن تخافون وتعمروا لأحب إلي من ألا تخافوا وتخربون أعمروا مجالسكم فإن الله يحفظكم^(١٠) .

إن الوقف عند هذا الخبر عن مجالس العامة يستنتج ما يلي :-

- ١ - يقظة القيادة وأنتباهها لكل ما يطرأ في الحركة .
- ٢ - حسن العلاقة بين القواعد والقيادة إذ لم يكن من عبد الملك الطويل إلا أن إعراف بالخطأ مع الإستعداد الكامل للإمتثال لما يصدر من أمر مهما كان نوعه وهي من أدل العلامات على الاخلاص والذويان في مصلحة الأمة .
- ٣ - حكمة حاجب في معالجة القضية إذ حمل عبد الملك المسؤولية مبينا له فلسفة القيادة في العمل وأساسها ان الكتمان يورث الإمتداد والعمران ، بينما التهور لا ينتج عنه إلا الخراب ، ولا شك أن الواعظ لا يرغب إلا في ما يعود على الحركة بالخير .

النوع الثالث : مجالس تكوين الدعاة :-

هذه المجالس كان يتولاها أبو عبيدة بنفسه ، وكان يرسل الدعاة ليتخيروا له النخبة من أطراف البلاد ليعبئهم تعبئة تامة بعد أن يثبت لديه نبوغهم .

وقد جمع هذا المجلس طلبة من الحجاز واليمن ومصر وخراسان والمغرب ممن كان لهم شأن في مواطنهم في بث الدعوة وأرساء قواعد إمامة الظهور الأمر الذي لم يرد أن يضطلع به أبو

(٩) ن . م - ٩٣ .

(١٠) ن . م - ١٠٧ .

عبدة بنفسه إذ يعلم أنه بالإقدام على مثل ذلك إنما يقدم على عملية إنتحارية تفجر كل البناء من أساسه^(١١)

لقد كان هذا المجلس أهم مركز إشعاع عرفة الفكر الأباضي إذ في ما نعلم لم تخرج مدرسة قبل هذا المجلس ولا بعده مثلما خرج هذا المجلس ، والمجلس لا ينعقد في أضخم قاعات القصور وإنما في سرداب من سراديب البصرة يتظاهر فيه الإمام بتعاطي صناعة القفاف مع من حواليه ولذلك عرف بالقفاف ، وعلى باب السرداب يتحول مصنعا للقفاف فإذا أمن القفاف ويلات العدو المترصد حول السرداب الى مصنع للرجال الأفذاذ الأبطال اذ لم تحش أدمغتهم علما فحسب وإنما عمروا إيماناً صادقا وأثاروا به السبل وأقاموا الإمامات في اليمن وعمان والمغرب^(١٢) . من هذا المجلس تخرج العلم إلى عمان وهم : الربيع بن حبيب ، ومنصورا الرباحي ، وبشير بن المنذر النزواني ، ومحمد بن المعل الكندي ، وراشد بن عمر الحديدي^(١٣) ، والي المغرب «أبو الخطاب عبد الأعلى المعافري اليمني ، وعبد الرحمن بن رستم ، وعاصم السدارتي ، وإسماعيل بن دارار الغدامسي ، وأبو داود القبلي النفوسي»^(١٤) ، كما تخرج غيرهم كثير ممن لم يشتهروا بهذا اللقب .

من العراق أمثال أبي غسان مخلد بن العمرد الغساني العراقي ، وعبد الملك الطويل الذي تحمل مسؤولية إحدى المجالس العامة ، وأبي سعيد عبد الله بن عبد العزيز الذي حكيت عنه كثير من أخبار مدونة أبي غانم ، ومن الحجاز أمثال : محمد بن سلمة المدني ، وأبي سفيان محبوب بن الرحيل بن سيف بن هبيرة القرشي المكي ، وأبي علي الحر بن الحصين . ومن خراسان أمثال : هلال بن عطية الخراساني ، وأبي عبد الله هاشم بن عبد الله الخراساني ، وأبي عيسى الخراساني .

ومن عمان أمثال : أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي ، وبلج بن عقبة الفراهيدي ، والجلندي بن مسعود ، وشبيب بن عطية ، والفضل بن جندب .

ومن مصر أمثال : محمد بن عباد المصري ، وعيسى بن علقمة المصري ، ومن شمال أفريقيا : المذكورون في حملة العلم باستثناء أبي الخطاب فإنه يمني ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الجناوني النفوسي .

(١١) ن . م - ٧٨ .

(١٢) أبو زكرياء يحيى بن بكر الوارجلاني - كتاب السيرة وأخبار الأئمة تحقيق عبد الرحمن ايوب - الدار التونسية للنشر ١٩٨٥/١٤٠٥ - ٥٩ .

(١٣) سلمة بن مسلم الصحاري العوتبي - الأنساب ورقة ١٧٠ نقلا عن طالب هاشم - الحركة الأباضية ٨٥ .

(١٤) الشياخي - سير ١٢٣ .

ومن اليمن أمثال: سلمة بن سعد الحضرمي اليمني، ناشر الدعوة في بلاد المغرب وهو الذي كان يقول «وددت أن يظهر هذا الأمر بالمغرب يوما واحدا من غدوة إلى الليل فما أبالي أن يضرب عنقي»^(١٥)، وعبد الله بن يحيى الكندي، وأبي الخطاب عبد الأعلى المعافري الحميري اليمني، وأبي أيوب وائل بن أيوب الحضرمي اليمني، وأبي المهاجر هاشم بن المهاجر الحضرمي، وأبي المؤرج عمر بن محمد القديمي اليمني وهو واحد ممن رويت عنهم مدونة أبي غانم وأبرهة بن الصباح الحضرمي.

وأظن أيها القارئ أنك أدركت لم ذكرت هذا السيل من الأسماء لا شيء إلا لتعلم منزلة أبي عبيدة وقدرته الحركية وإلا فكيف يستطيع هذا السرداب أن يتقبل مثل هؤلاء في وقت كانت الحركة مراقبة فيه أشد الرقابة. وأعلم أن هذا الذي ذكرنا إنما هو قليل من كثير وقد كان لجل هؤلاء شأن إما في بث العلم أو في الإمامات، وما دمننا مع أبي عبيدة الحركي فلنعدد ذكر من أقاموا إمامة الظهور في حياة أبي عبيدة وبعد مماته. أما في حياته وبمشورة منه ومن معه فكانت دولة الإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى وسنعود إليها بالتفصيل إن شاء الله تعالى وقد كان أبو حمزة بطلها المغوار وهو محور الحديث في هذا البحث.

وكذلك وبأمر منه أستقامت إمامة أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري بطرابلس، وأثر سقوط الإمامة باليمن بايع الأباضية في عمان الجلندي بن مسعود سنة ١٣٢ هـ وما من شك أن الامر كان أيضا بمشورة الإمام أبي عبيدة.

أما بعد وفاته فكانت دولة الإمام عبد الرحمن بن رستم بتاهرت بالمغرب الأوسط، ولا يفوتنا قبل أن ننهي هذا الفصل عن أبي عبيدة أن نبين أنه قد أستعان بمن حواله من شيوخ البصرة نذكر منهم أبا مودود حاجب الطائي، وحيان الأعرج، وأبا نوح صالح الدهان، وضمام بن السائب وستعلم بعد حين أن منهم من كابد معه مرارة السجون وأقام سنوات في مدرسة يوسف عليه السلام يحتسب الأجر من الله.

محنة الإمام :-

لم يكن ليسلم مثل هذا العالم من متابعة الدولة الأموية وقد أوكلت أمر البصرة إلى الحجاج بن يوسف، وقد علمنا أنه نفى الإمام جابر إلى عمان وأنه سجن أبا عبيدة وضماما وكثير ممن معهما من أهل الاستقامة.

(١٥) أبو زكريا سيرة ٤٢ .

(١٦) لقد أستفدت كثيرا من بحث صديقنا الأستاذ مبارك الراشدي عن أبي عبيدة في تعداد هذه الأسماء وقد حرص على أن يترجم هؤلاء الأعلام بقدر الإمكان رغم ندرة المعلومات .

وتعرض كتب السير صورا شنيعة من سوء معاملة هؤلاء المسجونين مما لا يطاق بلغنا عن ضمام حين سجنه الحجاج هو وأبو عبيدة قال : أدخلنا في سجن قال : فلم يكن يوصل إلينا ولا يدخل علينا حديدة ولا جلم قال : وإنما كنا نقص شواربنا بأسناننا ، وإن كان الرجل منا لينفض لحيته فيتساقط منا القمل ، قال : وإنما كان يطعمنا خبز الشعير والملح الجرش ، قال : ويعمد إلى مراكن عظام فيسكب فيها الماء يؤتى بملح فيلقى في تلك المراكن ثم يضرب حتى تخرج رغوته ثم يقال : يا أهل السجن خذوا ماءكم قال : فمن أخذ من أوله كان أمثل قليلا ، وأما من أخذ من أسفله فهو العذاب ، قال : فكان ضمام ربما ضاق فيقول له أبو عبيدة : ويلك ما هناك على من تضيق وعلى من تدل^(١٧)

ما هو جرم هؤلاء ليشربوا ماء معطرا بالملح وليحرموا من الوسائل للمحافظة على سنن الفطرة وليأكلوا شعيرا مملحا ، إنه مخالفة الأميين وليت الأمر كان بينا لدى الحجاج إنها هو أخذ بالظنة ومع ذلك يعد الحجاج من المسلمين وخليفته ظل الله في الأرض ويعد غيرهم أهل ضلال ومحارج مبتدعة .

ثم تأمل في المحاوراة المختصرة بين الشيخين أبي عبيدة وضمام لتدرك رباطة جأش الثاني ودعوته ضماما والآخرين بأن يحتسبوا أمرهم إلى الله تعالى ، وهذا النوع من العذاب لا يخطر إلا ببال شيطان ، « قال : وعمد إلى ثلاثة رجال من رؤساء الخوارج فبنى عليهم بيتا من قصب وطلى داخله وخارجه بالعذرة ثم أدخلهم فيه ، قال : فقاموا ثلاثة أيام فماتوا^(١٨) » ويتدخل القدر ليكتب نجاة من قدرت له الحياة من المسجونين فيرسل الحجاج طبيبا مجوسيا للسجن لما علم أنه وقع الموت في أهل السجن وهو يقول : ويحك إن أهل السجن وقع فيهم الموت وإني لأحب تعذيبهم ، فما كان منه إلا أن نصح بأن يحول طعامهم زيتا وكرائنا فكان أشفق بهم رغم مجوسيته من ممثل أمير المؤمنين^(١٩)

وفعلا صدقت نية المجوسي ، ومات من يسوم الناس سوء العذاب مجنونا وأستطاع أهل السجن أن يخلصوا من سجنهم وعلى رأسهم أبو عبيدة وضمام ، « قال : فلم يخرجوا من سجنه حتى مات الفاسق^(٢٠) » . هذا شيء مما نال الإمام أبا عبيدة من البلاء في سبيل الله فزاده إيمانا فواصل المسيرة على الدرب الذي وضعت معالمه مع الإمام جابر دون أن يتراجع قيد أنملة ، ولم تطمئن نفسه إلا بعد أن فجرها ثورات عادلة وأقام أنصاره الإمامة المنشودة ، ولكن القدر أبى أن تكون إمامة المسلمين عامة .

(١٩) ن . م - ٢٤٨ / ٢ .

(٢٠) ن . م - ٢٤٧ / ٢ .

(١٧) الدرجيني - طبقات ٢ / ٢٤٧ .

(١٨) ن . م - ٢٤٧ / ٢ - ٢٤٨ .

كما يحسن أن نشير إلى أن الإمام كان وثيق الصلة بأنصاره في جميع الأمصار وذلك يتسم عن طريق اللقاء في موسم الحج وقد كان أبو عبيدة مثل شيخه جابر لا يتخلف عن الحج، وسنرى بعد حين ما كان لأهل الدعوة في مكة خاصة من دور فعال في مؤازرة أبي حمزة بقيادة أبي الحر على بن الحصين.

وكان هذا اللقاء فرصة لبث الدعوة في الحجيج الوافدين من أطراف العالم الإسلامي وتنبيههم إلى ظلم الأمويين وبعدهم عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، كما أن هذا الاتصال يتم عن طريق المراسلات وقد بقيت رسالة هامة من رسائل الإمام أبي عبيدة لأهل المغرب في الزكاة وضع فيها المسالك الشرعية لتوزيع العشر، وهذا تم لأبي عبيدة بناء مجتمع مترابط الأواصر رغم بعد الديار لأنه يقوم على منهاج واحد تردعه سلطة أدبية تتمثل في البراءة من كل من ينحرف عن المنهج السوي فكرياً أو مادياً ومن ذلك براءة الجماعة من بعض من رؤوس أهل العدل والتوحيد^(٢١).

كما عرف هذا المجتمع في البصرة وغيرها روح الوثام، وذلك لما يبذله الأغنياء من عطاء يجعل الفقير متعففاً مع ما يبذل من أجل نشر الدعوة كما سيتجلى ذلك في أخبار ثورة طالب الحق بعد قليل.

ذلك هو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، أستوعب أبرز خصال شيوخه، وأرسى قواعد مدرسة سنية أصيلة، فأقبل عليه أهل الاستقامة من كل حذب وصوب، فتخرج على يديه جيل لم تعرف الأباضية له مثيل، فاستطاع بهذا الجيل أن يحقق ما كان يصبو إليه الشيوخ عندما خيروا القعود حتى تحين الفرصة للظهور.

وها هي قد حانت، وما ذاك إلا بفضل الله وبفضل عبقرية أبي عبيدة الذي أستطاع أن يتحدى جبروت الأمويين وهو في عقر دارهم، أذاقوه أمر العذاب في غياهب السجون فلم يظفروا بشيء، وجلدوا أصحابه ومزقوهم فليم ينبس واحد منهم ببنت شفة حتى ظهرت راية الحق في حضرموت ثم من هناك أنطلقت لتزفر على جبل عرفات.

(٢١) فرحات الجعيري - البعد الحضاري للعقيدة الأباضية - مسقط عمان ١٤٠٨/١٩٨٧ - ص ١٠٦.

- ١ (جابر بن زيد - الرسائل - ص ٥ .
- ٢ (إسماعيل الجيطالي (١٣٤٩/٧٥٠) - شرح النونية خ/١ - ٢٤ .
- ٣ (ن . م - ٢٤/١ .
- ٤ (إسماعيل الجيطالي - قناطر الخيرات - القسم الأول - تحقيق عمروا خليفة النامي مكتبة وهبة القاهرة - ط ١ - ١٣٨٥/١٧ - ١٨ .
- ٥ (المبرد - الكامل ٩٠٩/٣ .
- ٦ (الشماخي - السير ٦٦ .
- ٧ (ن . م - ١٩ .
- ٨ (ن . م - ١٠١ .
- ٩ (ن . م - ٩٣ .
- ١٠ (ن . م - ١٠٧ .
- ١١ (ن . م - ٧٨ .
- ١٢ (أبو زكرياء يحيى بن بكر الوارجلاني - كتاب السيرة وأخبار الأئمة تحقيق عبد الرحمن أيوب - الدار التونسية للنشر ١٤٠٥/١٩٨٥ - ٥٩ .
- ١٣ (سلمة بن مسلم الصحاري العتوبي - الأنساب ورقة ١٧٠ نقلا عن طالب هاشم - الحركة الأباضية ٨٥ .
- ١٤ (الشماخي - سير ١٢٣ .
- ١٥ (أبو زكريا سيرة ٤٢ .
- ١٦ (لقد أستفدت كثيرا من بحث صديقنا الأستاذ مبارك الراشدي عن أبي عبيدة في تعداد هذه الأسماء وقد حرص على أن يترجم لهؤلاء الأعلام بقدر الإمكان رغم ندرة المعلومات
- ١٧ (الدرجيني - طبقات ٢/٢٤٧ .
- ١٨ (ن . م - ٢٤٧/٢ - ٢٤٨ .
- ١٩ (ن . م - ٢٤٨/٢ .
- ٢٠ (ن . م - ٢٤٧/٢ .
- ٢١ (فرحات الجعبري - البعد الحضاري للعقيدة الأباضية - مسقط عمان ١٤٠٨/١٩٨٧ - ص ١٠٦ .

الفصل الثالث

عبد الله بن يحيى طالب الحق وإعلان الإمامة في اليمن

ما تزال القيادة الأباضية تتحين الفرصة المناسبة لإعلان الثورة في مصر من الأمصار وقد كانت على بينة مما أصاب الخلافة الأموية من انحلال في العقد الثالث من القرن الثاني، وما كانت تناله من ضربات في قلبها مما ظهر من إنشقاق في أبناء الأسرة الحاكمة، ومن ضربات في أجنحتها من الحركات الخارجية والشيوعية وخاصة من الحركة العباسية الفتية.

فلماذا لم يتحرك هذا الكتمان؟ ولم لا تكون المحاولة والظرف سياسيا مناسب ومروان بن محمد تنصب عليه الضربات من كل مكان؟ فتكن الضربة القاضية على أيدي أهل الإستقامة تلك هي أحاديث مشائخ أهل الدعوة خاصة في مركز الدعوة في البصرة، بقى أي المواطن أولى المغرب أو خراسان، مصر أو اليمن، وبعد الدراسة والتمحيص تم الإتفاق على اليمن، نعم لقد وصلت الدعوة من زمان ويتولى فيها القضاء قطب من أقطاب الدعوة فالأمة هناك وإن كان الكثير منها على غير الإمامة ليس للناس إلا أن يستبشروا لأنهم يدركون من تجربته في القضاء أنه أهل ليقود الأمة إلى الخير وليبعد عنها ما عرفته من عسف من زمان، وقد عرفنا في ما مضى ما عرفته هذه البلاد السعيدة من بلاء مع الولاة من بني ثقيف الذين توارثوا كرسي الولاية صاغرا عن كابر كما توارثوا طبيعة البطش والقهر.

وفعلا فقد علل ثورته بما تعيشه اليمن من عسف كما جاء في الأغاني «فرأى (عبد الله بن يحيى) باليمن جورا ظاهرا وعسفا شديدا، وسيرة في الناس قبيحة، فقال لأصحابه ما يحل لنا المقام عل ما نرى ولا يسعنا الصبر عليه»^(١) هذا من ناحية، أما عن وصول الدعوة إلى هناك فقد كان من وقت مبكر وقد ذكرنا من قبل أسماء بعض من أبناء اليمن الذين تخرجوا على يدي أبي عبيدة وعلى رأسهم أبو أيوب وائل بن أيوب الحضرمي الذي يذكر ما يلي «أدركت بحضرموت رجالا إن كان الرجل منهم لو ولي على الدنيا كلها لأحتمل ذلك في عقله وحلمه وعمله وورعه»^(٢). وفي هذه الشهادة دليل على رسوخ منهج أهل الإستقامة في اليمن، كما أن إختيارها لريادة التجربة الأولى في الثورة تؤكد ما ذكر وإن امتسعت الأخبار بالتفاصيل، ولا ينبغي أن ننسى أن عبد الله بن يحيى وإن كان قاضيا لإبراهيم بن حبابه عامل القويسم

١ (الأغاني - ١١١/٢٣ - ١١٢ .

٢ (الشاخي - سير ١٠٥ .

الثقفي على حضرموت ، فإنه من أصل يماني إذ هو عبد الله بن يحيى بن عمر بن الأسود بن عبد الله بن الحارث بن معاوية بن الحارث الكندي ، وهذا من شأنه أن يدعم موقفه إذ للكنود دور فعال في اليمن ولا يمكن أن يتخلوا عن واحد من أبنائهم إذا قامت الإمامة . مع العلم كذلك أن عبد الله هذا كما علمنا كان من رواد مدرسة أبي عبيدة القفاف وقد نهل من هناك مع خلانه ما يؤهله ليكون الإمام المنشود ولا نشك في أنه وقع التخطيط للثورة في سرداب أبي عبيدة وفي غيره من مجالس أهل الدعوة الخاصة ذلك لأنه حالما أستشار طالب الحق الجماعة في البصرة هللو جميعا وقالوا بصوت واحد «إن أستطعت ألا تقيم يوما واحدا فأفعل فإن المبادرة بالعمل أفضل ولا تدري متى يأتي عليك أجلك ، والله خيرة في عباده يبعثهم إذا شاء لنصر دينه ، ويختص بالشهادة منهم من يشاء» (٣) .

نعم إن عبد الله خيرة من عباد الله تلك هي شهادة شيخه وخلانه بمركز الدعوة بالبصرة وهو أهل ليقود هذه الثورة التي طال إنتظار أهل الدعوة لها ، ولولا حكمة القيادة وإنقياد القاعدة لأنفجرت من زمان . ولم تكن المؤازرة بل جاءت فعلية لأن العمل جزء من الإيمان عند هذه الفئة من الناس ، وهذا الإمام أبو عبيدة بعين للأضطلاع بمهمة التعبئة عضدة الأيمن في البصرة إلا وهو حاجب بن مودود الطائي (٤) ، من أصل عماني ولد في البصرة ، فقام بها أحسن قيام ، وقد علمنا من أخباره من قبل أنه كان يرعى جميع الحلقات ويتفقدوها وأن أمره كان مطاعا ، وفعلنا أنه على علم أن الثورة في حاجة إلى تشجيع معنوي وقد كتب رسائل في هذا الصدد ، وكذلك إلى مؤازرة مالية عسكرية فنشط في جمع الاموال وكان الامر كما يلي :-

«وقال أبو سفيان لما خرج الإمام عبد الله بن يحيى ووجه أبا حمزة المختار بن عوف أقام حاجب فجمع له أموالا كثيرة ليعينه بها فقال فكتب على كل موسر من المسلمين قدر ما يرى ، قال : فما امتنع عليه أحد ، قال ودعا أبا طاهر ، وكان شيخا فاضلا ، قال عليك بالنساء وأوسط الناس فإننا نكره أن نكتب عليهم مالا يحملون ، قال : فانطلق أبو طاهر فيمن انطلق معه من المسلمين ، قال فلم يأتوا يومئذ امرأة ولا رجلا إلا وجدوه مسرعا في ما سألوه ، قال : وكان رجل من المسلمين لم يكن أحد يرى أنه صاحب مال فدفع إليهم ثلاثة آلاف درهم ، قال : فقال به أبو طاهر : أي أخي العيال ، فقال : الله لهم ، والله ما رأيت منذ كنت وجهها كهذا أنفق فيه ، فإذا وجدته أفادعه؟ ولا يرجع إلي منها شيء ، ولكن يا عبد الله لا تخبروا بأسمي ما بقيت ، قالوا ففعلوا .

٣ () الاغانى - ٢٣ / ١١٢ .

٤ () عبد الله بن مداد - سيرة ، نشر وزارة التراث بعمان ١٩٨٤ - ٦ .

فلم تمس الليلة إلا وجمع أبو طاهرة عشرة آلاف درهم، قال فأتوا حاجبا فأخبروه فسر بذلك وقال: إن في الناس لبقية بعد، قال فاشترى بتلك الأموال سلاحا ووجهه، ووجه ما بقي إلى أبي حمزة رحمه الله»^(٥)

إن في هذا الخبر دلالات عدة أهمها:-

- (١) الثقة المطلقة بين القيادة والقواعد.
 - (٢) إنتظار الأمة إمامة الظهور بفارغ الصبر.
 - (٣) إنتشار الوعي بين جميع أفراد الأمة رجالا ونساء.
 - (٤) التمييز بين الغني والفقير في جمع الأموال.
 - (٥) التطوع در على الصندوق أكثر من التعيين ذلك أن متطوعا واحدا قدم ما يقارب ثلث المقدار المجموع.
 - (٦) عدم حرمان الفقراء من أجر العطاء ولو بقليل.
 - (٧) وعي المتطوع بقيمة الغرض من العطاء إذ فهم أن الجهاد أحسن وجوه العطاء فلم يتردد.
- هكذا أجمع السلاح والمال فقدما إلى أبي حمزة ليقود الجيش المتوجه إلى حضرموت فيصفه أبو عبيدة: «إنا بعثنا لك إثنى عشر رجلا وألفا يعني بالآلف بلج بن عقبة الفراهيدي^(٦) ونحن نعلم أن الشراء لا يعتمد على كثرة العدد بقدر ما يعتمد على التعبئة الإيمانية، وقد رأينا من قبل كيف تغلب أربعون على ألفين. وينطبق الجيش بحكمة تامة يحمل رسالة من الإمام أبي عبيدة إلى عبد الله بن يحيى تدعو إلى الالتزام التام بمسلك السلف في السلم والحرب «إلى عبد الله بن يحيى إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تعتدوا وإقتدوا بأسلافكم الصالحين واستنوا بسنتهم، فقد علمتم إنما أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم»^(٧).
- ولا أريد أن أسبق الأحداث في التعليق على هذه الوسيلة الإيمانية من رجل يخلط بين الأمور، ولا يرد الكيل كيلين، وإنما غرضه من الثورة أن تكن كلمة الله هي العليا، وأن يرجع العدل إلى نصابه وأن تدور عجلة الزمن لتعبر من جديد صفحة كصفحات الخلافة الراشدة في عهدها الزاهر، وإنما أترك ذلك للأحداث لتبين قوة الصلة بين القول والعمل.

٥ () الدرجيني - طبقات ٢/٢٦٢ .

٦ () الشماخي - سير ٩٩ .

٧ () الرقيشي - مصباح الظلام ورقة - ١٣٢ - نقلا عن مهدي طالب هاشم - الحركة الأباضية - ١٠٤ - الأغاني - ١١٢/٢٤٣ .

وحالما التأم الجمع بحضرموت هبت الجماعة لمبايعة عبد الله بن يحيى إماما للظهور، ولم تدقق فيه الطبول، وإنما خر فيه الحاضرون ساجدين لرب العالمين راجين من الله حسن القبول وهم على علم بما ينتظرهم من العمل الدؤوب لإرساء قواعد هذه الإمامة في واقع الحياة بما سيلقون من بلاء ممن تربعوا على كرسي (الخلافة) منذ ما يقارب القرن، هؤلاء الذين أنظلت حيلهم على كثير من الناس إذ اعتبروا معهم أن كل ثائر على الخلافة الأموية خارج عن الحق يجب أن يحارب. وأثر هذه البيعة لم يكن من طالب الحق، وقد صار طالب الحق بحق إلا أن أنطلق ليسترجع الحق من مغتصبه فأتجه إلى دار الولاية وهو بها عليم، لكن لا ليجلس إلى الوالي وإنما ليجلس مجلس الأئمة مكان الوالي وهو آنذاك أبراهيم بن جبلة، ويتحول الوالي من دار الولاية إلى السجن لكنه ليس كسجن الحجاج وأمثاله، وإنما هي إقامة جبرية مؤقتة في الحفظ والأمان، الغرض منها حماية الوالي لا تعذيبه، وفعلنا لم يمض يوم حتى خير الوالي بين الإقامة في دولة الأمام عبد الله بحضرموت له ما للأئمة وعليه ما عليها، وبين المغادرة حيث يشاء بدون قيد ولا شرط.

إنها الساحة بعينها، وإنما لا أقوى دليل على أن الدولة الجديدة لا رغبة لها في سفك الدماء وإنما همها أن تنصف المظلوم وتقيم العدل في ظل شريعة الإسلام ولكن أنى لأبراهيم بن جبلة مثل هذه المعاني السامية وهو أحد تلاميذ بني ثقيف، وإنه الكرسي في النهاية فكل الناس يرغب في الصعود إليه ويكره النزول منه ولو برفق مثل هذا الرفق. وما إن أطلق سراحه حتى سارع إلى صنعاء حيث يقيم القاسم الثقفي والي الدولة الأموية على اليمن بما له من قوة وعتاد، وما أن بلغه الخبر وتأكد ذلك بوصول أبراهيم بن جبلة حتى بدأ يستعد للمواجهة. أما حضرموت فقد صارت مركز أمانة الظهور وطار الخبر إلى أطراف البلاد ووصلت الجموع الأباضية من كل مكان لتعيش في ظلال الأمانة الفتية ولتضحى من أجلها بالمال والنفس وبكل غال ونفيس.

ولا شك في أن الامام عبد الله يعلم أنه لا يمكن أن يستقر له الأمر إلا بالتمكن من صنعاء، وما قيمة أمانة ظهور لا تنشر الحق إلا في اليمن فحسب، وإنما في أطراف البلاد، لم لا يكون ذلك في الحجاز؟ وحتى في الشام معقل الأمويين ومركز قوتهم وعسفهم وتلك كانت الخطة فعلا.

معركة صنعاء :-

نحن نعلم مما سبق أن بلاد اليمن تنقسم إلى ثلاثة مخاليف مختلفين وخلاف حضرموت ومخلاف الجند ومخلاف صنعاء، ومن لم يمتلكها جميعاً تكن سلته مختلة، مع العلم كذلك أن صنعاء هي «قصة اليمن وأحسن بلادها، وأنه ليس بجميع اليمن أكبر ولا أكثر مرافق وأهلاً منها، وهي طيبة الهواء كثيرة الماء، وكانت لها تسعة أبواب وكان لا يدخلها غريب إلا بأذن»^(٨). وكان هم عبد الله بن يحيى أن يخلص أهلها مما نالهم من عسف من القاسم الثقفي ومن سبقه من الولاة، ولا شك أنه كان قد زارها من قبل مرات للتشاور مع من يوجد بها من الأباضية، ولذلك لم يتحرك من حضرموت إلا بعد أن كتب إلى أصحابه بها «إني قادم إليكم»^(٩) ولا تتصور فرحة هؤلاء عندما علموا بالخبر فكانوا على غاية الاستعداد للامتنان لأوامر الإمام، ولا تسعف المصادر بتحديد دور هؤلاء في المعركة لأن النصر تم لطالب الحق خارج صنعاء.

ولما كانت البيعة سبيلاً من سبل الراحة، بل هي باب من أبواب الجهار لإعلاء كلمة الحق لا غير، لذلك أعد طالب الحق لدفع الظلم عن صنعاء جيشاً من المتطوعين، وكذا جيش أهل الإستقامة في كل زمان ومكان وبلغ عدده ألفاً وستمائة من الأباضية، انضم إليهم من الناقمين على بني أمية الذين سئموا حكم الولاة الثقفيين الذين أشاعوا الجور والفساد في وطنهم العزيز عدد غير قليل يتراوح بين الأربعمائة والألفين حسب اختلاف روايات المؤرخين، وبهذا يكون عدد الجيش الإجمالي إما ألفين وإما ضعف ألفين، ومهما يكن هذا وذاك فإن هذا العدد بعيد كل البعد عن عدد جيش بني ثقيف.

وإذا علمنا أن صنعاء تقع على مسيرة أحد عشر يوماً عن حضرموت أي ما قدره سبعون فرسخاً^(١٠) وأن الجيش الأموي عسكر على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء تبين أن هذا الجيش المخلص ظل يعد السير ثمانية أيام في نشوة من لا يقرأ للموت حساباً، وينتظر الشهادة بين اللحظة وأخرى، فلم يكن جيشاً متلكتاً ولا متردداً، وإنما كان في غاية التماسق والإنسجام شعاره لا حكم إلا لله.

وكم اشتاق هؤلاء الرجال إلى قعقة السيوف وصليل الفرسان في ساحة الوغي، وكم كانت وعود أئمتهم بأن مثل هذا اليوم لم يكن، وها هو قد حان وجاءت ساعة اللقاء. فكان الإمام عبد الله بن يحيى طالب الحق بنفسه في قلب المعركة وما كان لينيب أحداً عنه في مثل

٨ (ياقوت الحموي (١٢٢٨/٦٢٦) معجم البلدان - دار صادر بيروت - د. ٤٢٦/ ٣ .

٩ (الاغانى - ١١٢/٢٣ . (١٠) ياقوت - معجم البلدان ٢/ ٢٧٠ .

هذه المعركة التي ستكون حاسمة، وقد وضع على الميمنة يحيى بن حرب والمهاجرين الذين انضموا إلى أباضية حضرموت، وعلى الميسرة بلج بن عقبة من أباضية البصرة يعاونه أبرهة بن الصباح الحميري. وكانت الكتائب المتقدمة والمتأخرة تروح وتغدو بالأخبار. ولم يغفل الإمام عن ترك حامية بحضرموت على رأسها عبد الله بن سعيد الحضرمي، أما القاسم الثقفي، وهو من هو فلا يمكن أن يفعل كما فعل صاحبه في حضرموت، وإنما دبر وخطط مع أبراهيم بن جبلة الذي انضم إليه ووصف له قوة ما رأى من رباطة الجأش وقوة الإيمان وهو بعبد الله بن يحيى وصرامته خبير.

وأُسفرت خطته عن جمع جيش قدر المؤرخون عدد أفراداه في حدود الثلاثين ألفاً، وأنقص الثلث أن رأيت ذلك مبالغاً، بل أقول لك أنقص النصف ومع ذلك يبقى الفارق عظيماً بين القوتين المتقابلتين في العدد والعدة. نعم إن هذا الجيش تموله خزينة الدولة الأموية بما تجمع فيها للثقفين من مال طريف وتليد أعدوه للتطاول والاستعلاء، ولمثل هذه المواقف، أي لردع من يثور. ووسط هذا الشعور بالاستعلاء لدى القائد والجنود أبي القاسم الثقفي أن يستقبل جيش طالب الحق في صنعاء وإنما عسكر له على مسيرة يوم منها وهو مقر العزم مع أعضاده على أن يلحق هؤلاء المتمردين الخارجين عن (الخلافة الشرعية) درساً لا ينسونه في حياتهم ويكون عبرة لكل معتبر، ولتكن اليمن زائدة في هذا لأنها عرفت من الاستقرار بأمره المثقفين ما لم يعرفه غيرها من الأمصار.

ثم كانت خطته بأن ترك الاثقال في أبين (وهي قرية على مسيرة يوم من صنعاء في طريق حضرموت) وتقدم على مسيرة يومين من هذا المعسكر لمواجهة طالب الحق.

اللقاء الأول :-

لقد كان حسب رواية الأصفهاني في قرية من قرى أبين تدعى لجح، ولما تراءى الجمعان، جمع بلغ من العدد والعدة ما لا يحظر على بال خرج في الدفوف والغناء والمزامير، وجمع يقرؤون القرآن ويكبرون الله تعالى لا عدد ولا عدة سوى الإيمان بأن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء. وكان ذلك قريباً من الليل، ويروي الأزرقي أن بعض أصحاب طالب الحق هالهم ما رأوا من كثرة الجيش المقابل فدب إليهم الضعف وقالوا لطالب الحق: «أهجم بنا عليهم بالليل فإن يكن لنا أصبحنا وأن تكن علينا نجونا في سواد الليل».

وما كان ليغيب عن طالب الحق والخيرة من أصحابه إلا يقرأوا حساباً لمثل هذا الموقف، وهم يعلمون أن المنضمين إليهم ليسوا في مستوى المتطوعين الأول الذين نشأوا في أحضان

الدعوة، ومن صالحهم أن يتخلف مثل هؤلاء، وفعلًا كان الرأي بأن أمر طالب الحق مناديا بأن يهتف في الجيش «من لم يرد القتال فليصرف الليلة». وكان ما توقع طالب الحق وأصحابه فلم يبق إلا الألف والستمائة، وتبين أن الذين إنضموا من أجل النعمة كان طمعهم في الغنيمة، ولما رأوا أنهم سيكونون غنيمة حسب تقديرهم إندحروا على أعقابهم في جناح الليل.

وبعد مضي الفسحة المطلوبة لم يكن من عبد الله إلا أن أنقض بجيشه المخلص أنقضاض الأسد على الفريسة في تلكم الليلة التي لم يبلغ صبحها إلا والأمام ماسك بزمام الموقف وقد ولى الجيش المغرور القهقري مخلفا وراءه أربعمائة قتيل في حين خسر الأمام ستين. إن هذا اللقاء قلب موازين القوى إذ ولى الجيش الأموي يجر أذيال الخيبة منهار العزيمة لم يخطر بباله أن يدحر في ساعات قلائل أمام هذه الفئة القليلة من الشراة ولكنه أندحر بحق، بينما رسخ هذا اللقاء قدم جيش الأمام وزاده إيمانا بقوله تعالى ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ومضى قدما نحو الهدف المنشود لتخليص قلعة من قلاع الإسلام من الظلم والظالمين، ولم يتوقف إلا بالقرب من صنعاء في منطقة تدعى جوين بينما تراجع القاسم الثقفي إلى صنعاء فبقي فيها يوما ثم خرج منها وعسكر وخذق.

اللقاء الثاني :-

لقد أدرك القاسم الثقفي خطر جيش طالب الحق فسلك خطة ثانية أساسها حفر الخنادق للأحتاء بها من هجومات جنود عبد الله بن يحيى، ولم يجرأ في هذه المرة على المواجهة بنفسه وإنما قدم قائده يزيد بن الفيض في ثلاثة آلاف من أهل الشام وأهل اليمن نتصور أنه أنتخبهم من خيرة من عنده من الألوף المؤلفة، وإذا إنهزموا هناك ألوף أخرى تعوضهم إذ لم ينفع النفير الكامل في اللقاء الاول.

وقد كان جيش الأمام على إستعداد كامل لهذا اللقاء لكنه لم تكن بين الطرفين إلا بعض المناوشات خشى من خلالها يزيد بن الفيض من أن تقوم المعركة في الليل وأن تكون الهزيمة الثانية فأقنع القاسم الثقفي برأيه وتمت المحاجزة بين الجيشين وأنفصلوا بعضهم عن بعض وتوقفت المناوشات لمدة يومين. وإنهما ليومان من أطول الأيام على كلا الطرفين لأن طول الإنتظار أعسر من المواجهة، وما يزال يزيد يلح على أن يفجؤهم ليلا وهو يقول «والله إن لم تبيتهم ليغثمنك»^(١) لكن القاسم كان يخشى تكرار الهزيمة ولم يستطع أن يتخذ القرار النهائي.

وأمام تردد هذا كان القرار بيد الإمام الذي عزم على تكسير حالة اللاحرب، وما أن انبلج صبح الليلة الثالثة حتى أحس الجيش الأموي بالموت يأتيه من كل مكان إذ أطبق الإمام بجيشه على الأمويين في خندقهم فحاولوا عبثا الدفاع عن مراكزهم ولما غلبوا تقهقروا إلى المعسكر، ولم يصل وقت صلاة الظهر حتى بدأ النصر واضحا جليا، ففر القاسم الثقفي إلى صنعاء وتبعه قائده اليزيد بن فيض بعد أن قتل الصلب بن يوسف ابن أخ القاسم بن عمر الثقفي وأحد قواد الجيش. وما كان ليطيب المقام للقائدين المهزيمين في المدينة التي كانت رهن إشارتهما فلم يكن منها إلا أن إلتحقا ببلاد الشام بما تبقى لهما من قوة.

ووسط نشوة النصر أراد أبرهة بن الصباح أتباع المهزيمين لكن الإمام الواعي الذي ما تزال وصية الإمام أبي عبيدة تدغدغ مشاعره ما كان ليتمكن من ذلك ونهره ناصحا على أن هذا ليس مسلك أهل الإستقامة ولا قيمة لتعويض قهر بقهر. وما كان للجيش المنتصر إلا أن يخرج ساجدا لرب العالمين الذي يسر له هذا النصر على الظلم والظالمين.

وماذا تظن أنه فاعل بصنعاء؟

«قال: ودخل عبد الله بن يحيى صنعاء، فأخذ الضحاك بن زمل وأبراهيم بن جبلة بن مخزومة فحبسهما وجمع الخزائن والأموال فأحرزها ثم أرسل إلى الضحاك وأبراهيم فأرسلهما وقال لهما: حبستكما خوفا عليكما من العامة، وليس عليكما مكروه فأقيما إن شئتما أو أشخصا، فخرجا»^(١٢).

نفهم من هذا النص وغيره أن الإمام حالما كتب له النصر إتخذ عدة إجراءات قلبت مجرى حياة أهل اليمن ظهرا على عقب إذ بعد أن كان «يرى باليمن جورا وعسفا شديدا وسيرة في الناس قبيحة» يجمع المؤرخون على أنه أحسن في الناس السيرة وكان لين الجانب كافا عن الناس.

الأجراء الأول : عسكري :-

ألف الناس أن الجيش المنتصر يعيث في الأرض فسادا ويستحل الدماء والأموال والفروج وهذا ما عرفناه في جميع معارك الأمويين مع المخالفين لهم في الفكر، بل تنتهي بقطع الرؤوس والإرسال بها إلى مركز الخلافة وصلب الجثث الأنسانية سنوات طوالا، وحراق البعض منها ونسفها في اليم نسفا. تلك هي أيضا نظرية الأباضية إلا إجهاز على جريح على مسلك

(١٢) ن . م - ١١٤/٢٣ .

الإمام علي في معركة الجمل، تتحول على مرأى من الناس جميعاً إلى تطبيق، فليت لدى الناس أن الأباضية ليسوا خوارج كما يزعم الأمويون وإن كان هؤلاء أشرس من الخوارج في أغلب حروبهم.

ولذلك كما رأينا نهى الإمام أبرهة عن الإجهاز على المدبرين فهم طلقاء لا ضرر عليهم لأنهم عبروا بصفة صريحة عن الإستسلام.

الأجراء الثاني : سياسي :-

إنه لعمري إجراء منقطع النظير، بل لا يكاد يصدق العقل، بل يعتبر خطأ عند أهل السياسة، فكيف يسمح الإمام لأبراهيم بن جبلة وهو يقع في الأسر للمرة الثانية بالاختيار بين البقاء والشخص مرة أخرى حيث يشاء هذه مرونة أراد من خلالها الأمام أن يثبت أنه ما كان يرغب في إسالة الدم وعمل بالقاعدة «أرحموا عزيز قوم ذل» وإنما هي الرحمة والعدل يمكن أن يشملا حتى من كان في مركز القيادة ويخون للمرة الثانية . وإن كان الأمر هكذا مع أبراهيم بن جبلة فلا غرابة في أين يكون الأمر على نفس الحال مع الوالي الثاني الضحاك بن زمل الذي خلفه القاسم الثقفي على صنعاء . ولبقى القاسم نفسه لفعل معه كما فعل مع صاحبيه.

وقبل ذلك أنه يعتذر إليهما على ما أصابهما من إقامة مكرومة في السجن إذ لم يكن الغرض منها النكال وإنما كانت قصد الحماية من العامة لأنه قد يصدر منها في نشوة النصر ما يلوث سمعة الأمة كلها . وكأني بالواليين لا يصدقان أهمما في اليقظة أم في الحلم ، وقد نشأ على غير هذا المسلك ، ولو كان النصر بيدهما لمزقا الأمام وجماعته إربا إربا كما فعل ذلك فيما بعد ، وتختاران الخروج على البقاء إذ لا مقام لهما بين أيدي أناس كانوا يعذبانهم وهم في فاتحة عهد جديد لا فرق فيه بين سيد ومسود.

الأجراء الثالث : مالي :-

يذكر الشماخي «أن عبد الله بن مسعود وأبن خيران وهما من الأباضية قد أتيا بالأموال التي أحرزها طالب الحق إلى المسجد فقسمنها (الإمام) على فقراء صنعاء بالسوية ولم يسمح للأباضية أن يأخذوا منها شيئاً»^(١٣).

إن هذا هو الجنون بعينه حسب التقدير الأموي ، إذ كيف يفرض المنتصر في مثل هذا الرصيد من المال وهو ما يزال في بداية الطريق ، أليس من الأولى أن يدخره للمراحل اللاحقة ، وفي النهاية لم يقتصبه من أحد ولا يتعلق الأثم بذمتين .

(١٣) الشماخي - سير ٩٩ .

الأختيار الثالث : ملازمة الحياد لمن يعارض المبادئ الأباضية، وفي هذه الحالة لن يصاب بأي سوء «أو كرهنا فليخرج بأمان إلى ماله وأهله ويكف عنا يده ولسانه فإن ظفرنا لم يكن عرض لنا نفسه ولم يحملنا على سفك دمه، وإن قتلنا كان قد كفى مؤونتنا عسى ألا يعمر بعدنا إلا قليلا»^(١٤).

هذه نهاية في تمكين المتساكنين من حرية الأختيار أما الإلتناء إلى الجماعة قلبا وقالبا أو مجرد الإلتناء العاطفي، أو البقاء على الإلتناء الأول على أن يترك الجماعة في سبيل حالها، وباليات الأباضية عوملوا بالمثل أو بما هو قريب من المثل عندما كانت الغلبة من غيرهم أنه الأستئصال والقتل صبرا كما سنى عندما تتحول الأحوال. ولم تكن هذه الإجراءات إلا بعد أن وضح الإمام في خطبته التي ألقاها بصنعاء حقيقة عقيدة الأباضية الأمر الذي كان يجهله كثيرا من الناس «الإسلام ديننا ومحمد نبينا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا . . . من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر ومن شرب الخمر فهو كافر. . . ونشهد أن الله صادق في ما وعد، عدل في ما حكم، وندعو إلى توحيد الرب، واليقين بالوعد والوعيد، وأداء الفرائض والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاية لأهل ولاية الله والعداوة لأعداء الله . . . »

أبعد هذه الخطبة وغيرها يصح أن تقول كتب التاريخ والفرق والأمويين عن الأباضية أنهم أهل الهوى والبدع والخوارج عن الدين، مع العلم أن هذه الخطبة قل من لم يطلع عليها خاصة بعد كتابة كتاب الأغاني الذي وصل إلى جميع الأيدي وإن لم تصل كتب الأباضية إلى أيدي الناس. إنها عقيدة إسلامية راسخية تميز بين المطيع والعاصي، لم يعرف الأرجاء والجبر إليها سبيلا، لكل كسبه وعلى هذا الكسب يجازي فإن كان مؤمنا ختم له بالخير فالجنة وإن مات وهو كافر بالنعمة فجهم.

وقبل أن نختم لا ينبغي أن نغفل عن أبي حمزة الذي أنسى مع جملة الوافدين من البصرة لا شك في أنه كان جنديا من الجنود، ولا شك في أن الإمام أدرج جهده في القيادة إلى المرحلة اللاحقة، ولذلك حالما تم ضم صنعاء إلى حضرموت عين الامام هذه البطل على قيادة الجيش الذي سيسعى إلى إزالة ما عرفنا من عسف وقصف في الحرمين الشريفين ثم بعد ذلك في دمشق.

وليس لنا في نهاية هذا الفصل وقبل أن نعود إلى طالب الحق مرة ثانية إلا أن نسجل مدى إحكام ذلك التنسيق السري إذ تتحرك أطراف المراكز بأمر القيادة دون أن يتفطن أحد إلى

(١٤) الرقيشى - مصباح الظلام ورقة - ١٣٤ - نقلا عن مهدي طالبا هاشم ١١٥.

الصلة بين الطرفين، ويأتي المدد إلى عبد الله من البصرة، ثم من غيرها فيتقدم بإيمان راسخ ليحقق أحسن أمل كان يصبوا إليه أهل الإستقامة من يوم إعلانهم عن القعود في إجتماع البصرة أي قبل ستين عاما تقريبا، هذه العقود الستة لم تمض سدى بل أثبتت للعيان نجاعة تخطيطهم، لم يكن الإمام ليروع أحدا فحالما حطت الحرب أوزارها شاع الأمن وأنتشر الآخاء وكان العفو الشامل حتى على من كان في مركز القيادة، وعادت الأموال إلى أصحابها، وبدأ عهد جديد في اليمن السعيدة، والأمل كبير في أن يهل مثل هذا العهد في بقية أطراف العالم الإسلامي، وليكن الانطلاق من بلد الله الحرام وعلى يدي أبي حمزة الشاري وبأمر من الإمام.

١ (الأغاني - ١١٢/٢٣ - ١١٢ .

٢ (الشاخي - سير ١٠٥ .

٣ (الأغاني - ١١٢/ ٢٣ .

٤ (عبد الله بن مداد - سيرة، نشر وزارة التراث بعمان ١٩٨٤ - ٦ .

٥ (الدرجيني - طبقات ٢/ ٢٦٢ .

٦ (الشماخي - سير ٩٩ .

٧ (الرقيشي - مصباح الظلام ورقة - ١٣٢ - نقلا عن مهدي طالب هاشم - الحركة الأباضية - ١٠٤ - الاغاني - ١١٢/٢٤٣ .

٨ (ياقوت الحموي (١٢٢٨/٦٢٦) معجم البلدان - دار صادر بيروت - د - ٣/ ٤٢٦ .

٩ (الأغاني - ١١٢/٢٣ .

١٠ (ياقوت - معجم البلدان ٢/ ٢٧٠ .

١١ (الأغاني - ١١٣/٢٣ .

١٢ (ن . م - ١١٤/٢٣ .

١٣ (الشماخي - سير ٩٩ .

١٤ (الرقيشي - مصباح الظلام ورقة - ١٣٤ - نقلا عن مهدي طالبا هاشم ١١٥ .

الفصل الأول التشابه الأولي

محمد طه

هو حمزة المختار بن عوف بن عبد الله بن يحيى بن سارة بن يحيى بن سليمان بن مالك بن الأدي.

يقال للمختار بن عوف السلمي الأدي وأبوه عبد عرافة كتب وجمع نسبه إلى سلم بن عليه السلام.

يشتبه من ذلك جده الأدي الذي نسب إليه العديد من أعيان العرب على حد قوله أبي بن وأخيه أن الأدي من أعظم الأعيان وأكثرها بطلاً وأمه عروضة ونسبها الطوسي ثلاثة أقسام

في كتابه الأنساب عند أبيه السلمي الأدي الحديث بين ما يروي من قبله من أنساب عن أبيه المختار بن عوف
الباب الثالث
المجاهد أبو حمزة الشاري
والشوق إلى إمامة المسلمين عامة

في عهد الأيوبيين أصبح المختار بن عوف فريث من أسياد هذه القبائل . فكان أباها عن أن تقول أسبانيا لأنه قال الأدي الأدي . ولا نقول عن أبيه أحمد الياس قبل سلام . وأسد الله عندما احتشد الإسلام وحده كثير من الأنصار منهم حسب أبي بن . وهذه إشارة واضحة إلى ما أشار به الأدي من شجاعة فائقة تضاف إليها الحكمة من الصبر وذلك عصر الحجة العرب .

مختار بن عوف (١٢١٨/١٢١٩م) دولة الأدي في معركة أنساب العرب - قال الكتيب الطليعة بنو حاتم
الأنساب ط ١٩٨٢/١٢١٩م
مختار بن عوف - الأنساب ط ١٩٨٢/١٢١٩م
مختار بن عوف - الأنساب ط ١٩٨٢/١٢١٩م
مختار بن عوف - الأنساب ط ١٩٨٢/١٢١٩م

الفصل الأول النشأة الأولى

(١) مجد تليد :-

أبو حمزة المختار بن عوف بن عبد الله بن يحيى بن مازن بن محاسن بن سليمة بن مالك بن فهم الأزدي .

ويقال المختار بن عوف السليمي الأزدي وقفا عند عراقه النسب ويرجع نسبهم إلى سام بن نوح عليه السلام .

وبهمنا من ذلك جده الأزدي الذي تنسب إليه عديد من أحياء العرب على حد قول أبي عبيدة . «وأعلم أن الأزدي من أعظم الأحياء وأكثرها بطونا وأمدّها فروعا، وقد نسبها الجوهري إلى ثلاثة أقسام»^(١) بهمنا منها أزدي عمن الذين يرجع إليهم المختار بن عوف . ويورد العوتبي في كتابه الأنساب عند الحديث عن الأزدي عديدا من الأحاديث تبين ما للأزدي من فضائل . منها قوله عليه السلام «نعم القوم الأزدي يحسنون ولا يغفلون هم مني وأنا منهم ، من لم يكن له أصل في العرب فليلق بالأزدي فانهم أصل العرب» . وقوله «نعم القوم الأزدي طيبة أفواههم ، فخرة أبدانهم ، تقية قلوبهم» ، وقديما قالوا : «الأزدي جمجمة العرب وكاهلها» وقالوا «الأزدي أسد البأس ، وتسمى أيضا أسد الله وتسمى السنة»^(٢) .

من هذه الرواية نبع المختار بن عوف فورث عن أجداده هذه الخصال ، فكان أزديا ويمكن أن تقول أسديا لأنه كما يقال الأزدي الأسد ، ولا تغفل عن أنهم أسد البأس قبل الإسلام ، وأسديا الله عندما أعتنقوا الإسلام وعدد كبير من الأنصار منهم حسب أنس بن مالك^(٣) . وهذه إشارة واضحة إلى ما أمتاز به الأزدي من شجاعة فائقة تضاف إليها الحكمة ، وحسن التدبير وذلك معنى «جمجمة العرب» .

(١) القلقشندي (١٤١٨/٨٢١) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط١ - ١٩٨٤/١٤٠٥ - ٩٣ .

(٢) سلمة بن مسلم العوتبي - الأنساب - ط . جريدة عمان للصحافة والنشر نشر وزارة التراث العماني - عمان ١٩٨٤/١٤٠٤ - ٤٥-٤٣/٢ .

(٣) ن . م - ٤٤/٢ .

ويكفي هؤلاء في إسلامهم أن اعتبرهم الرسول عليه السلام أصل العرب وذكر أنهم طيبون وأنهم تقية قلوبهم ، ومهما يكن في هذه الأحاديث من قول فإن فيها إشارة لما للقوم من خير إذ لم تصنع أحاديث في ذمهم في ما نعلم .

هذه عن الأزدي أو الأسدي يهمنها طابع الشجاعة التليد المتأصل وتتجلى الشجاعة النادرة أيضا في نسبة المختار بن عوف إلى جده سليمة ولم يكن لم يقل مثلا المازني أو المحاسني وإنما قالوا السليمي ؟

لعل ذلك يرجع إلى ما عرف به سليمة هذا من بطولة منقطعة النظير تجدها في كتاب الأنساب الشيء الكثير . يذكر العوتبي في حديث طويل الأسباب التي أوصلت سليمة إلى الاستقرار بأرض كرمان بفارس وكيف أنهم كانوا يشتكون من ظلم ملكهم الذي وصل به العسف إلى أنه «ما زفت عروس على بعلها حتى يوتى بها إليه فيصيبها وإلا قتل بعلها وبدد أهلها»^(٤) ، فاتفق وإياهم على أن يخلصهم من الملك بشرط أن يملكوه عليهم مع التزامات أخرى ، وتم الاتفاق بين الطرفين .

وقامت الخطة على مخادعة الملك الطاغية بأن يزف إليه سليمة مكان عروس وليستقم منه شر إنتقام .

وهاك خاتمة القصة كما أوردها العوتبي «فلما أصبح (بعد أن قتل الملك) وثب إلى الأبواب ففتحها وخرج إلى حراس الملك وحاميته فشد إليهم ، فلم يزل يجالدهم بسيفه ويقتل من لحق منهم حتى أباد عامتهم ، وباب الدرب مغلق عليه وعليهم ، ثم تصايح الناس وتهافتوا بالسلاح ، ووقع الصريخ وأقبل عليه الجماعة ووجه أهل كرمان ، وأهل البيعة منهم وغيرهم من أعوان الملك في آلة حرهم وخيلهم وعددهم ، فعندما أشرف عليهم سليمة من رأس الدرب ، عليه الدرع والبيضة شاهرا لسيف الملك وهو مخضب بالدم ، وألقى اليهم بجثة الملك ورأسه»^(٥) .

وكذا كان المختار بن عوف السليمي ، وقديما قالوا من أين ذاك الشبل فقيل من ذاك الأسد ، ولا أحد ينكر ما للوراثة من قيمة في تحديد طبائع الإنسان . وهذا هو المختار بن عوف السليمي الأزدي وارث هذا المجد التليد ، وصار هو الآخر كما سنرى مضرب المثل في البطولة والشجاعة عندما أنطلق شاريا مناصرا للحق ساعيا إلى إبادة الظلم والطغيان .

(٤) ن . م - ٢١٢/٢ .

(٥) ن . م - ٢١٤/٢ - ٢١٥ .

إن مثل هذه الأصالة لا يمكن أن تنفع إلا إذا توطدت بترية إسلامية راقية توجهها إلى ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه السلام وإلى ما يعود بالنفع على المسلمين .

وما دمنا ذكرنا أن المختار يرجع إلى أزد عمان فهو حينئذ عماني المنبت كما يثبت ذلك العلامة ابن مداد في سيرته « وخرج المختار بن عوف وهو من مجز »^(٦) ومجز هذه قرية صغيرة جاثمة على ضفاف البحر الهاديء جنوب شرقي مدينة صحار وهي قرية من قراها . والتقسيم الإداري الحالي في عمان يميز بين مجز الكبرى وهي تابعة لولاية صحار وسكانها النوافل والفوارس وبنو معين ، ومجز الصغرى وهي تابعة لولاية صحم ويقطنها آل فارس والبداءة^(٧) ولا نعرف إلى أيهما ينسب المختار بن عوف لعلها كانت مجز واحدة ثم تفرعت ، كما لا نعرف عن أخبار هذه القرية سوى أسمها وأنها قرية ساحلية هادئة مطمئنة لا يمكن أن تتوفر للناسي فيها سوى تربية صالحة بين أفراد الأسرة وفي جنبات بيوت الله ، ووسط كبار أهل الحي ومشائخ القرية .

ولقرب هذه القرية من صحار لا نشك في أن هذه المدينة كانت لأبي حمزة مؤثلا وإن لم تسعف الأخبار بذلك ولعله من هناك أبحر إلى البصرة ، وصحار قصبة عمان مما يلي الجبل مدينة طيبة الهواء والخيرات مبنية بالأجر والساج كبيرة ليس في تلك النواحي مثلها ، وقيل أنها سميت بصحار بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وقال البشاري : صحار قصبة عمان ليس على بحر الصين بلد أجل منه ، عامر أهل حسن طيب نزه ذويسار وتجار وفواكه ، أجل من زبيد وصنعاء ، وأسواق عجبية وبلدة ظريفة ممتدة على البحر ، ودورهم من الأجر الساج شاهقة نفيسة ، والجامع على الساحل له منارة حسنة طويلة في آخر الأسواق ، ولهم آبار عذبة وقتنة حلوة ، وهو في سعة من كل شيء ، وهو دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن ، والمصلى وسط النخيل ، ومسجد على نصف فرسخ^(٨)

وإن كان هذا الوصف الذي نقله ياقوت عن المقدسي يرجع إلى القرن الرابع للهجرة خاصة وأنها مدينة عريقة كانت معروفة قبل الإسلام . وذاثر صحار اليوم يحس أن الامر لم يتغير كثيرا خاصة بالنسبة إلى موقع الجامع فإنه ما يزال شاخا على الساحل في آخر أسواق

(٦) ابن مداد - السيرة - ٦ .

(٧) عادل الحديد - المرشد العام للولايات والقبائل في سلطنة عمان - نشر وزارة الداخلية - مسقط ١٤٠٢/١٩٨٢ - ١٠٥ - ١٠١ .

(٨) ياقوت - معجم البلدان ٣/٣٩٣ - ٣٩٤ .

المدينة، أما طيب المناخ فهو على مر الزمن. وبهنا أن نضيف إلى هذه الوصف الرومنطقي، الذي يستهوي الإنسان لشدة الرجال أن هذه المدينة هي التي مصرها عمر بن الخطاب عندما مصر الأمصار الخمسة وربط بين البحرين وعمان. وكان وصلها من قبل عمرو بن العاص بكتاب رسول الله ﷺ إلى عبد وجيفر ملكي عمان آنذاك فأسلما في الحين ودعيا الأمة إلى الإسلام فجاءت طائفة لرب العالمين.

وهكذا بين عشية وضحاها تحولت عمان إلى تربة إسلامية خصبة قلعتها صحار ولعل راوي الخبر أن بصحار بركت ناقة رسول الله ﷺ أراد أنها ناقة مبعوث رسول الله ﷺ. وإذا علمنا أن جابر بن زيد عماني المنشأ هو الآخر وأنه نفى إليها في آخر حياته مع صاحبه هبيرة القرشي وهو جدا آل الرحيل الذين كانوا يقطنون هذه المنطقة، تأكد أن المختار بن عوف هذه الفتى تشبع بأصول الفكر الأباضي وفروعه مما كان يلقيه المشائخ في مدينة صحار من دروس ومواعظ، خاصة في مسجدها الجامع، بعد أن قبس الفروسية والرماية في قرينته الأولى مجز إذ لا حياة في البوادي لمن يجهل الفروسية والرماية اللذين أمر الرسول عليه السلام بتعليمهما للأبناء حتى يكونوا فتيانا فتوة إسلامية لا جاهلية.

ولا نضرب في الخيال بعيدا لنصور جميع جزئيات حياته الى تسكت المصادر عنها سكوتا تاما وإنما هي إفتراضات جاءت أقرب ما يكون للواقع المعاش انذاك، وإذا وجدنا المختار بن عوف في البصرة فإننا نعلم أنه لم يشف غليله مما في عمان من علم زاهر لذلك شد الرجال إلى مدينة البصرة مركز الدعوة وقطب رحاها.

٣ (النبوغ في حلقات أبي عبيدة بالبصرة :-

لقد عرفنا في ما سبق عن البصرة وعن حلقات أبي عبيدة الشيء الكثير مما لا نرى حاجة الى تكراره هنا فالبصرة حينئذ جمعت فأوعت بين حلقات العلم والأدب، ومجالس المناظرة بين شتى الفرق وسرداب أبي عبيدة وتعبثته.

كما عرفنا من خبر مضى أن مجالس أهل الإستقامة في البصرة ثلاثة أنواع فإذا وجدنا أبا حمزة في اعلاها درجة معنى ذلك انه نال نصيبه من البقية بل في إعتقادي أنه ينتقل بينها جميعا. «قال المليح: فوجدنا عنده (أبي عبيدة) المختار بن عوف ورجلين أو ثلاثة من المشائخ»^(٩) وقد استمر هذا المجلس من صلاة العشاء إلى مطلع الفجر يقعد واحد من الحاضرين ليقوم آخر، وهو في هذا يعرضون أحوال أهل الإستقامة بأحسن بيان. وهذا هو المجلس الاعلى للشورى الذي يتقرر في مصير الأمة، وقد كان أبو حمزة أحد أعضائه البارزين ولا غرابة في أن يصفه أبو عبيدة بأنه «رجل أنجيله في صدره»^(١٠)، عندما انتخب مع من أنتخب لمؤازرة عبد الله بن بن يحيى في اليمن.

٩ (الدرجيني - طبقات .

١٠ (الشهاخي - سير ٩٩ .

وهذه الشهادة من رجل خضعت له الفصاحة رغم أنه مولى تدل على ما عرف الإمام عن تلميذه من قدرة بيانية منقطعة النظير في هذا المجلس ومن قبل في مجلس التعلم، وإننا لنقطع أن المختار كان من النخبة التي جلست في سرداب أبي عبيدة القفاف هذا السرداب الذي تخرج منه جميع عباقرة الحركة، ففيه ينالون التدريب على أسرار القيادة علما وعملا، ففي العلم نبوغ وفي العمل تفان. وكذلك لم يغفل هذا الفتى الذي جاء ليكسب كل أنواع التجربة عن حضور المجالس العامة مجالس الوعظ والإرشاد هذه المجالس التي يكثر فيها الإمام من ذكر الجنة ونعيمها، والنار وعذابها إلى حد إنه «تخففه العبرة في موعظته ويستحب بالبكاء، ويشفق وينهق وما يملك دموعه»^(١١).

ولم تكن العامة أقل وعيا من النخبة وها هم ذات يوم يلحون على أبي عبيدة بأن يتحول عن الوعظ العام إلى الحديث عن الأحوال الراهنة، «فلما سكت (أبو عبيدة) وثب إليه أبو الوزير فقال: يا أبا عبيدة لو أردنا الجلوس إلى ما كنت فيه لجلسنا إلى من هو اوصف لما كنت فيه منك من قومنا، ألا ترى أمر أصحابك وتحض على نصرتهم والعون لهم؟ فنحن إلى ذلك أحوج منا إلى ما كنت فيه، يعني عبد الله بن يحيى وأبا حمزة المختار، قال فقال أبو عبيدة: يا أبا الوزير إنما يتكلم الرجل بقدر ويسكت إلى أجل»^(١٢).

وهنا تتجلى حكمة الإمام فهو لم يثر على أبي الوزير وإنما أجابه بهدوء تام على أن لكل مقام مقالا، ومثل هذه البراعة في حسن التخلص تستفيد منها النخبة من رواد هذه المجالس العامة ليحسنوا فنون سياستها إذا تحولت قيادتها إليهم.

ولم يكن للمختار أن يستغني عن أستفتاء شيخه. وقال: جاء المختار بن عوف إلى منزلنا (الربيع بن حبيب) فخرج إليه أخ لي صغير. . . . فأخذه وقبله. فقال له الصبي يا عمي زوجني أبنتك. قال قد فعلت يا بني، وأبنته يومئذ صغيرة، فلما خرج أبو حمزة وقع في قلبه مما قال الفتى شيء، فمضى حتى دخل على أبي عبيدة، فقص عليه القصة، فقال: يا أبا حمزة هما في نكاحهما حتى يبلغا، فيعلمان الخبر فإن رضيا كان نكاحهما جائزا، وإن كرها فلا شيء. قال أبو حمزة فكيف القول في الصداق، قال: ما قال الغلام، قال وكان أبو حمزة قد قال للغلام يا بني فما تعطيهما؟ قال: من سرير جدي إلى الباب دراهم، قال أبو عبيدة فهو كما قال»^(١٣)

(١١) الديوان المعروض على علماء الأباضية خ البارونية - ٥٨٧ .

(١٢) الدرجيني - طبقات ٢/ ٢٥٩ - ٢٠٦ .

(١٣) ن . م - ٢/ ٢٤٥ - ٢٤٦ .

وإن كانت القضية ليست من كبريات المشاكل ولكنه الطالب يطمئن إلى موقف شيخه خاصة في قضية من باب (بلى ولكن ليطمئن قلبي)، وفي ذلك دلالة على ما في نفس أبي حمزة من احترام لآراء شيخه. وتتجلى في النهاية قمة الاعتراف بنبوغ أبي حمزة وتأصله في الدعوة إن المدرسة التي نشأ فيها ونهل من ينابيعها تتوجه أحسن تنويج إذ تنتدبه إلى المهمة التي صبرت من أجل تحقيقها من أمد بعيد ألا وهي مهمة تحقيق الإمامة، إمامة الظهور، ولم لا الإمامة العظمى؟ وفعلا كان أبو حمزة واحدا من ثلاثة عشر وإن كان الثالث عشر يقدر بألف من وجههم أبو عبيدة إلى مؤازرة عبد الله بن يحيى عند أرساء أسس إمامة الظهور.

إنها أحسن إجازة لأبي حمزة تدل على الاعتراف بتوفير جميع خصال المسلم الذي تأهل لتحمل المسؤوليات الجسام. . . وإذا علمت أن هذه المدرسة لا يعترف روادها لواحد بالفضل إلا إذا كان شديد الحرص على أن يكون شاريا كما ينقل ذلك عبد الملك الطويل عن أبي حمزة: «وقال: سمعت عبد الملك الطويل يحدث عن المختار بن عوف الكندي قال: أدركت المسلمين إذا كان الرجل منهم ما يستزاد في صلاة ولا صيام ولا في حج ولا في عمرة ولا في وجه من الوجوه إن عرف منه أنه ليس بشديد الحرص في الشراء سقط من أعينهم ونقصت منزلته عندهم». ^(١٤)

فالمعيار ليس التفاني في العبادة فحسب وإنما يقاس المرء بمدى رغبته في السراء فإن كان حريصا عليه راغبا في بيع نفسه في سبيل الله من أجل نصرة الحق فهو من أهل الاستقامة بحق ورمز من رموزهم وإن هو بدا منه شيء من التقاعس في ذلك تردت منزلته عند الجماعة. وقد كان نصيب أبي حمزة في هذا الباب الأوفى إذ بالشراء صار يعرف فهو أبو حمزة الشاري وقد غلبت هذه الشارة حتى علم. نسب العريق والمجد التليد، لأنها من المجد الطريف المكتسب الذي يشهد به القاصي والداني. . . ولا تتصور أن أبا حمزة ومن معه من الشراة كانوا من اهل اليسر والثراء بل كانوا يلتحفون الأرض ويفترشون السماء دون أن تمنعهم هذه الخصاصة من نيل ما نالوا من درجات العلم ودرجات الشجاعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد.

ثم إن تتبع سيرة أبي حمزة تدل على أن أبا حمزة لم يكن ينتدب من بين المتدينين سدى وإنما كانت له سابقة في تحسس الأخبار خاصة في موسم الحج ولذلك أنتدب بعد ذلك لقيادة الجيش الموجه إلى الحرمين الشريفين.

لم تكن مجهودات الإمامين جابر بن زيد وأبي عبيدة لتذهب سدى في الحرمين الشريفين، إذ كانت تخفف عليهما المؤونة الجماعة الأباضية المستقرة هناك، وتمكنها من مواصلة الدعوة طوال السنة بالنسبة إلى الوافدين للأعتما مع تحسّس أخبار الأمويين وغيرهم من حركات المعارضة وكان على رأس الجماعة بمكة زمن أبي عبيدة أبو الحر علي بن الحصين هذا الذي كان مثالا في التفاني في خدمة مصلحة الدعوة فقد أثر عنه أن ينفق ثلاثة أرباع ما يملك على حاجيات الأمة ذلك أنه «كانت تأتيه غلته من البصرة إلى مكة نفقة واحدة ذهباً فيقسمها نصفين فيفرق نصفها على فقراء المسلمين وربعا في نفقته وربعا يحبسه ليهيئه لمن يمر به من المسلمين وفي معاونتهم»^(١٥).

وبمثل هذا المسلك يتعفف أهل الخصاصة من الأباضية فلا يحتاجون إلى غيرهم ولا يجرفهم تيار اللهو المنتشر بين مكة والمدينة، ولا يختار الوافدون إلى الحرمين للدعوة في ما يتعلق بالإقامة والنفقة، وليس لهم إلا أن يدخروا زاد الطريق. وسيجد أبو حمزة في هذا المدد خير عون في رحلاته الدعائية إلى الحرمين، هذه الرحلات التي كانت مستمرة على ما يبدو، فالقيادة كانت تعده للحجاز، ويتأكد هذا ببقائه مجرد جندي في ثورة اليمن وتعيينه مباشرة على رأس الجيش الموجه للحجاز.

ولم يكن أبو الحر ليكتفي بالنفقة وهو بعيد عن الواجهة بل كان يتولى أمر المجالس وكان له مجلس ترجع إليه الجماعة ولا شك أنه يجمع بين الوعظ وتنظيم شؤون أهل الإقامة وكان جريئا في الانضباط مع هذا المجلس إلى أن حذره بعض أصحابه خشية تفتن ولاية بني أمية بهذا العمل السري، ولا شك أن هذه في مرحلة متأخرة حيث كان الاستعداد للظهور جليا ببلاد اليمن، وما كانت لتغيب عن أبي الحر أخبار الجماعة لذلك أجاب هؤلاء المتحرزين: «أما سمعت أن الله يقول ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [١٥ الحجر ٩]»^(١٦) وفي هذه الإجابة إشعار بأمرين يتمثلان في حسن التوكل على الله تعالى وفي اقتراب لحظة الظهور.

وفي الوقت الذي أتفق فيه مع أبي حمزة للقاء بعرفة ألفت عليه السلطة الأموية القبض بأمر من الخليفة مروان بن محمد وقيدته بجماعة من حديد، (وهي وسيلة من وسائل الاعتقال تمنع الأسير من الفرار) وسبق إلى الشام لكن أنى للشرة أن يغفلوا عن صاحبهم. فخرج عيسى بن أبي عمرو في أربعة عشر رجلا من المسلمين (أهل الإقامة) فخلصوه منهم من بعد ما جاوزا المدينة بمراحل»^(١٧).

(١٥) الشماخي - سير ١٠١ .

(١٦) ن . م - ١٠٨ .

(١٧) ن . م - ١٠٠ .

ولا يفوتنا أن نورد هنا شيئاً من رسالة أبي الحر إلى الإمام عبد الله بن يحيى حال ما تم له النصر باليمن يلح عليه فيها ألا يغتر بالنصر وأن يلتزم مسلك السلف في الثبات على البر والتقوى حتى تستمر الدعوة في جنى ثمارها والتوسع في أطراف البلاد وفي مقدمتها مكة والمدينة حيث يتم الاستعداد حثيثاً لاستقبال أبي حمزة ومن معه. «فالله الله يا أخي أن تعمى بعد النصر وتضل بعد الهدى، وبعد معرفة الإسلام وبعد إخلاص طاعة الله بالتقوى، فإن أولي الأبواب والنهى لم يكونوا أهل لهو ولا لعب... وكان البلاء أحب إليهم من الرخاء للذي يرجون من الأجر في البلاء، ويخافون الأثم في الرخاء ولم يكونوا بطالين العشيات والضحى، ولكنهم كانوا يصبرون أنفسهم مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه...»^(١٨)

وهكذا ندرك أن جهود أبي الحر ومن معه آتت ثمارها، ذلك أننا نعلم إنه اجتمع لأبي حمزة عندما أراد الخروج إلى الشام أربعائة^(١٩) من نواحي مكة وهذا عدد لعمرى ليس بقليل. إن كان هذا عمل أبي الحر فإن أبا حمزة لم يكن يتخلف عن موسم الحج وتتفق المصادر على أن رحلته هذه لم تكن مجرد أداء الفريضة وإنما كانت رحلة دعائية صريحة قد جاء في تاريخ الطبري «كان أول أمر أبي حمزة أنه كان يوافي كل سنة مكة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد وإلى خلاف آل مروان...»^(٢٠) وقد كانت له سابقة من قبل زمن هشام إذ يقول لأهل المدينة «يا أهل المدينة مررت بكم في زمن الأحول هشام بن عبد الملك، وقد أصابتكم عاهة في ثماركم»^(٢١).

إن أبا حمزة لم يكن في زيارته غافلاً عن الأوضاع، بل يتقصى عثرات الدولة الأموية ويحسبها واحدة واحدة حتى يستفيد منها عند الحاجة، ويذكر هنا (أن الخليفة) عوض أن يخفف عن الرعية زادها بلاء على بلاء ومع ذلك قبلت الأمر شاكرة.

وإن وقع أبو الحر في الأسر فإن أبا حمزة قد جلد أربعين سوطاً لجرأته وصراحته في قول الحق وتعريف الناس بمرارة الواقع الذي يعيشونه وأنه ليس من الإسلام في شيء وها هو يطوف في إحدى قرى مكة تسمى بمعدن سليم فيلقى مواظلة البليغة التي تفضح ظلم الحكام، وما كان من عاملها كثير بن عبد الله عندما سمع بعض كلامه إلا أن أمر به فجلد أربعين سوطاً وفي رواية الطبري سبعون»^(٢٢).

(١٨) إسماعيل الجيطالي - القناطر ١/ ٢١٣ - ٢١٤.

(١٩) الشماخي - سير ١٠٠.

(٢٠) الطبري - تاريخ ٤/ ٣٠٢.

(٢١) ن. م. - ٣٢٩/٤.

وما كان الرجل لين العريكة ليشنيه الجلد عن مواصلة الجهد بل لم يزد ذلك إلا ثباتا وهو على يقين أن النصر قريب، ومعلوم أن من خصال الشاري إذا خرج في سبيل الله فأما النصر وأما الأستشهاد إذ لا تفكير في الرجوع (بالنسبة إلى مسلك الشراة). ولا شك أنه كان على علم بسيرة الولاة الذين تداولوا على الحجاز الى أن جاء الوقت المناسب زمن عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان الذي ولي هذه الخطة سنة ١٢٩/٧٤٦، وفعلا ثبتت فراسته أبي حمزة إذ لم يكن منه إلا أن يستسلم في مكة وأن ينهزم في المدينة.

وما أن تمت البيعة في اليمن وتكامل النصر في صنعاء حتى تم التنسيق بين أبي حمزة وأبي الحر ليتم اللقاء على جبل عرفات سنة ١٢٩/٧٤٦ ورغم وقوع أبي الحر في الأسر فإنه أستطاع أن يتخلص بفضل جرأة أصحابه وحسن تديره، وفعلا لم تتم الجماعة إحرامها إلا بعد أن ترأى لهم أبو حمزة ومن معه في جناح من أجنحة جبل عرفات.

وقبل أن نتحول مع أبي حمزة إلى ميدان الجهاد جنديا وقائدا يحسن أن نرفع عن شخصياته التباسا أهو شار أم خارجي؟

٥ (شار لا خارجي :-

إن جل المصادر إذا ذكرت أبا حمزة تعتبره خارجيا، وقليل منها تذكر أنه شار أو أباضي فلم هذا التردد يا ترى؟ كلنا يعلم أن كلمة الخروج حملت عديدا من المعاني، فهي إما خروج في سبيل الله، وإما خروج على الإمام علي، وإما خروج عن الدين، وقد غلب على الكلمة المعنيان الأخيران في كتب التاريخ وكتب الملل.

أما عن الخروج عن الإمام علي فالقضية فيها نظر، ولا يمكن بأية حال أن نسلم بالخارجية الذين أنحازوا إلى حروراء ثم النهروان لأنهم لم يعينوا إماما لأنفسهم إلا بعد أن عزل أبو موسى الأشعري الإمام عليا ودعي هذا الإمام إلى التوبة عن خطيئة التحكيم فلم يقبل، لذلك لا يمكن بحال أن نعتبر هؤلاء خوارج وإنما هي محكمة أو أهل حروراء أو أهل النهروان أو جماعة المؤمنين كما يختارون لأنفسهم.

وحالما تربع الأمويون على كرسي الحكم ظلوا يشنون على هؤلاء حروبا نفسية متلاحقة لأنهم أقاموا الثورات المتتالية تعبيرا عن سخطهم على جبروت الأمويين فأشاعوا في الناس أنهم خوارج على السلطة الشرعية. وما زاد الطين بلة أن بعضا من المنتمين إلى المحكمة أنحرفوا

عن طريق الصواب فكانوا خوارج لا بالمفهوم السياسي وإنما خوارج عن الدين لأنهم عملوا بمبدأ الأستعراض المتمثل في قتل كل مخالف مهما كان نوعه، وغيره من المبادئ التي تخرج عن الملة.

ولكن هل كان سلف أبي حمزة من هذا القبيل؟ كلا وقد علمت من قبل أن الإمام عند الله بن أباض قدوة أبي حمزة قعد عن هؤلاء وبقي ومن أنضم إليه وفيما لمبادئ المحكمة الأولى.

وهذا نعلم أن أبا حمزة ليس خارجيا لا بالمفهوم السياسي ولا بمفهوم الخروج عن الدين وكثيرا ما يندعش القارئ بعد أن يتحول من العنوان الخارجي إلى النص بالنسبة إلى خطب أبي حمزة فيجد إسلاما نقيًا في أعلى درجات الصفاء ولكن مهما يكن من أمر فإن صاحب الخطب أهل بأن يحارب ويقتل، وكذا الشأن بالنسبة إلى الذين أستمعوا إلى خطبه ومنهجه السليم عندما صادفتهم الفرصة ولم يمض على الخطبة وقت طويل، وليفهم القارئ أن حركة أبي حمزة ليست حركة خارجية جبارة وإنما هي حركة تصحيحية سليمة تريد أن تعرف الناس أن الإسلام لا يعترف بالسلطة الأستبدادية كما لا يقبل أي نوع من أنواع الظلم.

وإن لم يكن أبو حمزة خارجيا كما ذكرنا فهو أباضي وشار، أباضي لانتمائه إلى مذهب أهل الإستقامة الذي نسب بعد ربح من الزمن إلى أحد أئمتته الأول وهو الإمام عبد الله بن أباض الذي كان كثيرا ما يخلط الناس بينه وبين عبد الله بن يحيى طالب الحق تبعا لما وقع فيه الشهرستاني من خطأ، وكلام هذا الرجل وأمثاله مقدس عند عديد من الباحثين ينقل بحذافيره دون أن يمحص أو يناقش. وشار ذلك لأن الشراء مسلك من مسالك الدين عند الأباضية أو بعبارة العصر منهج من مناهج السياسة ولكل من هذه المسالك حقيقته وأحكامه.

ففي مسلك الظهور يطبق الأباضية كل أحكام الشريعة ويبايعون من توفرت فيه شروط الإمامة بقطع النظر عن جنسه وقبيلته، ويجعلون الأمر شورى يرجع في النهاية إلى مجلس الحل والعقد، وذلك مثل إمامة طالب الحق باليمن.

أما مسلك الدفاع فيبايع فيه الإمام عند الشعور بالخطر الداهم على المحيط الأباضي وتنتهي مهمته بإنهاء القتال. وأما مسلك الكتان فقد عرفنا صورة عنه مع الأمامين جابر بن زيد وأبي عبيدة في البصرة حيث يقع الاستعداد للظهور بطرق حكيمة يغلب عليها طابع السرية.

بقى الشراء، وهو الذي يعرف به أبو حمزة، وقد كان رمزا لهذا المسلك أبو بلال مرداس بن حدير، وقد رأينا كيف أنه خرج معبرا عن سخطه على الحكم، لا ينوي أن يقاتل أحدا ولا يروعه إلا من أعترض سبيله وفعلنا ألترم بهذا المبدأ الى أن داهمه جيش الأمويين وقتله وأصحابه غدرا. فالشراء في الأصل يستند إلى قوله تعالى ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ [٢ البقرة ٢٠٧] وإلى قوله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ [٩ التوبة ١١١]، وهو صفقة رابحة بين المؤمنين وبين الله تتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد. ويشترط الأباضية أن يكتمل عدد الشراة أربعين فأكثر ليباعوا إماما، وإذا تمت البيعة فلا رجوع إلى الإقامة بل يظلمون هكذا يجوبون البلاد معبرين عن سخطهم على الباطل.

وأبو حمزة ظل منذ أن أكتمل علمه متنقلا بين أطراف البلاد مناديا إلى الثورة على بني مروان إلى أن تم له الشراء التام في خوض المعارك في الحرمين الشريفين عسى أن ينتصر الحق ويزول الباطل. والشاري يجمع بين خصلتين الشجاعة النادرة والفصاحة ليتمكن من تبليغ ما يدعو إليه من حق، ثم ليقيم الحجة على الخصم، ثم لا يبدأ بالقتال فإن بدأ الطرف المقابل يحل القتال.

وهذا نعلم أن أبا حمزة أباضي شار وليس خارجيا مارقا ضالا مبتدعا.

- ١ (القلقشندي (١٤١٨/٨٢١) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط١ - ١٤٠٥/١٩٨٤ - ٩٣ .
- ٢ (سلمة بن مسلم العوتبي - الأنساب - ط . جريدة عمان للصحافة والنشر نشر وزارة التراث العماني - عمان ١٤٠٤/١٩٨٤ - ٢/٤٣-٤٥ .
- ٣ (ن . م - ٤٤/٢ .
- ٤ (ن . م - ٢١٢/٢ .
- ٥ (ن . م - ٢١٤/٢ - ٢١٥ .
- ٦ (ابن مداد - السيرة - ٦ .
- ٧ (عادل الحديد - المرشد العام للولايات والقبائل في سلطنة عمان - نشر وزارة الداخلية - مسقط ١٤٠٢/١٩٨٢ - ١٠٥-١٠١ .
- ٨ (ياقوت - معجم البلدان ٣/٣٩٣ - ٣٩٤ .
- ٩ (الدرجيني - طبقات .
- ١٠ (الشماخي - سير ٩٩ .
- ١١ (الديوان المعروض على علماء الأباضية خ البارونية - ٥٨٧ .
- ١٢ (الدرجيني - طبقات ٢/٢٥٩ - ٢٠٦ .
- ١٣ (ن . م - ٢٤٥/٢ - ٢٤٦ .
- ١٤ (ن . م - ٢٦٢/٢ .
- ١٥ (الشماخي - سير ١٠١ .
- ١٦ (ن . م - ١٠٨ .
- ١٧ (ن . م - ١٠٠ .
- ١٨ (إسماعيل الجيطالي - القناطر ١/٢١٣ - ٢١٤ .
- ١٩ (الشماخي - سير ١٠٠ .
- ٢٠ (الطبري - تاريخ ٤/٣٠٢ .
- ٢١ (ن . م - ٣٢٩/٤ .

الفصل الثاني المجاهد أبو حمزة الشاري

١ (عند عبد الله بن يحيى طالب الحق وإعلان إمامة الظهور: -

لقد علمنا من قبل أن أبا حكمة عينته جماعة البصرة للتطلع على أحوال البلاد وللدعوة إلى المذهب بفضل ما أوتي من فصاحة، ثم ما أن جاء طالب المدد من اليمن حتى أنتدب أبو حمزة مع جمع من نخبة أهل الحركة للمشاركة في إعلان إمامة الظهور في اليمن.

* التوجه نحو اليمن :-

إنهم ثلاثة عشر من صناديد أهل الدعوة يكفيك أن بلغ بن عقبة قدره الإمام بألف شخص ينطلقون من مدينة البصرة إلى حضرموت في غفلة من أهلها الغرقين في الترف ومن الأمويين المشغولين بصد ما أندلع في أطراف البلاد من ثورات.

كيف كان مسلكهم في الطريق وهل سلكوا مسلك العلن أو التخفي؟

هذا ما لا تسعفنا به المصادر البتة ولا نريد أن نرخي العنان للخيال لمواكبة هذه الكوكبة الإيمانية التي تدفعها الآمال دفعا نحو حضرموت حيث سيرفعون راية الحق خفاقة، وكان أبو حمزة م بينهم يقطع هذه الرحلة المباركة، ولكنها رحلة ليست كبقية ما عرف من الرحلات، إنه كان يكتفي بالخطابة والدعوة والتبليغ، لكنه في هذه المرة سيحول مع أصحابه ما كان شبيها بالخيال إلى واقع، نعم سيقومون رغم الداء والأعداء إمامة الحق مع طالب الحق. براجمها واضحة ومعالمه كتاب الله وسنة الرسول عليه السلام ومسلك السلف الصالح، ففي الحرب عدل وإنصاف واحترام للحقوق والواجبات، وفي السلم نشر لمعاني الأخوة والمحبة والفضل والإحسان الأمر الذي كان العالم في شوق إليه من زمان.

وما هي إلا أيام قلائل مرت بسرعة البرق رغم بعد الديار وصعوبة الطريق - ولا صعب على هؤلاء لأنهم رهبان الليل وفرسان النهار، وقدوتهم في عروة بن أديه الذي لم ولماذا نسابق الأمر في الوصف وستسعف المصادر في ما سيأتي بعد حين عندما ينطلق قائدنا لتخليص الحرمين، ولتصحيح المسار الإيماني فيهما.

يقول الله تعالى ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما ﴾ [٤ النساء ٩٥] . آمنت هذه الفئة المؤمنة التي أستقر بها القرار بأرض اليمن أن المجاهدين أفضل من المتخاذلين فجلسوا يتشاورون في ما اتفقوا عليه في مركز الدعوة بالبصرة يحيطون الرجال ببلاد اليمن السعيد؟ أم يواصلون الجهاد في أطراف البلاد؟ مختارين أعلى درجات الإيمان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الرسول عليه السلام بين أن «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»

نعم إن الله فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة إنها الدرجات عند الله ، وإنها المغفرة وأنها الرحمة فلا سبيل إذن إلى التفریط في كل هذا والاستكانة الى الإستراحة بأرض اليمن بعد تحقيق الأمل وهل تحقق الأمل؟ . كلا إنه تحقق جزء منه فحسب ، ألم يكن همهم دفع الظلم عن كل مظلوم في أطراف البلاد؟ فليواصلوا المسيرة يحدهم الأمل في الإهتمام إلى سبيل الله ، ألم يقل الله تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ [٢٩ العنكبوت ٦٩] ، وتدفعهم الرغبة في رجاء الرحمة من الله والإلتقاء الى درجة الفلاح ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ [٢ البقرة ٢١٨] ، ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأبتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾ [٥ المائدة ٣٥] .

نعم إنهم أدركوا أن الجهاد واجب مقدس والفرصة مناسبة خاصة وأن الدولة الأموية العاتية تلفظ أنفاسها الأخيرة إذ نخر الظلم عظمها من الداخل والخارج وإن لم يتحقق الأمل في الدنيا فما عند الله خير وأعظم أجرا . إنها الشهادة التي تقفز بصاحبها مباشرة إلى جنة النعيم ، وإذا كان لا يفصلهم عن فراديس الجنان إلا ضربة من مروان بن محمد أو من أحد اعوانه ، فلتكن هذه الضربة وعلى الدنيا بمن فيها وما فيها السلام إذ ليست إلا مطية للجنة ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [٣ آل عمران ١٧٠] .

هكذا آمنوا جميعا وأبو حمزة من بينهم يتقد حماسا ويلقى البيان بعد البيان إما الإمامة العظمى وأما الشهادة ولا سبيل إلى إختيار ثالث، نعم إنها الإمامة العظمى التي سيثبتون فيها للمسلمين أنهم ليسوا خوارج، وليسوا فئة ضالة، وإنما هم مسلمون بحق لم يعرف الأرجاء إليهم سبيلا، فلا قيمة لإيمان بدون عمل، وما معنى لا تضر مع الإيمان معصية؟ أكان الإيمان سبيلا إلى الطاعة أم إلى العصيان، نعم إنها تضر مع الإيمان معصية إذا ختم لصاحبها بعصيانها، وتدفع بصاحبها إلى جهنم خالدين فيها أبدا، كما لم يعرف الجبر إلى عقيدتهم منفذا، أيجرد المسلم من المسؤولية؟ فما قيمة الثواب والعقاب وبالتالي الرسل والمعجزات؟ كلا إن الإنسان مسؤول أمام الله بكل ما كسبت يدها والمسؤولية تحتم، والمرحلة الأولى من النصر قد تحققت، أن تتواصل حركة الجهاد لتحقيق الأمل، وليس أملهم مهديا منتظرا، وإنما هو واقع معاش، وإجهاز على الباطل حتى يندحر لتمتلىء الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا وقد أثبتوا ذلك عن جدارة حيث أحسنوا السيرة في اليمن بشهادة المناصر والمخالف.

ولم يخطر ببال واحد منهم غير هذا لأن حركتهم لم تكن حركة إقليمية ضيقة ترمي إلى السيطرة على بلاد اليمن، وإنما اختاروا اليمن لتكون منطلقا للمسيرة الكبرى لما تهيأ لهم فيها من الأسباب المادية والمعنوية.

كما أن هذه الحركة لم تكن قبلية ضيقة، وكيف تكون هكذا؟ وهم يعلمون أن الله يقول ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [٤٩ الحجرات ١٣]، وإن الرسول عليه السلام يقول «دعوها فإنها منتنة»، بل هي حركة مدمرة لكل العصبية وعلى رأسها العصبية الأموية ثم المروانية التي أتخذت عباد الله عبيدا وسامتهم سوء العذاب، وقتلت كل من تحدّثه نفسه بأن يقول لا (للخليفة) أو لأحد ولاته وقد علمنا من ذلك الكثير في ما مضى من الكتاب.

هكذا قالوا بصوت واحد إما تحقيق الإمامة العظمى التي توحد العالم الإسلامي من أقصاه إلى أدناه، وهم يتصورون أن كل من يسمع عن حركتهم وما أقامته من خير في اليمن لن يكون إلا أحد أنصارها لأن كل الأقاليم ذاقت من ويلات الأمويين الشيء الكثير وما تزال أموالها تغتصب صباح مساء، وأما الشهادة في سبيل الله.

ويصدر أمر القيادة مع كل هذه التعبئة النفسية بما يلي :-

★ البيان الإيماني الأول :

- * إسناد القيادة العليا للجيش لأبي حمزة المختار بن عوف .
- * المساعدان - بلج بن عقبة وأبرهة بن الصباح .
- * تكوين الجيش من المتطوعين عدده ألف ومائة .
- * التوجه نحو مكة المكرمة عن طريق الطائف .
- * إعلان الثورة يوم التاسع من ذي الحجة ١٢٩/٤٤٦ على جبل عرفات بمرأى ومسمع الحجاج الوافدين من أطراف العالم الإسلامي .
- * إنضمام أهل الدعوة العاملين بمكة المكرمة بقيادة أبي الحر .

★ البيان الإيماني الثاني :-

- * الإقامة بمكة عند صدور الناس .
- * إحترام قواعد الشريعة إذا فرض الطرف الآخر القتال .
- * توجيه بلج بن عقبة إلى بلاد الشام .

وهكذا أنطلق هؤلاء الألف أو يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا يقطعون صحارى الجزيرة من صنعاء إلى مكة المكرمة يقودهم أبو حمزة وهو يلهب حماسهم بما آتاه الله من فصاحة لا يعرف التعب إليهم سبيلا ، نعم إنه الجهاد لتطهير مكة - وقد عرف أبو حمزة مكة - مما أنتشر فيها من لهو وعبث ، ألم يصر موسم الحج نفسه على ما في مكة من قداسة موعدا للعشاق والمغنين؟ وكل الناس يعرف ما لمكة من قداسة في قلوب المؤمنين ، أليست هي التي تضم أول بيت وضع للناس ليعبد الله فيها بحق؟ أليست هي التي أختارها الله تعالى لينزل فيها خاتمة الرسالات على خاتم المرسلين؟ أليست؟ أليست؟

نعم إن الثورة على الباطل واجب مقدس وخاصة إذا كان الهدف دفع هذا الباطل عن بيت الله الحرام .

★ الحجاز ولاية مروانية :

ما يزال الأمويون يقطعون أطراف البلاد لعصبيتهم أو للمناصرين لهذه العصبية وفعلا ففي سنة ١٢٩ عين الخليفة مروان بن محمد أحد بني عمه واليا على كل الحجاز وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان بدلا من عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، فواصل فيها سياسة سالفه في عزل أهل الحجاز عن كل ما له صلة بالسياسة ، ولا فائدة في الدخول في التفاصيل هنا وقد عرفنا الكثير منها من قبل .

وفي هذه السنة تم تعيين هذا الوالي للإشراف على موسم الحج نيابة عن (أمير المؤمنين) فأحرم الرجل ومن معه وصعد إلى جبل عرفات آمنا مطمئنا، وما كان يخطر بباله أن يحدث ما حدث ، وقد فوجيء وهو هنالك بثورة عارمة تهز كيانه وكيان ولايته ، ماذا عساه أن يفعل؟ يضرب هؤلاء الضربة القاضية ويريح نفسه وسادته من هذا التمرد؟ إنه لو كان قادرا لفعل ما دام الحجاج أستحل من قبلة الكعبة الشريفة وصب عليها وابلا من الحجارة بالمنجنيق؟ إنه العجز التام فلا سبيل إلا لأمر واحد إن قبل الطرف المقابل ألا وهو الهدنة حتى يتم موسم الحج ، وفعلا إنطلقت المفاوضات بين الطرفين ، وقبل أن ننظر فيها ماذا عن أبي حمزة ومن معه؟

★ أبو حمزة على جبل عرفات :

ما تزال هذه الفئة القليلة تطوي الأرض طيا لتدرك الموسم في الوقت المطلوب ، وأنهم على موعد مع أصحابهم الأربعمائة بمكة وبالضبط على جبل عرفات ، ولا تتصور شوق كل من الجماعتين للآخرى ، وكادت الأقدار أن تنقص عنصر القيادة من أباضية مكة ، وقد علمنا أن مروان أمر بأسر أبي الحر علي بن الحصين وحمله إلى الشام وفعلا أسر في تلكم الأيام بالذات لكنه الشراء الذي تبنته الجماعة ما كان يمكن ليسكت ، نعم إنهم أربعة عشر تابعوا الحامية الحاملة لأبي الحر وخلصوه منها لينعم بمعايشة الأحداث التي طالما أنتظرها وخطط لها مع مركز القيادة ومع أبي حمزة نفسه وإمام الجميع عبد الله بن يحيى .

ويعمر جيش أبي حمزة بالطائف دون أن يعترض أهلها سبيله، وأنى لاهل الطائف أن يقفوا أمام هذا الجيش الذي مر بسرعة البرق ليحقق الغرض من مسيرته لا بالطائف ولم يكن يبتغيها، وإنما كان همه في مركز الولاية لا في أطرافها، وفي بيت الله الحرام أولاً ثم بعد ذلك فلتأت بقية البلدان بما فيها الطائف مبايعة للأمامة العظمى .

وفي صبيحة التاسع من محرم الحرام سنة ٤٤٦/١٢٩ يصل أبو حمزة الى المكان المنشود الذي طالما دعا فيه رب العالمين ليكتب النصر لدعوتهم دعوة أهل الإستقامة الصالحين، ولكنه لم يصل في هذه المرة منفرداً أو مع عدد قليل من أصحابه الحجاج وإنما وصل يقود جيش الايمان، الجيش الذي آلى علي نفسه تصحيح مسار العالم الاسلامي، وافلحت خطة السرعة والمفاجأة «لم يعلم الناس بعرفة إلا وقد طلعت أعلام عثمائم سود خرمية في رؤوس الرماح وهم سبعمئة»^(١) حسب رواية الأغاني .

إنها سبعمئة أو ألف عمامة تغطي وجه الشمس على مرأى ومسمع من الناس وعلى رأسهم عبد الواحد بن سليمان والي مكة والمسؤول الأول على الموسم من قبل (أمير المؤمنين) .

وبسرعة البرق ينطلق نحو هؤلاء أربعمئة من الحاضرين إنهم أصحاب أبي الحر علي بن الحصين الذي فك أسره قبل حين ثم رجعوا - أبو الحر ومخلصوه - حتى دخلوا مكة مستخفين فخرجوا إلى منى وإلى عرفات وكانوا ينتظرون قدوم أبي حمزة فعند الرواح فاجأهم أبو حمزة في نواصي الخيل قد طلعت فلما رآهم أبو الحر قال : إحرموا فاغتسلنا وأحرمنا ودخلنا في عسكر أبي حمزة^(٢) .

هكذا تم اللقاء وتضحّت نجاعة التخطيط السري المحكم فيما تظن أن تفعل هذه الفئة المؤمنة بحجاج بيت الله الحرام مع واليهم؟ العسف والقصف أم بث روح الرحمة والمودة .

نعم لقد فزع الناس وحقيق بهم أن يفزعوا، وقبل أن ينتظروا موقف الوالي دارت المحاورّة التالية «وقالوا لهم : ما لكم ؟ فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان والتبرؤ منهم»^(٣) فأطمئن الناس وأدركوا أنهم ليسوا الغرض المطلوب، وإنما هم هؤلاء الوافدين تقويض الدولة الحاكمة وعلى واليها أن يتحرك .

١ (الأغاني ٢٣/١٢١ .

٢ (ن . م ٢٣/١١٧ .

٣ (الشياخي - سير ١٠٠ .

٤ (الأغاني - سير ٢٣/١١٧ .

★ المفاوضات بين أبي حمزة وعبد الواحد والي بني مروان :-

* الجولة الأولى بعرفة

راسلهم عبد الواحد بن سليمان ، وهو يومئذ على المدينة ومكة والموسم ودعاهم إلى الهدنة ، فقالوا نحن بحجنا أضن ، وعليه أشح ، فصالحهم على أنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الأخير^(٥)

ذلك شأن الأباضية في كل مواقفهم لا يقاتلون إلا من يقاتلهم لأنهم لم ينطلقوا لسفك الدماء ، وكان في إمكانهم أن ينقضوا على عبد الواحد فيأسرونه على الأقل إن لم يقتلوه ولكن لم يكن همهم في ذلك وإنما كما صرحوا قبل حين يتمثل غرضهم في الإعلان ببطلان خلافة بني أمية لأنها خلافة جائرة ، لذلك فهي جديرة بأن تخالف وذلك لبعدها عن مسلك الإسلام الحق . لهذا حالما راسلهم والي لم يكن منهم إلا أن قبلوا الهدنة وهم في موقف قوة - وذلك هو الحلم - حتى ينفر الحجيج وتنتهي أيام التشريق وكانت الوقفة بعرفة فريدة في نوعها في هذا العام إذ ضم الجبل جناحان متقابلان - جناح الدولة وعلى رأسه عبد الواحد وهو يتصور أنه صاحب القوة والسلطان - و«الخلافة الشرعية» - وجناح أبي حمزة نيابة عن الإمام عبد الله بن يحيى طالب الحق يثبت للناس أن بني مروان مغتصبون ، وأنهم عن الصواب حائدون .

وكم كان حريا بهؤلاء الذين حضروا هذه الوقفة أن ينقلوا لنا خطبة أبي حمزة بعرفة وما أخاها إلا كمثيلاثها أنطلقت مدوية مشحونة بلاغة إيمانية وفصاحة صادقة لتزيد الأنصار ثباتا على ثبات على منهج أهل الاستقامة الذي يقول لا حكم إلا لله . ويفيض كل الطرفين من عرفات إلى منى ويبعث أبو حمزة مع أصحابه في مزدلفة يفتشون الأرض ويلتحفون السماء - وقد تعودوا على ذلك - ليلة عيد الاضحى مقتدين بسنة الرسول عليه السلام ، ويلتقطون الحصيات لرمي الجمرات وهم يسوقون الهدى شكرا لرب العالمين .

ويقف الجمع بالمشعر الحرام مهللا ومكبرا راجيا من الله أن ينصر الحق وأن يعلي رايته خفاقة ، إنطلاقا من بيت الله الحرام ، ووصولا إلى أطراف العالم الإسلامي ، وإلى الربوع التي لم يصلها الإسلام بعد ولم لا؟ ويستقر القرار بالجمعين بعد أن أدوا مناسك يوم النحر من رمي جمرة العقبة ، ومن تبليغ الهدى محله ، ومن حلق أو تقصير ومن طواف إفاضة ومن تحلل أصغر ثم أكبر .

* الجولة الثانية بمنى :-

«نزل أبو حمزة بقرين الثعالب بمنى . . . ونزل عبد الواحد منزل السلطان»^(٧) لم يكن الأمر عاديا لدى الوالي وكثير من أتباعه وهم أهل القدرة والسلطان، كيف يسمحون لأنفسهم أن يقف أبو حمزة معهم جنبا إلى جنب وهو يعلن الثورة جهارا على مملكتهم؟ وما قيمة الالتزام بالهدنة، ألم يهادن من قبلهم فغدر وغلب، لم لا يغدرون ويغلبون ويمسحون العار؟ كيف يوتون في عقر دارهم ويقهرون مثل هذا القهر ويقبلون مثل هذه الهدنة؟ هكذا ظل بعض المغفلين يجرشون عبد الواحد «إنك قد أخطأت فيهم ولو حملت عليهم ما كانوا إلا أكلة رأس»^(٨)

ولم يكتف هؤلاء بالقول بل حاولوا تكسير الهدنة بالفعل لولا رصانة أبي حمزة ودهاء عبد الواحد «وكانت هلبية إذ ذاك حضرت الموسم وكانت من خيار المسلمين وفاضلاتهن وهي أم سعيدة، فعالجت لهم (للجيش) طعاما فحمله أبو واقد إليهم وأبنته وكانا فاضلين فأخذهما الحرس، فأرسل أبو حمزة إليهم إن النقض وقع من قبلكم، إما أوفوا بعهدكم وإما نناقضكم فأرسلهما (أبو واقد وأبنته) وتم العهد»^(٩).

أرأيت كيف أسر الحرس؟ بريئين؟ إنهم أرادوا بذلك تحقيق غرة الدعاة إلى الشغب والذين لم يرضوا بموقف الهوان، لكن الوالي مدرك للواقع فما كان منه إلا أن أمر بسرعة بتسريح الأسيرين، ولم يكن من أبي حمزة إلا أن لم يرد بالفعل من أول لحظة. ولم يكن أصحاب أبي حمزة في هذه المرة غفلة وهم يعلمون شيمة الغدر في الأمويين وأنصارهم، وقد أفقد هذا الغدر إمامهم أبا بلال وأصحابه وهم بين راعع وساجد، لذلك كان القائد، بلج بن عقبة يأتي لرمي الجمار في الخيل والسلاح، فقال أبو حمزة رحمك الله لو رميته متنكرا، فقال له: لا آمن غدرهم ونقض عهدهم^(١٠)

وفي هذا المحيط الذي يغلي فيه الطرفان غليانا يجعله على وشك الانفجار بين لحظة وأخرى أرسل عبد الواحد مرة أخرى وفدا من أحفاد الخلفاء الراشدين «فجوده جالسا وعليه إزار قطري (قطن غليظ) قد ربط الحورة في قفاه فلما دنوا منه قالوا له: بعثنا الأمير إليك برسالة، وهذا ربيعة يخبركها، فلما ذكر ربيعة نقض العهود قال بلج وأبرهة - وكانا قائدتين له - الساعة الساعة، فأقبل عليهما أبو حمزة: معاذ الله أن نقض العهد أو نخيس به، والله لا أفعل ولو قطعت رقبتي هذه، ولكن تنقضى هذه الهدنة بيننا وبينكم فلما أبى عليهم خرجوا فأبلغوا عبد الواحد»^(١١).

(٦) ن. م. - ١١٧/٢٣ . ٨ (الشماخي - سير ١٠٠ . ١٠) الاغاني ١١٧/٢٣ - ١١٨ .
(٧) ن. م. - ١١٧/٢٣ . ٩ (ن. م. - ١٠٠ .

وفي هذه الرسالة الشفوية وقعت الإشارة إلى نقض العهود وكأن الوفد بين تخوفه من أن ينقض أبو حمزة وجماعته عهد الهدنة، وهنا ثارت حية القائدين ليبينا للوفد الأموي أنهم لا ينقضون العهد غدرا، وإنما تعودوا أن يسلكوا مسلك الإعلان، وألا يقدموا على عدو إلا بعد التأخير، ولا ينطلقون في المعركة إلا إذا بدأهم الطرف الآخر كما سنرى بعد حين في معركة قديد. ويؤكد القائد صراحة على هذا المعنى ويبين أنه إن تقطع رقبته أولى من أن ينقض عهدها، لأنه يعلم أن ناقض العهد مرتكب كبيرة وإن ختم له بذلك كان ماله الخلود في جهنم، بينما من تقطع رقبته دون المحافظة على العهد يموت شهيدا وإلى جنة النعيم خالدا فيها.

وتنتهي هذه الجولة الثانية من المفاوضات بأن يرجع الوفد إلى عبد الواحد الذي «نفر في النفر الأول، وخلى مكة لأبي حمزة فدخلها بغير قتال»^(١١).

★ أبو حمزة في المسجد الحرام في مكة المكرمة :-

لم يكن أبو حمزة يتصور أنه سيحقق هذا الظفر بمثل هذا اليسر إذ أنهزم عبد الواحد بالرعب ولم يكن منه إلا أن طلب الأمان ليترك في سبيل حاله. ولم يكن من القائد أبو حمزة ليخرج عن سنة إمامه لقد خلى الوالي لحاله وباليته رد الاحسان بالاحسان وانما راح يعد العدد والعدة لينتقم لهذا الذي أصابه من الخسران.

وما إن غادر الوالي ومن معه الساحة وأنتهت أيام التشريق حتى أقبل أبو حمزة وسط الألف وخمسائة من أنصاره ليدخلوا مكة من أبوابها الواسعة وهم سادة الموقف بها وقد أسلمت لهم القيادة دون أن تسيل قطرة دم، ورغبتهم ألا تكون هذه المدينة المباركة خاضعة لدمشق - وليس العكس - وما ذلك ببعيد، وما ذلك على الله بعزیز، ولتعد المياه إلى مجاريها كما كانت زمن الرسول عليه السلام، وزمن الخلافة الراشدة، الحجاز بحرمية هو قطب الرحي ومركز دائرتها.

وفي جنبات البلد الحرام يتدفق هؤلاء على أبواب بيت الله الحرام طائفين خاضعين راكعين ساجدين مكبرين ومهللين، نعم، إنهم لم يروعوا أحدا وإنما كانت أعينهم تفيض من الدمع وقلوبهم خاشعة لرب العالمين. وأطل أهل مكة من الشرف ومن بعيد في بداية المطاف خشية أن يصابوا بسوء، ولما رأوا الأمر على عكس ما كانوا يتصورون خرجوا مندهشين أمام هذا السلوك الذي لم يرى التاريخ له مثيلا إلا عند دخول الرسول عليه السلام عند فتح مكة -

ولله ولرسوله المثل الأعلى - وتجمعوا شيئا فشيئا في جنبات المسجد الحرام وعند أبوابه وفي محيطه يتشوفون إلى تطور الأحداث لحظة بلحظة وما كانت القيادة الحكيمة لتطيل على الناس الانتظار وما هي إلا لحظات حتى صعد أبو حمزة المنبر ودوت جنبات الحرم المقدس بنبرات صوت رجل ألقى له البلاغة عنانها، وجائته طائفة منساقة يخطب في الناس مبينا عوامل الثورة وسلوك الثائرين في «أنه الظلم الذي دفع إلى السعى إلى إقامة العدل»، هذا هو محور هذا البيان الأول لأبي حمزة قائد هذه الثورة المباركة التي مكنته من هذا المنبر الذي لم تعرف البشرية ولن تعرف خيرا منه لأنه نور الله وأي نور مهما كان يستطيع أن يعادل نور رب العالمين «نور السموات والأرض».

وينهي أبو حمزة خطبته بالبكاء على شهداء الحركة الأباضية في اليمن والترحم عليهم. وليعذرنا القارئ في هذا التلخيص المختصر لهذا البيان لأننا عازمون إن شاء الله على تجميع خطب أبي حمزة وتحليلها تحليلًا تفصيليًا مع إبراز قيمتها الحضارية والإطالة هنا توقعنا في تكرار نحن في غنى عنه.

ويشيع أبو حمزة الأمان في جنبات بلاد الله الحرام ولكن أنى لأهل مكة أن يقبلوا الخضوع لفئة ما يزالون في قرارة أنفسهم يعتبرونها خارجية مغتصبة وإن سمعوا من قائدها ما سمعوه من البيان الذي ليس بعده بيان.

وانما ظلوا ينتظرون ويتربصون وأنتشر الخبر في أطراف البلاد وأنشدت الأشعار معرضة بعبد الواحد سليل بني مروان وإلى الحجاز.

زار الحجيج عصابة قد خالفوا دين الإله ففر عبد الواحد
ترك الحلائل والإمارة هاربا ومضى يخطط كالبعير الشارد
لو كان والده تنصل عرقه لصفته خلائقه بعرق الوالد^(١)

ومن هذه الأبيات ندرك جحود الجاحدين، فالشاعر رغم ما بلغه من ساحة أبي حمزة ومن الحاحه وأصحابه في أنهم لا يريدون بالناس إلا خيرا، يعتبر أبا حمزة ومن معه عصابة وباليته عصابة متمردة على الحاكم فحسب وإنما هي عصابة خارجة خالفت دين الإله، وذلك أثر الحرب النفسية والدعاية الإعلامية الأموية التي غرست في الناس بكل وسيلة أن خلافتهم شرعية وأن المخالف لها مخالف للإسلام يجب أن يباد في أول وهلة.

* أبو حمزة في الطائف :-

علمنا أن أبا حمزة مر بالطائف في طريقه إلى مكة دون أن يعترض سبيله أحد وكان مثل هذا الدور أن يجعله يعتبر أنها صارت تابعة للإمامة لذلك حالما استقر به الأمر في مكة المكرمة وجه مجموعة من أتباعه لنشر لواء السلام بهذه المدينة التي خرجت للناس أكبر العباقر في القصف والعسف وأستقبلت الرسول عليه السلام في رحلته الأولى إليها أسوء إستقبال .

إن هؤلاء في هذه المرة سلكوا مسلكا غريبا فترك الرجال الديار وقدموا النساء لأستقبال الشراة ، إنها لشجاعة نادرة ، وماذا يفعل جنود أبي حمزة بالنساء ؟ إنهم في حاجة إلى صناديد الرجال وبذلك لم يكن إلا أن أعطوا الأمان للنسوة فرجع الرجال إليها في الحفظ والأمان . وإذا كان والي الحجاز بعده وعدته قد لاذ بالفرار فأنى للطائف أن تقاوم فلاستسلام عار ولكنه أولى من الهزيمة ، لأن الأستسلام معه الحياة بينما الهزيمة معها الموت إن لم يكن للكل فللقليل ، ولماذا الخطر وقديما قالوا الجلوس على الربوة أسلم ، وفعلا وقف رجال الطائف على الربوة فتقدم نسائهم لنيل الأمانات ، وكان ما سعين إليه ، وجاءت الطائف هي الأخرى مستسلمة في الظاهر ولكن الباطن غير ذلك .

وتأمل في القرشيين المتجمعين في المدينة لمقاومة أبي حمزة كيف يعيرون أهل الطائف أسوأ أنواع التعيير ، ويعتبرونهم خونة عجزة . فقال قائلهم : لو شاء أهل الطائف لكفونا هذه المقاومة ولكنهم داهنوا ، أما والله لئن ظفرنا لنسبين أهل الطائف من يشتري مني سبي أهل الطائف^(١٣) . ورغم علم أبي حمزة وجماعته بما نال الأباضية من ظلم الحجاج وبني عشيرته الثقيفين ما كانوا ليثأروا في بني ثقيف عندما ظفروا بهم وكيف يحملون الأحفاد تبعات الأجداد ، وهم على يقين أنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

وإلى هذا الحد ينتهي تطبيق البيان الأباضي الأول الذي صدر من القيادة العليا باليمن بإمامة طالب الحق عبد الله بن يحيى وبقيت بنود البيان الثاني .

٤ (أبو حمزة في المدينة المنورة :-

يقول البيان الثاني بتوجيه بلج بن عقبة إلى الشام .

لما تم إستسلام مكة وفرار الوالي وخضوع الطائف أحب أبو حمزة أن يتم الأمر سلما في الحرمين الشريفين دون أن تراق الدماء ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن .

(١٣) مهدي طالب هاشم - الحركة الاباضية نقلا عن البلاذري وخليفة بن خياط .

وكما أستغل إبراهيم بن جبلة عامل حضرموت تسامح الأباضية وأنضم إلى والي صنعاء استعداداً للنزال استغل عبد الواحد والي المنسحب من مكة الموقف في المدينة وأخذ أجراءين خطيرين من شأنهما أن يؤلبا المدينة كلها لتخرج صفاً واحداً لمقاتلة هذا الخارجي المخالف للدين على حد تعبير الشاعر آنف الذكر.

● الإجراء الأول : إغرائي مالي :-

قال «ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة، فدعا بالديوان وضرب على الناس البعث، وزادهم في العطاء عشرة عشرة.»^(١٤)

نعم إنه المال يعمي ويصم وما جمعه الأمويون في خزائهم من الحلال والحرام لا يصلح إلا لأشراء الضمائر، وقد رأينا أن معاوية أراد أن يشتري ضمير ابن عمر ليبيع يزيد فكان من الرافضين ولم يبيع إلا على حد السيف.

ويا فوز أهل المدينة بهذه الزيادة غير المنتظرة، ألا يستحق والي النصر على الخوارج البغاة - نعم إنه مثل دمشق مركز الخلافة (الشرعية-)، ونسوا أن هذه (الخلافة) حرمتهم من حقهم السياسي وحولت العاصمة من مدينتهم إلى دمشق قسبة بلاد الشام. لكن مهما يكن من أمر يلتقون مع هؤلاء في النسب والفكر، بينهم هؤلاء الوافدون أبو حمزة وإتباعه، لا يعترفون لقريش بالخلافة ويدعون إلى المساواة وبند الفن وكل ما له صلة بالفن من عبث ومجون.

لذلك لبى أهل المدينة نداء والي من أول لحظة باعتقاد راسخ أن جيش أبي حمزة لقمة سائغة دفعت قائلها بأن ينادي «من يشتري مني سبي أهل الطائف» باعتبار أن ذلك من تحصيل الحاصل ومما لا يمكن أن يدخلهم فيه أدنى ريب.

● الإجراء الثاني : سياسي ماهر :-

«... إن عبد الواحد أستعمل عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان على الناس فخرجوا...»^(١٥)

كنا ننتظر أن يخرج والي بنفسه ليمسح العار الذي أصابه في مكة وعذره أنه فوجيء، لكن لا عذر له الآن وهو على غاية الاستعداد، لكن خشى صعوبة اللقاء كما فعل القاسم الثقفي في صنعاء، فإن أنتصر القائد كان النصر للجميع، وإن غلب لهم الذي أخطأ ويلوذ والي بالفرار.

ثم بعد أن تهيأ جيش قوامه ثمانية آلاف أمرهم عبد الواحد بالتوجه الى مكة لاسترجاعها لأنه لا يرغب في أن يكون القتال بمرأى ومسمع منه ويريد أن تكون بيد جيشه المبادرة للهجوم وهو يعلم أن جيش أبي حمزة لا يتجاوز الالف وخمسمائة فالنصر ثابت لا محالة وليعد الأمر الى نصابه .

● استعداد أبي حمزة :-

نعلم أن الخطة كانت تدعو إلى التوجه إلى الشام بقيادة بلج بن عقبة دون التعرّيج على المدينة وهذا ما ذكره بلج بن عقبة بصفة صريحة عندما أرسله أبو حمزة ليذكر أهل المدينة وقال لهم «خلوا سبيلنا لنسير إلى من ظلمكم وجار في الحكم عليكم، ولا تجعلوا حدنا بكم، فإننا لا نريد قتالكم»^(١٦) .

لكن عبد الواحد أبى، ألا أن يمسح العار وجالما بلغ الخبر أبا حمزة سارع بالخروج من مكة حتى لا يغدروا به فنضموا إلى أهل المدينة، وأستخلف عليه قائده أبرهة بن شرحبيل بن الصباح الحميري، وسار لملاقاة الجيش القادم بقيادة أحد أحفاد عثمان بن عفان .

وتقدم أبو حمزة بجيشه نحو المدينة وقدم على طائفة منه بلج بن عقبة الأزدي وعلى الطائفة الأخرى أبا بكر محمد بن عبد الله بن عمر القرشي . وعاد هذا الخميس إلى مسيرة بما فيه من قوادم وخلائف تنقصى الأخبار وهو يود أن يخلى أهل المدينة سبيله حتى يولى وجهه شطر بلاد الشام إلى أن بلغ قديد وهناك على مقربة من المدينة تلاقي الجمعان وكان ما كان .

* معركة قديد :-

قديد موقع بين المدينة ومكة أدركه الجيش الأموي ليلاً، وأستحوذ على حياض الماء حتى يمنع منه الطرف المقابل، وباتت هذه الألوف المؤلفة في نغم وسهر لأنهم «خرجوا في المصبغات والثياب الناعمة واللهو ولا يظنون أن الشراة شوكة، ولا يشكون أنهم في أيديهم»^(١٧) ، وقد علمنا من قبل سخريتهم من أهل الطائف، إنهم قادرون على العزف والقصف، إنها ليلة ليست كالليالي إذ بعد حين يقع أبو حمزة ومن معه في أيديهم، أنهم هم أصل العرب وهامة المجد، فكيف بناس جاءوا من قبائل شتى ضرب الفقر جيوبهم يقدرّون على المنعمين من قریش ومن معها؟ إن هذا لن يكون، تلك هي أحلامهم وتصوراتهم بل إن أبا حمزة حالماً يرى قوتهم الضاربة ليس له إلا أن يولى هارباً وأصحابه غرور وصلف ومرح وجبور .

(١٦) ن . م . - ١٢٣/٢٣ .

(١٧) ن . م . - ١٢١/٢٣ .

بينما قضى أصحاب أبي حمزة ليلتهم في مسيرة خاشعة يحيط بجنابتها الحلال لا تراههم إذا تفرقوا قليلاً إلا بين راعع وساجد خاشعين لرب العالمين راجين من فضله النصر المبين، يتقدمهم قائدهم وهو قدوتهم ورائدهم يمثلون لأوامره لأنهم لم يروا منه مذ خرجوا معه من اليمن إلا الراعي الأمين، ينزل منازلهم ويأكل ما يأكلون، ويتحمل ما يتحملونه يركب حيناً ويمشي أحياناً عينه ساهرة لا تكاد تنام، ترعى من جعل الله تحت مسؤوليته من أنام، لبسوا جميعاً الخشن وأفترشوا على جوب الصحارى حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من حياتهم، بأنهم كما وصفهم قائدهم في إحدى خطبه «موصول كلالهم بكلالهم».

أدرك من هذه شيمتهم قديداً بعد شهر من وصولهم إلى عرفة، وفي هذه المرة لم يكن أهل المكان في غفلة، وإنما كانوا يترصدون ويتنمرون، ويهواجس النصر يغنون، فلم يكن من أبي حمزة إلا أن أرسل إليهم من يفهمهم أنهم لم يكونوا إليهم سائرين، وإنما غيرهم يتغنون. وما أن أنبلج صبح ليلة الوصول إلى قديد حتى وقف أبو حمزة خطيباً يلهب أصحابه حماساً ويذكرهم بتقوى الله «إنكم ملاقوا قومكم غداً، وأميرهم في ما بلغني ابن عثمان أول من خالف سيرة الخلفاء وبدل سنة رسول الله ﷺ، وقد وضع الصبح لذي عينين فأكثروا ذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن، ووطنوا أنفسكم على الصبر»^(١٨).

وندرك من هذا البيان أن عيون أبي حمزة غير غافلة عن تبليغ أخبار المدينة خبراً بعد خبر، وما هو يعلم أن القائد الأموي أموي بحق بل هو حفيد عثمان بن عفان، وأدرك ما وراء هذا الاختبار من خطر، لذلك نبه أصحابه ليرد المثل بالمثل والقضية حساسة آنذاك، وإنما صرنا نقول الآن تلك دماء طهر الله منها سيوفنا فليطهر منها ألسنتنا، وإنما هو التاريخ يجب أن يروى بأمانة. ثم يبين لجنوده أن خير الزاد التقوى، وما أحسن أن يكون زاد المجاهد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، أو ليس هؤلاء قراء أبناء القراء؟ ثم كلمة الختام تؤكد أن المطلوب مع ذلك كله عدم الغرور بالنفس وتوطينها على الصبر لأن القتال قتال، والنفس تكره الموت وإن كانت ترغب في الشهادة.

* بلج بن عقبة عند أهل المدينة :-

وحالما تراءى الجمعان لم يكن أبو حمزة ليغفل عن مسلك سلفه في ساحات القتال وكان في إمكانه أن ينقض على لابسى الوشي والخز وهو بهم عليم، إذ علمنا أنه كان يتردد على المدينة من زمان، فأرسل قائده المخلص بلج بن عقبة في ثلاثين من خيرة أصحابه «فذكرهم الله

تعالى، وسألهم أن يكفوا عنهم وقال لهم: خلوا لنا سبيلنا لنسير إلى من ظلمكم وجار في الحكم عليكم، ولا تجعلوا حدنا بكم، فإننا لا نريد قتالكم»^(١٩).

إنها كلمات موزونة بميزان الإسلام، يتقدم بها بلج في مثل هذا الموقف المثير والمعركة وشيكة، جديرة بأن تكتب بلاء الذهب لأنها دلت على رصانة ورجاحة عقل لا على تهور وغرور، منطلقها تذكيرهم بعظمة الله، فلا فائدة في إراقة الدماء، ثم محورها تعبير صريح عن الغرض من الحملة وتمثل في السعي إلى دفع الظلم عن أهل المدينة بالذات، ونحن نعلم أنهم شكوا للخليفة هشام بمرأى ومسمع من أبي حمزة ما أصابهم من بلاء فزادهم بلاء على بلاء، ثم تصريح واضح في الختام أن جيش الشراة لا يرغب في قتال أهل المدينة ويلح عليهم بألا يحولوا بينهم وبين هدفهم.

ولكن أتى هؤلاء أن يدركوا مثل هذه المعاني وعلى رأسهم من يحمل ظغينة دفينية لكل شار معتبر أياه خارجا عن الملة، وإن لم يكن قبول الاقتراح فرد الحسنى بمثلها مع التعبير عن الرغبة في المواجهة.

وتأمل الجواب: «فستهم أهل المدينة وقالوا يا أعداء الله أنحن نخليكم وندعكم تفسدون في الأرض»^(٢٠).

نعم يبقى الشراة أعداء الله في نظر مثل هؤلاء وإن ملأوا الدنيا خيرا كما شهد الناس في ما بعد بحسن سيرة عبد الله بن يحيى في أهل اليمن، ولا يمكن أن يصدر من هؤلاء حسب أهل المدينة إلا نشر العبارة وحق له أن يرد بالمثل: يا أعداء الله، أنحن نفسد في الأرض، إنا خرجنا لنكف أهل الفساد، ونقاتل من قاتلنا وأستأثر بالفىء، فأنظروا لأنفسكم وأخلعوا من لم يجعل الله له طاعة، فإنه لا طاعة لمن عصى الله وأدخلوا في السلم وعاونوا أهل الحق»^(٢١) وهكذا حدد بلج سبب الشراء لأنه ظلم بني أمية، وبين أساسه وهو ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، ثم دعاهم بصفة صريحة إلى خلع بيع مروان بن محمد لأنه رمز عصيان الله، والأقبال على معاونة الحق.

وعندما لم يستطع عبد العزيز القائد الأموي رد الحجة بالحجة رجع إلى الماضي ينبشه وغرضه من ذلك الإثارة وقد أفلح في اختيار القائد الذي يحقق الغرض المطلوب، وكان جواب بلج أنه في القضية مقلد تابع. وهنا يعلنها عبد العزيز مدوية «أرجع إلى أصحابك فليس بيننا وبينهم إلا السيف»^(٢٢) وما كان يتصور أن الدائرة ستدور عليه وعلى من معه.

(٢١) ن . م - ١٢٤/٢٣ .

(٢٢) ن . م - ١٢٤/٢٣ .

(١٩) ن . م - ١٢٣/٢٣ .

(٢٠) ن . م - ١٢٣/٢٣ .

وهنا لم يكن من بلج إلا أن يرجع بأصحابه إلى أبي حمزة ليعلمه بما أسفرت عنه المحادثات من فشل، وما رآه في عبد العزيز وأصحابه من صلف واستعلاء. ورغم الاستفزاز وتصريح القائد الأموي أنه لم يبق إلا السيف لم يخالف أبو حمزة مسلك الأباضية الشراة «لا نقاتل إلا من قاتلنا» وقال لأصحابه «كفوا عنهم ولا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم بالقتال»^(٢٣)، ولم يكن من أصحابه إلا أن أمثلوا لأمر القيادة رغم رغبتهم الشديدة في الهجوم.

وبهذا الالتزام بالمبدأ حتى في أعسر الأحوال ضرب الشراة أروع مثال إسلامي، وأثبتوا للناس أنهم ليسوا بغاة يريدون في الأرض الفساد وإنما هم من الفساد فروا، وعلى البغي ثاروا.

وهكذا نلاحظ حرص أبي حمزة وأصحابه على تطهير أيديهم من دماء أهل المدينة، لكن أبي هؤلاء إلا المواجهة فكان ما ليس منه بد، ولم يكن هؤلاء ليصبروا طويلا لأنهم عازمون على الحرب وهم على يقين من النصر فليبدأوا المعركة وليستعجلوا هذا النصر المؤكد حتى يريحوا البلاد من هذه الشرذمة من العباد الذين عاثوا في الأرض فسادا على حد زعمهم.

وينطلق السهم الأول من جيش أهل المدينة مدويا نحو صفوف جيش أبي حمزة وباليته أخطأ المرمى ولكنه أصاب أحد الشراة فجرحه وهنا جاء أمر القيادة للأبطال الشراة «شأنكم الآن فقد حل قتالهم»^(٢٤).

وفي أقل من طرفة عين تحولت قديد من محيط هادئ طالما طالب فيها أبو حمزة بابقاء السلام إلى ساحة من ساحات القتال الشرسة التي يتحول القتل فيها حلالا بعد أن كان حراما، وكل فئة تتصور أنها على حق وتعتقد أن الأخرى باغية.

وللقارىء أن يميز بنفسه بعدما عايش من مواقف وسمع من نصوص ينقلها أبو الفرج وغيره وهم ليسوا من الأباضية من كان على حق ومن هو على باطل، وما أظنه يتردد في الأدلاء بشهادة الحق لأهل الحق: إنهم بلا شك الشراة. ولا أرى فائدة كبيرة في وصف المعركة إذ تتفق المصادر على أن المقاتلين ثبتوا لبعضهم البعض في البداية، ثم ما كان من الفئة الكثيرة إلا أن تندحر أمام الفئة القليلة بعد أن حاولت الكر ثلاثاً على التوالي وفي كل مرة تتراجع إلى أن ولت القهقري في المرة الثالثة وتحول الكر إلى فرار متواصل، وما هي إلا لحظات حتى بدأ النصر جلياً «وقاتلهم أبو حمزة فهزمهم هزيمة لم تبق منهم باقية»^(٢٥).

وقبل أن تنتهي المعركة أستاذن أبو الحر علي بن الحصين أبا حمزة - وهو بغدر هؤلاء الناس خير - بأن يتبع المدبر ويجهز على الجرحى لأنه على يقين أنهم لن يسكتوا على هذه الهزيمة

وأنهم بعد قليل بأهل الشام مستنصرون . ولكن ما كان لأبي حمزة أن يخالف سيرة السلف لأن مبدأهم إن دم مثل هؤلاء الفرار حرام بعد أن كان حلالا عندما كانوا في حالة الهجوم .

ولم يفكر واحد من الشراة طبعاً في السبي والغنيمة لأنهم يعتقدون أن ذلك حرام وهذا العمل يصدق النظرية والقول ، ويجعل معارك الأباضية في القمة من حيث الانضباط بأحكام الشريعة في قتال المخالفين من المسلمين .

ولكن في هذه المرة أبقى أبو الحر علي بن الحصين إلا قتل بعض الأسرى من قريش بعد أن أراد أبو حمزة إطلاقهم ولا شك أنه أقتنع برأي رأس الدعوة في مكة الذي قال في حاجته «إن لأهل كل زمان سيرة ، وإن هؤلاء لم يؤسروا وهم هراب ، وإنما أسروا وهم يقاتلون ، ولو قتلوا في ذلك الوقت لم يحرم قتلهم ، وكذلك الآن قتلهم حلال»^(٢٦) .

ومن هذا الموقف أراد أبو حمزة مع أبي الحر أن يحمل القرشيين مسؤولية الحرب لأنهما لم يقتلا واحداً من أسرى الأنصار الذين يبدو أنهم كانوا تبعاً للقرشيين في المعركة .

بقى أن نقيم حقيقة هذه المعركة قبل أن ندخل المدينة مع أبي حمزة وأصحابه هؤلاء الذين دخلوا دخول الظافرين ، تبين أننا أمام صنفين من الناس ، صنف قتله دار الغرور جاء لينتصر للباطل وهو يرفل في نعيم وبذخ ما كان يتصور أن لهذه القليلة شوكة ، لكن خوحيء بشباب مكتهلين في شبابهم ، حتى أن المصادر تروى عن ذلكم الرجل الذي جلس يبيع سبي أهل الطائف ، إنه كان في مقدمة الفارين عندما رأى ما رأى من الزحف المقدس من هؤلاء الشراة الذين باعوا أنفسهم من أجل تبصير القابضين على زمام الحكم في دمشق يأخذون البيعة من الناس في أطراف البلاد أحبوا أم كرهوا ويورثون الزمام لأبنائهم صاغراً عن كابر كان الأمة عقيمة عن إنتاج صالحين يتولون الأمر .

أتعلمون قصة هذا الفتى الذي لم يعرف إلا التمرغ في النعيم والجلوس إلى الغواني بين العازف والكؤوس ؟ إنه كان إمام المنهزمين إن صح أن يكون لمثل هؤلاء إمام ، وظل لا يلوي على شيء وهو يتخيل أن الجيش كله يتابعه ، حتى أدرك منزله وقلبه يكاد ينفطر من هول ما أصابه من الفزع ، وكيف لا يفزع وقد رأى رؤوس خلانه تتطاير وكاد رأسه أن يطير مع هذه الرؤوس ، وهناك ظل يردد بما بقي له من صوت مخاطباً جاريته «غاق غاق» فلم تصهم منه شيئاً ، وظلت تتساءل عن معنى «غاق غاق» لكن أنى لهذا أن يجيب ، أنجس الكلام في حلقة وأنا ب عنه الإشارة فأوماً بيده نحو الباب ففهمت بالقوة أنه يريد إغلاق الباب فأغلقت الباب .

تلك هي حال بائع سبي الطائف، ولو أن الأباضية يسلكون مسلك سادته في الحرب لكان من جملة السبايا، ولكن الشراة أسمى من ذلك وأرفع، وإنما سجل على جبينه خزيًا ظل يتابعه طول حياته إذ فقد عرف من ذلك اليوم أسمه عند أهل المدينة وصار يعرف «بغاق غاق».

أنظر الى الفزع كيف بلغ حدة، إذ لم يطمئن حتى في بيته إلا بعد إغلاق الباب، وبين ساحة الحرب أميال لأنه تصور أن الشراة سفاكوا دماء وأنهم سيتبعونه لا محالة حتى في عقر داره، لكن لم يكن هؤلاء من هذه الشاكلة من الناس، وإنما حالما لاحظوا فرار الفرار وبشائر النصر أمر أبو حمزة بإيقاف القتال لأن الهدف من المعركة تحقق.

أما الصنف الثاني فقد أدرك ألا قيمة للعدد والعدة أمام قوة العقيدة، ألم ينطلق من اليمن من أجل غرض سام ألا وهو إحياء الإمامة العظمى بعد أن أندرس رسمها تحت سنابك خيول الأمويين؟ نعم إنه أشفق بأهل المدينة من شفقتهم بأنفسهم لما لهذه المدينة من حرمة وقداسة في قلبه، أليست هي مدينة رسول الله التي أرتفعت منها راية الإسلام؟ وظل يلح في التعبير عن هذا الأسفاق ويناشد هؤلاء الناس بأن يخلوا سبيله إن لم يؤازروه ومن واجبه أن يفعلوا لأنهم أحفاد الأنصار والمهاجرين، ولكن لا حياة لمن تنادى، ولم يكن من قائلهم ألا إن دعا إلى السيف.

هذا الصنف أقبل على المعركة وكل واحد من أفرادهِ يعتقد أن الفرار من الزحف معناه الخلود في جهنم، فلا يمكن أن يفكر إلا في الكر والهجوم، إنه لإيمان بالقضية، ولهذا كان الواحد منهم بألف وفي مقدمتهم أبو حمزة وبلج وهما ما هما في الثبات في تسديد الضربات، والقدرة على القيادة وذلك لما بينهما وبين من معهما من الأبطال من المودة والإخاء، أليسوا جميعا شراة؟ وما هم يفعلون ما كانوا يعتقدون ويقولون.

وقد كفانا مؤونة وصف هؤلاء البواسل عمرو بن الحصين الأباضي الكوفي مولى بني تميم في القصيدة التي أوردها أبو الفرج في الاغانى ١٢٨/٢٣-١٣٠.

يمرى سوابق دمعك المتسالك
 عبري تسر بكل نجم دائب
 لم أقض من تبع الشراة مآربي
 عبل الشوى أشر إن ضمير الخالب
 ماء الحسيك مع الحلال اللاتب
 بورا جبرية ومعائب
 لف القداح يد المفيض الضارب
 كأس المنون تقول هل من شارب؟
 سمر ومرهفة النصول قواضب
 نجلاء بين راهب وترائب
 ظبنا سنان كالشهاب الثاقب
 حفص لقا تحت العجاج العاصب
 نفسي المنون لدى أكف أقارب
 فخذلتهم ولبس فعل الصاحب
 نارا تسعرها أكف حواطب
 أو ساجد متضرع أو ناحب
 فيجودها مري المري الخالب
 للصدع ذي النيل الجليل مدائب
 خصل المكارم أتقياء أطايب
 حد الظبابة بأنف وحواجب
 فرمى بهم لقم الطريق اللاحب
 أسد على لحق البطون سلاهب
 تنفي عداها جانبا عن جانب
 لله أكرم فتية وأشايب
 يحكين واردة الأيام القارب
 إلا تركنهم كأمس الذاهب
 فلق وأيد علقت بمناكب
 تخبرك عن وقعاتها بعجائب

ما بال همك ليس عنك بعازب
 وتبيت تكتلي النجوم بمقلة
 حذر المنية أن تجيء بداهة
 فأقود فيهم للعدا شنج النسا
 متخذدا كالسيف أخلص لونه
 أرمي به من جمع قومي معشرا
 في فتية صبر ألفهم به
 فيذود عزوهم وفيما بيننا
 فيظل يسقيهم ويشرب من قنا
 بينا كذلك نحن جارت طعنة
 خرقاء منهرة مري تامورها
 أهوى لها شق الشمال كأني
 يا رب أوجبها ولا تتعلقن
 كم من أولى مقعة صحبتهم شروا
 متأوهين كأن في أجوافهم
 تلقاهم فتراهم من راع
 يتلوا فوارع تتمرى عبراته
 سير لحائفة الأمور أطفة
 ومبرئين من المعائب أحرزوا
 عروا صوارم للجلاد وباشروا
 ناطوا أمورهم بأمر أخ لهم
 متسرلى حلق الحديد كأنهم
 قيدت من أعلى حضرموت فلم تزل
 تحمى اعتتها وتحوى نهبا
 حتى وردن حياض مكة قطنا
 ما أن أتين على أخي حبرية
 في كل معترك لها من هامهم
 سائل بيوم قديد عن وقعاتهم

وبمثل هذه المواجهة بين هذين الصنفين من الناس لم تستمر المعركة إلا لحظات تطايرت خلال الرؤوس - وقد رغب أهل المدينة في ذلك - وكان في مقدمتها رأس القائد الذي أحب حد السيف، بينما لم يكن من حضرة الوالي حين بلغه الخبر إلا أن ولي وجهه شطر دمشق لاثذا بالفرار وقد خطط لذلك من قبل.

وهكذا أحب هؤلاء أن يعم الأسى في المدينة إذ بلغ عدد القتلى سبعمائة على أقل تقدير بينما لم يخسر الشراة إلا القليل وأنطلق النواح - مع العلم ان النياحة ملعون صاحبها - في الأرجاء يردد :-

ما	للزمان	وماليه	أفنت	قديد	رجاليه
فلأبكين	سريرة	ولا	بكين	علايه	
ولأبكين	إذ	خلو	مع	الكلاب	العاويه
ولأثنين	على	قديد	د	بسوء	ما
					أبلايه ^(٣)

* أبو حمزة يدخل المدينة :-

لم يدخل هؤلاء الشراة مدينة رسول الله ﷺ بين دقات الطبول وعزف المعازف، وإنما دخلوا مقتدين بسنة من هم في مدينتهم، ومن طالما تردد أبو حمزة على قبره يشكو ما أصاب الأمة من وهن، دخلوا باكين خاضعين متضرعين يسلمون على الرسول عليه السلام، نعم إنهم لم يروعوا أحد وهو في داره وإنما هو القتال من أجل نصرة الحق، القتال الذي فرض عليهم على مشارف المدينة، في قديد فنصرهم الله.

وها هو أبو حمزة القائد المظفر يصعد على منبر رسول الله عليه السلام، هذا المنبر الذي وطئته أقدام الظالمين لنشر البغي والفساد، ليلقى على الناس بيانا لا نجد أبلى وصف له من كلمات مالك بن انس «خطبنا أبو حمزة بالمدينة خطبة شك فيها المستبصر ورد بها المرتاب»^(٢٨).

ولسنا ندري أين كان الإمام في تلك الظروف، وما كان موقفه سوى هذه الكلمات التي تدل على أنه لم يكن يتصور أن يستمع إلى مثل ما سمع، وعلى أثر البيان أظهر أهل المدينة الطاعة للإمامة الأباضية وهم لها كارهون، للصلاة خلف قائدها معيدون.

(٢٧) ن . م - ١٢٦/٢٣ .

(٢٨) ابن عبد ربه احمد بن محمد (٣٢٨-٩٣٩) العقد الفريد تحقيق احمد امين واحمد الزين وابراهيم الابياري - ط ٢ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٣٨١/١٩٦٢ - ٥٤/٥ .

نطلق بإيراد هذه الخطبة لطولها وشمولها، وإن لم تكن الأولى حيث تاريخ الألقاء في ما يبدو، ومن الصعب جدا ترتيب هذه الخطب لكن لا ضرر في ذلك لأنها ألفت كلها على مدى أشهر قلائل كما نعلم :-

أخبرنا الهيثم بن عدي الطائي قال : أخبرنا عيسى بن عبد الحميد قال : دخل أبو حمزة المدينة في أصحابه وعليه قميص وكساء صوف مصبوغ ، وهو متعمم بعمامة بيضاء ، وسيف عريض حائله ليف ، متقلد السيف ، وعلى أصحابه مثله ، قال عيسى : ولم أر هيئة قط أحسن من هيئتهم ولا وجوهاً أحسن من وجوههم شباب كلهم .

فلما صعد منبر رسول الله ﷺ وضع جبهته على الموضع الذي كان رسول الله ﷺ يضع قدميه فبكى وأشد بكاءه ثم قال : هاء هاء كم قدم عاصي الله عاملة بغير كتاب الله مؤثرة هواها على غير رضى الله ورسوله قد وضعت موضع قدم رسول الله بأبى وأمي هو ، سبحان الله أين كانت كبرياء المسلمين وجلوسهم . قال : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإن الله بعث محمدا ﷺ بالحق على فترة من الرسل ، وأنقطع من الوحي وأندراس من الحق ، وأنزل عليه الكتاب ، وشرع له الشرائع وفرض له الفروض ، وعلم به من الجهالة ، وأنقذ من الضلالة ، وبين له ما يأتي وما يتيقن ، فكان لا يقدم ولا يؤخر إلا عن أمر من الله تعالى ، أمره بالجهاد فمضى بما أمر الله به من مجاهدة أعدائه ثم قبضه على منهج أنبائه بعد تبليغه الرسالة ، وأنذاره وقيامه بالحجة ، وقد علم الناس معالم دينهم ثم قبضه الله ﷻ .

ثم ولى أبو بكر رحمه الله ثاني اثنين فقام وأستقام ، وشمروا عن ساق ، وعدل في الرعية ، وأبى أن يقبل في دينه الدنية ، فقاتل أهل الردة يوم ارتدت العرب ، أو من أرتد منهم فعرضوا أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة ، فأبى أن يقبل منهم إلا ما كان رسول الله ﷺ قابلاً منهم ، فغضب بالحق أكتاف أهل الباطل حتى قهرهم بالحق وردهم إلى الدين الذين خرجوا منه ، وحملهم على شريعة الحق التي كانوا عليها قبل الفرقة ، وأعطى كل ذي حق حقه ، ولم تأخذه في الله لومة لائم ، ولم ترده الدنيا ولم يردها ، ثم مضى لسبيله والأمة عنه راضون رحمة الله عليه ، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى رجل المهاجرين عمر بن الخطاب رحمه الله ليس هو من بطنة الأذنين ، ولا هو من رهطه الأقربين فرضيت به الأمة .

ثم ولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقام بالحق وعمل به ، وأستقام لأمر الله ورسوله ، وتبع سنة صاحبه ، مصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وجبى الأموال ، وفرض

أعطيه الناس فلم يضع اسمه إلا بقدر مرتبته، ولم يأخذ من المال إلا بقدر سهمه، وقام في شهر رمضان، وجمع القرآن الكريم في مصحف واحد، وضرب في الخمر ثمانين سوطا، وخلط الشدة باللين، وألقت إليه الأرض أفلاذ أكبادها، وأدى إلى كل ذي حق حقه، وقتل كسرى وآل كسرى، وأخرج قيصر وآل قيصر من الشام، ثم أوتي بكنوز كسرى وكان أقل الناس فيها حظا آل الخطاب فأرادته الدنيا ولم يردها، فقبضه الله على منهاج صاحبيه فمضى والأمة عنه راضون، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ستة من المهاجرين قبض رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. ليس واحد منه من بطنة الأذنين ولا من رهطه الأقربين.

ثم ولي عثمان فعمل بعمل صاحبيه ست سنين مشمرا واصاب منزعا، ثم عمل في الست البواقى ما أحبط الآخر أجر الأول، فقتله المسلمون، ثم اضطرب جبل الدين بعده فطلبها كل أمرئ لنفسه، وأسر كل لأجل منه سريرة أظهرها الله وأبداها منهم حتى مضوا على ذلك.

ثم ولي علي بن أبي طالب أقدمهم إسلاما، وأعظمهم في الإسلام نصيبا وعناء، وكان ولد على الفترة السابقة والهجرة والفضائل ولم يأخذ من المال إلا بقدر عنائه، وأتاه عقيل بن أبي طالب فسأله فلم يعطيه شيئا ولم يزل جادا مجدا غالبا مظفرا حتى حكم الحكمين وترك حكم القرآن فأختلف عليه أمره، وصار أصحابه فرقا وشيعا، وقاتل أهل النهروان، فوالله ما ألتقت فئتان منذ بعث الله محمدا ﷺ إلا أعطى الله الظفر أحبها إلى الله وأرضاها عنده حتى حكم الحكمين وترك حكم القرآن فما ألتقت فئتان بعد الحكمين إلا غلب أنكرهما وأعتاها.

ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله ﷺ وأبى لعينه، جلف من الأعراب، وبقية من الأحزاب، مؤلف طليق، فسفك الدم الحرام، وأتخذ عباد الله خولا، ومال الله دولا، وبغى بدينه عوجا ودغلا، وأحل الفرج الحرام، وعمل بما يشتهي حتى مضى لسبيله فعل الله به وفعل.

ثم ولي بعده بن يزيد، يزيد الخمور، ويزيد القصور، ويزيد الفهود، ويزيد الصيود، ويزيد القرد، فخالف القرآن، أتبع الكهان ونادم القرد، وعمل بما يشتهي حتى مضى على ذلك لعنه الله، وفعل به وفعل.

ثم ولي مروان بن الحكم طريد لعين رسول الله ﷺ وآله وأبى لعينه فاسق في بطنه وفرجه، فآلعنوه وآلعنوا أباه.

ثم تدواها بنو مروان بعده، أهل بيت اللعنة، طرداء رسول ﷺ وآله، قوم الطلقاء ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا التابعين بإحسان، فأكلوا مال الله أكلا، ولعبوا بدين الله لعبا

وَاتَّخَذُوا عِبَادَ اللَّهِ عِبِيداً، وَيُورِثُ ذَلِكَ الْكَبِيرُ مِنْهُمْ الْأَصْغَرَ، فَيَالِهَا أُمَّةٌ مَا أَضْعَفُهَا وَأَضْعَفُهَا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ مَضَوْا عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَسْتَخْفَافِهِمْ بَكْتَابِ اللَّهِ، قَدْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، لَعْنَهُمُ اللَّهُ فَالْعَنُوهُمْ كَمَا يَسْتَحِقُّونَ.

ثُمَّ وَلِيَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَلَمْ يَرْفَعْ حَقّاً وَلَمْ يَضَعْ بَاطِلاً، وَمَشَى زَهُواً، وَاتَّخَذَ الْجَبْرِيةَ دِيناً فَالْعَنُوهُ لَعْنَةُ اللَّهِ.

ثُمَّ وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَلَبِغَ وَلَمْ يَكُدْ، وَعَجَزَ عَنِ الَّذِي أَظْهَرَهُ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ - وَلَمْ يَذْكُرْهُ بِخَيْرٍ وَلَا بِشَرٍّ.

ثُمَّ وَلِيَ بَعْدَهُ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، غُلَامٌ ضَعِيفٌ سَفِيهٌ غَيْرُ مَأْمُونٍ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، لَمْ يَبْلُغْ أَشَدَّهُ، وَلَمْ يُؤْنَسْ رَشْدُهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رَشَدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النِّسَاءُ ٦]، فَأَمَرَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ فِي أَحْكَامِهَا وَفَرْجِهَا وَدِمَائِهَا أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً، مَأْبُونٌ فِي بَطْنِهِ وَفَرْجِهِ، يَشْرَبُ الْحَرَامَ وَيَأْكُلُ الْحَرَامَ وَيَلْبَسُ الْحَرَامَ، وَيَلْبَسُ بَرْدَتَيْنِ قَدْ حَكَيْتَا وَقَوْمَتَا عَلَى أَهْلِهَا بِأَلْفِ دِينَارٍ وَأَكْثَرَ وَأَقْلَ، قَدْ أَخَذَتْ مِنْ غَيْرِ حِلِّهَا، وَتَصَرَّفَتْ فِي غَيْرِ وَجْهِهَا بَعْدَ أَنْ ضَرَبَتْ فِيهَا الْأَبْشَارُ، وَحَلَقَتْ فِيهَا الْأَشْعَارُ، وَأَسْتَحَلَّ مَا لَمْ يَحِلَّ لِلَّهِ لِعَبْدٍ صَالِحٍ وَلَا لِنَبِيِّ مُرْسَلٍ، ثُمَّ يَجْلِسُ حَبَابَةً عَنْ يَمِينِهِ وَسَلَامَةً عَنْ شِمَالِهِ تَغْنِيَانِهِ بِمَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ الْقَدَاحَ الْمُحَرَّمَةَ نَصَابَ بَعِينِهَا حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ مَأْخُذَهَا فِيهِ وَخَالَطَتْ رُوحَهُ وَلَحْمَهُ وَدَمَهُ وَغَلَبَتْ سَوْرَتَهَا عَلَى عَقْلِهِ، مَزَقَ حَلَّتَهُ ثُمَّ أَلْتَفَتْ إِلَيْهِمَا فَقَالَ: أَتَأْذَنَانِ لِي أَنْ أَطِيرَ؟ نَعَمْ فَطَرِ إِلَى النَّارِ إِلَى لَعْنَةِ اللَّهِ وَنَارِهِ حَيْثُ لَا يَدْرِكُ اللَّهُ.

ثُمَّ وَلِيَ هِشَامُ الْأَحْوَلُ فَمَزَقَ الْعِطَاءَ وَأَسْتَأْثَرَ بِالْفَيْءِ، وَمَرَرَتْ بِكُمْ فِي زَمَنِهِ وَقَدْ أَصَابَتْكُمْ عَاقِبَةٌ بِشَارِكُمْ وَكُتِبَتْمْ إِلَيْهِ تَسْأَلُونَهُ أَنْ يَضَعَ أَخْرَاصَكُمْ عِنْدَكَ فَكُتِبَ إِلَيْكُمْ كِتَاباً أَسْخَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَرْضَاكُمْ، يَضَعُهَا عَنْكُمْ، فَزَادَ الْغَنِي غَنًى، وَزَادَ الْفَقِيرُ فَقْرًا، فَقُلْتُمْ جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا، فَلَا جَزَاكُمْ اللَّهُ خَيْرًا وَلَا جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا، فَالْعَنُوهُ لَعْنَةُ اللَّهِ.

ثُمَّ وَلِيَ الْفَاسِقُ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدٍ فَشَرِبَ الْخَمْرَ ظَاهِراً، وَأَظْهَرَ الْفَاحِشَةَ عَمِداً، فَعُوتِبَ عَلَيْهِ يَزِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَقَتَلَهُ، كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الْأَنْعَامُ ١٢٩].

ثُمَّ وَلِيَ مُرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ فَادَّعَى الْخِلَافَةَ فَنَحَتِ الْأَصُولُ وَسَمِلَ الْأَعْيُنُ وَقَطَعَ الْأَيْدِي فَيَا عَجَباً وَرِضَاكُمْ بِنَبِيِّ أُمِّيَّةٍ وَبَنِي الطَّرِيدِ وَبَنِي اللَّعِينِ فَالْعَنُوهُ لَعْنَةُ اللَّهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ بَنِي أُمِّيَّةٍ وَأَعْمَالَهُمْ وَسِيرَتَهُمْ فَقَالَ: أَصَابُوا إِمْرَأَةً ضَائِعَةً وَقَوْمًا طَغَامًا وَجَهَالًا، لَا

يقومون لله بحق، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى، ويرون أن بني أمية أرباب لهم فملكوا الأمر وتسلطوا عليه تسلط ربوية، بطش الجبابرة، يحكمون بالهوى ويقتلون على الغضب، ويأخذون بالظن، ويعطلون الحدود بالشفاعات، ويؤمنون الخونة ويقصون ذوي الأمانة، ويأخذون الصدقة في غير وقتها على غير فرضها، ويضعونها في غير موضعها، فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله، فآلعنوهم لعنهم الله، إلى أن قال:

بلغني مقاتلكم في أصحابي، وما عبتموه من حدائث أسنانهم، وبحكم، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ وآله المذكورون في الخير إلا أحداثاً شباباً، شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة، قد نظر الله إليهم في جوف الليل، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً وكلما مر بآية من ذكر النار شهق خوفاً كأن زفير جهنم بين أذنيه، فقد أكلت الأرض جباههم وركبهم، ووصلوا كلال الليل بكلال النهار، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم من طول القيام وكثر الصيام، وأنضاء عبادة، موفون بعهد الله، منتجزون لوعد الله، قد شروا أنفسهم لله حتى إذا ألتقت الكتيتان وأبرفت سيوفها، وفوقت سهامها، وأشرعت رماحها، لقوا شبا الآسنة وشائك السهام، وظباء السيوف بنحورهم ووجوههم وصدورهم، فمضى الشاب منهم قدماً حتى أختلفت رجلاه على عنق فرسه وأختضبت محاسن وجهه بالدماء، غفر جبينه بالثرى، وأنحطت عليه الطير من السماء، وتمزقت سباع الأرض، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من وجه رقيق وجبين عتيق قد فلق بعمد من حديد.

ثم بكى وقال: آه آه على فراق الأخوان، رحمة الله على تلك الأبدان وأدخل الله أرواحهم الجنان.

وجاء في الأغاني ٢٣/ ١٣٠ ايضاً ما يلي :

ثم دخل أبو حمزة المدينة سنة ثلاثين ومائة، ومضى عبد الواحد بن سليمان إلى الشام، فرقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «يا أهل المدينة سألناكم عن ولائكم هؤلاء فأسأتم لعمر الله فيهم القول، وسألناكم هل يقتلون بالظن؟ فقلتم نعم وسألناكم هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام؟ فقلتم نعم، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم فنناشد الله أن يتنحوا عنا وعنكم ليختار المسلمون لأنفسهم فقلتم لا تفعلون، فقلنا لكم تعالوا نحن وأنتم

* ملحوظة : أعتدنا لأثبات نص هذه الخطبة على مخطوطة بمكتبة الشيخ سالم بن يعقوب بجربة بالبلاد التونسية (مجموع بدون رقم) وعلى ما جاء في الأغاني ٢٣/ ٢٣٨-١٣٩ من الأول إلى وأعتاها - المخطوطة، وكذلك ما يتعلق بالخلفاء الذين لم يذكروا في الأغاني .

نلقاهم ، فإن نظهر نحن وأنتم نأت بمن يقيم كتاب الله وسنة نبيه ، وإن نظفر نعدل في أحكامكم ونحملكم على سنة نبيكم ونقسم فيئكم بينكم فأبيتم وقاتلتمونا دونهم فقاتلناكم ، فأبعدكم الله وأسحقكم ، يا أهل المدينة ، مررت بكم في زمان الأحوال هشام بن عبد الملك وقد أصابتكم عاهة في ثماركم فركبتم اليه تسألونه ان يضع خراجكم عنكم ، فكتب بوضعها عنكم فزاد الغني غنى والفقير فقرا فقلتم جزاك الله خيرا فلا جزاه الله خيرا ولا جزاكم . »

كما اورد ابو الفرج الخطبة التالية ايضا وختمها هي الاخرى بنفس النص في التعريف بأصحابه ، الأغاني ٢٤ / ١٣١-١٣٢ .

رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال أتعلّموا يا أهل المدينة إنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا إشرأ ولا بطرا ، ولا عبثا ولا هوا ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ، ولا ثأر قديم نيل منا ، ولكننا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت ، وعنف القاتل بالحق ، وقتل القائم القسط ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ فأقبلنا من قبائل شتى ، السفر منا على بعير واحد ، عليه زدهم وأنفسهم ، يتعاورون لحافا واحدا ، قليلون مستضعفون في الأرض ، فأوانا الله وأيدنا بنصره ، وأصبحنا - والله الحمد - بنعمته إخوانا ، ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم الى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، ودعونا الى طاعة الشيطان وحكم مروان وآل مروان ، شتان لعمر الله منا بين الغي والرشد ثم اقبلوا يهرعون ويزفون ، قد ضرب الشيطان فيهم بجراحه ، وغلت دمائهم مراجله وصدق عليه ظنه ، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب ، بكل مهند ذي رونق فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون ، وأنتم يا أهل المدينة إن تصرّوا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، يا أهل المدينة إن أولكم خير أول ، وآخركم شر آخر ، يا أهل المدينة ، الناس منا ونحن منهم إلا مشركا عابد وثن ، أو كافر من أهل الكتاب ، أو إماما جائرا ، يا أهل المدينة من زعم أن الله تعالى كلف نفسا فوق طاقتها ، أو سألها عما لم يؤتها فهو الله عدو ولنا حرب ، يا أهل المدينة ، أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله تعالى في كتابه على القوى - على حبه - للضعيف ، فجاء التاسع وليس له منها ولا سهم واحد ، فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه ، ما تقولون فيه وفيمن عاونه على فعله؟ » .

ويورد أبو الفرج أيضا خطبة أخرى لأبي حمزة يصور فيها واقع أهل المدينة وما أصابهم من غفلة عن ذكر الله ، قال هارون : قال جدي : وسمعت أبا حمزة يخطب بالمدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل المدينة مالي رأيت رسم الدين فيكم باقيا ، وآثاره دارسة؟ لا تقبلون عليه عظة ، ولا تفقهون من أهله حجة ، قد بليت فيكم جدته ، وانطمست عنكم سنته ،

ترون معروفة منكرا، والمنكر من غيره معروفا، إذا انكشفت لكم العبر، وأوضحت لكم النذر، عميت عنا أبصاركم، وصمت عنها أسماعكم، ساهين في غمرة، لاهين في غفلة تنبسط قلوبكم للباطل إذا نشر، وتنقبض عن الحق إذا ذكر، مستأنسة من العلم، مستأنسة بالجهل، كلما وقعت عليها موعظة زادت عنها عن الحق نفورا، تحملون منها في صدوركم كالجحارة أو أشد قسوة من الجحارة، أو لم تلتن لكتاب الله الذي لو أنزل على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من خشية الله، يا أهل المدينة ما تغني عنكم صحة أبدانكم إذا سقمت قلوبكم، إن الله قد جعل لكل شيء سببا غالبا يقاد له، ويطيع أمره وجعل القلوب غالبية على الأبدان، فإذا مالت القلوب ميلا كانت الأبدان لها تبعا، وأن القلوب لا تلين لأهلها إلا بصحتها، ولا يصححها إلا المعرفة بالله وقوة النية ونفاذ البصيرة، ولو استشعرت تقوى الله قلوبكم لاستعملت بطاعة الله أبدانكم يا أهل المدينة، داركم دار الهجرة، ومثوى رسول الله ﷺ، لما نبت به داره، وضاق بن قراه، وأذاه الأعداء وتجهمت له فنقله إليكم بل إلى قوم لعمري لم يكونوا أمثالكم، متآزرين مع الحق على الباطل، ومختارين للأجل على العاجل، يصبرون للضراء رجاء ثوابها، فنصروا الله، وجاهدوا في سبيله، وأووا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه وآثروا الله على انفسهم ولما كانت بهم خصاصة، وقال الله تعالى لهم ولأمثالهم ولن يهتدى بهداهم ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وأنتم أبناءهم ومن بقي من خلفهم، تتركون أن تقتدوا بهم، أو تأخذون بستمهم، عمي القلوب، صم الأذان، أبتعم الهوى فارداكم عن الهدى، وأسهاكم، فلا مواظ القرآن تزجركم فتزدجروا، ولا تعظكم فتعتبروا، ولا توقظكم فتستيقظوا، لبس الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم، ما سرتهم بسيرتهم، ولا حفظتم وصيتهم، ولا احتذيتم مثالهم، لو شقت عنهم قبورهم، فعرضت عليه أعمالكم، لعجبوا كيف صرف العذاب عنكم».

ثم نورد ماجاء في الجزء الرابع من العقد الفريد - ١٤٥/٣ - ١٤٦ قال مالك بن أنس رحمه الله خطبنا أبو حمزة خطبة شكك فيها المستبصر وردت المرتاب، قال: أوصيكم بتقوى الله وطاعته والعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ، وصلة الرحم وتعظيم ما صغرت الجبارة من حق الله، وتصغير ما عظمت من الباطل، وإماتة ما أحيو من الجور، وإحياء ما أماتوا من الحقوق، وإن يطاع الله ويعصى العباد في طاعته، فالطاعة لله وسنة نبيه، والقسم بالسوية، والعدل في الرعية، ووضع الأخماس في مواضعها التي أمر الله بها وأنا والله ما خرجنا إشارا ولا بطرا، ولا هوا ولا لعبا، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيها، ولا لثأر قد نيل منا، ولكن لما رأينا الأرض قد أظلمت ومعالم الجور قد ظهرت، وكثر الإدعاء في الدين، وعمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وقتل القائم بالقسط، وعنفت القائل بالحق، وسمعنا مناديا ينادي إلى الحق وإلى

طريق مستقيم، فأحبينا داعي الله، فأقبلنا من قبائل شتى، قليلين مستضعفين في الأرض، فأوانا الله وأيدنا بنصره، فأصبحنا بنعمته إخوانا، وعلى الدين أعوانا، يا أهل المدينة، أولكم خير أول وآخركم شر آخر، إنكم أطعتم قراءكم وفقهاءكم فاخтанوكم عن كتاب غير ذي عوج، بتأويل الجاهلين، وانتحال الباطلين فأصبحتم عن الحق ناكبين، أمواتا غير أحياء وما تشعرون، يا أهل المدينة، يا أبناء المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ما أصح أصلكم وأسقم فرعكم، كان أبائكم أهل اليقين وأهل المعرفة بالدين أصح أصلكم وأسقم فرعكم، كان أبائكم أهل اليقين وأهل المعرفة بالدين والبصائر النافذة، والقلوب الواعية، وانتم أهل الضلالة والجهالة، استعبدتكم الدنيا فأذلتكم والأماني فأصلتكم، فتح الله لكم باب الدين فأفسدتموه وأغلق عنكم باب الدنيا ففتحتهموه، سراع إلى الفتنة، بطاء عن السنة، عمي عن البرهان، صم عن العرفان، عبيد الطمع، حلفاء الجزع، نعم ما ورثكم آبائكم لو حفظتموه، وبئس ما تورثون أبناءكم إن تمسكوا به، نصر الله آباءكم على الحق وخذلكم على الباطل، كان عدد آبائكم قليلا طيبا، وعددكم كثير خبيث، اتبعتم الهوى فأرداكم، وللهو فأسهاكم، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزجرون، وتعبركم فلا تعتبرون، سألناكم عن ولائكم هؤلاء فقلتم: والله ما فيهم الذي يعدل، أخذوا المال من غير حلة فوضعوه في غير حقه، وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله، وأستأثروا بفيئنا فجعلوه دولة بين الأغنياء منهم وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء وفروج الإماء، وقلنا لكم تعالوا إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم، وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله فقلتم لا نقوى على ذلك، ووددنا أنا أصبنا من يكفيننا، فقلنا نحن نكفيكم، ثم الله راع علينا وعليكم، ان ظفرها لنعطين كل ذي حق حقه، فجئنا فاتقينا الرماح بصدورنا، والسيوف بوجوهنا، فعرضتم لنا دونهم، فقاتلتهمونا، فأبعدكم الله، فوالله لو قلتم لا نعرف الذي تقول ولا نعلمه لكان أعذر، مع أنه لا عذر للجاهل ولكن أبى الله إلا أن ينطق بالحق ألسنتكم ويأخذكم به في الآخرة. ثم قال الناس منا ونحن منهم إلا ثلاثة: حاكما جاء بغير ما أنزل الله، أو متبعاه، أو راضيا بعمله».

كما يحسن أن نورد هذه الخطبة التي تنسبها كتب الأدب لأبي حمزة لما فيها من تعبير عما وهبه الله لأصحابه من هدى لإصلاح العباد.

«أما بعد فإنك في ناشئ فتنة، وقائم ضلالة قد طال جثومها، وإشتدت عليك همومها، وتلوت مصايد عدو الله منها وما نصب من الشرك لأهل الغفلة عما في عواقبها، ويهد عمودها، ولن ينزع أوتادها، إلا الذي بيده ملك الأشياء، وهو الرحمن الرحيم، ألا وإن لا بقايا من عباده، لم يتحيا في ظلمها، ولم يشايعوا أهلها على شبهها، مصابيح النور في أفواههم تزهو،

وَأَلَسْتَهُمْ بِحُجَجِ الْكِتَابِ تَنْطِقُ، رَكَبُوا مِنْهَجَ السَّبِيلِ، وَقَامُوا عَلَى الْعِلْمِ الْأَعْظَمِ، هُمْ خَصْمَاءُ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِهِمْ يَصْلَحُ اللَّهُ الْبِلَادَ، وَيُدْفَعُ عَنْ الْعِبَادِ، طُوبَى لَهُمْ وَلِلْمُسْتَصْبِحِينَ بِنُورِهِمْ وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ . [العقد الفريد ١٧٤١٤].

نختم باختيار النص الذي أورده صاحب العقد الفريد في الجزء الرابع ١٤٤ للخطبة التي عرف فيها بأصحابه مع الملاحظ أن المصادر اختلفت في مكان إلقائها ولا يهمننا ذلك كثيرا في هذا الكتاب، كما اختلفت أيضا في بعض ألفاظها، وإن جاء المعنى واحدا في كل الروايات ولعل ذلك يرجع إلى أنه اعتمد فيها على السماع إذ نعلم أن الخطبة مرتجلة.

خطبهم أبو حمزة بمكة فصعد المنبر متوكئا على قوس عربية خطب خطبة طويلة ثم قال : «يا أهل مكة تعيرونني بأصحابي تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا، نعم الشباب مكتهلين، عمية عن الشر أعينهم، بطيئة عن الباطل أرجلهم، قد نظر الله إليهم في آناء الليل مشنية أصلابهم بمثاني القرآن، إذا مر أحدهم بأية فيها ذكر الجنة بكى شوقا إليها، وإذا مر بأية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جنهم في أذنية، وقد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم، أنضاء عبادة، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم، من كثرة الصيام، وطول القيام، مستقلون لذلك في جنب الله موفون بعهد الله مستنجزون لوعد الله، إذا رأوا سهام العدو قد فوقت، ورماحه قد أشرعت، وسيوفه قد أنتضيب، وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت، إستهانوا بوعيد الكتيبة لوعد الله، فمضى الشاب منهم قدما حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه، قد رملت محاسن وجهه، بالدماء، وعفر جبينه بالثرى، وأسرع إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء، فكف من كف بانة عن معصمها، طالما أعتمد عليها صاحبها في سجوده، وكم من خد عتيق، وجبين رقيق قد فلق بعمد الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان وأدخل أرواحها في الجنان، ثم قال: الناس منا ونحن منهم إلا عابد وثن أو كفر أهل الكتاب، أو إماما جائرا، أو شادا على عضده».

إن المتأمل في ما أورده كتب التاريخ والطبقات والأدب من خطب أبي حمزة يتبين أنها تتداخل في بعضها البعض ولا يهمننا في هذا الكتاب إلا أن نحلل هذه الخطب لنبين بعدها الحضاري على أنها مجموعة من الوثائق التاريخية المتكاملة تعبر عن عديد من مواقف الشراة في العقيدة والسياسة وما إلى ذلك.

مع العلم أن هذه الخطب كانت في فترة واحدة لأن إقامة أبي حمزة في الحجاز كانت زهاء ثلاثة أشهر سنة ٤٤٧/١٣٠ كما نلاحظ أن هذا العدد الذي وصل أقل بكثير مما ألقى من خطب ذلك أن خطب الجمعة التي لم يكن أبو حمزة ليغفل عنها لا تقل عن إثنتي عشرة خطبة، عدا المواعظ الأخرى التي دوت في رحاب الحرمين الشريفين طيلة هذه المدة التي أسن فيها أبو حمزة السيرة في هذه الربوع المقدسة.

* أبو حمزة ومنهج المقترح :-

إن هذه الخطب تنم عن وعي سياسي نادر ذلك أن أبا حمزة تتبع سيرة خلفاء بني أمية واحدا واحدا متعرضا لما تميز بن حكم هؤلاء من خصائص تثبت للعيان أنهم استتوا جميعا في الجور، وإن تعاونوا في قدر هذا الطغيان، كما أن البعض منهم تجاوزوا الآخرين في اللهو العبث باستثناء عمر بن عبد العزيز.

وإن كان أبو حمزة يرفض هذا الخط الذي اتبعه الأمويين فإنه يعرض البديل الذي ستسوس بها الإمامة الإباضية البلاد والعباد، ومن خلال عرض هذه المقابلة بين المنهجين تتضح معالم الفكر السياسي عند الإباضية في نواتها الأولى.

● المنهج المرفوض :-

يتوجه أبو حمزة إلى أهل المدينة سائلا إياهم عن الولاة (الخلفاء) فيجيبون والله ما فيهم الذي يعدل وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله وقلنا لكم تعالوا في إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم وجاروا في الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله

كما يقول في موطن آخر «أصابوا إمرة ضائعة فملكوا الأمر وتسلطوا فيه تسلط ربوية بطشهم بطش الجبابة، يحكمون بالهوى، ويعرفهم بأنهم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله . كما يلح على نبذهم لكتاب الله «ثم مضوا على ذلك من أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله تعالى، قد نبذوه وراء ظهورهم» ولم يكتف الواحد منهم بالظلم بل جعلوا الحكم وراثيا لا يتجاوز إلى غيرهم من المسلمين كأن الأمر حكر على بين أمية ثم بني مروان.

«ولعبوا بدين الله لعبا واتخذوا عباد الله عبيدا ويورث ذلك الأكبر منه الأصغر» فأبو حمزة لا يرفض حكم بني أمية لهوى في نفس أو رغبة في ملك مماثل أو أسوأ وإنما يرفض هذا الحكم لأنه حكم مغتصب من مستحقه من المهاجرين والأنصار بالمكر والخديعة في البداية - إمرة ضائعة - ثم الحديد والنار في ما بعد وقد ذكرنا من قبل كيف أخذ معاوية البيعة

ليزيد من خيرة الصحابة بسطان السيف ولم يسلك فيه هؤلاء واحد من مسالك الخلفاء الراشدين في ولاية العهد لغير الوارث وفي مجلس الشورى أو ترك الأمر للمسلمين .

ويا ليت هذا الحكم المقتضب وجه الوجهة الشرعية فأبوا حمزة يلح على أنها (خلافة) لم تحمل من حقيقة الخلافة إلى الاسم لأن الخلافة تستند إلى كتاب الله وسنة رسوله وبذلك تتميز عن السياسة الطبيعية والسياسة العقلية ، بينما (خلافة) بني أمية تقوم على الاستخفاف بكتاب الله ما دام احد ممثليها ينتقم من المصحف نفسه لأنه ذكره بخيبة كل جبار عنيد وعلى اللعب بدين الله ، وعلى الحكم بغير ما أنزل الله وهم يعلمون أن الله يقول ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة ٤٤] ﴿ هم الظالمون ﴾ [المائدة ٤٥] ﴿ هم الفاسقون ﴾ [المائدة ٤٧] .

وبما أنهم نبذوا القرآن الكريم وراء ظهورهم فإنهم كانوا يحكمون بالهوى ويطشون بطش الجبابرة ، فلا مقياس إلا مصلحة العرش ، وأصحاب العرش ، ولا بقاء إلى هؤلاء مهما كان الثمن ، وإن أدى ذلك إلى تذبيح الآلاف من النفوس البريئة وصلب كل مخالف ، والتلاعب برأسه إن لزم الأمر لتكون مخالفته ردعا لمن لا يريد أن يزدجر .

كما أن أبا حمزة يرفض هذا الحكم لأنه وراثي قيصري ، وهذه الوراثة ما أنزل الله بها من سلطان ، لأن أمر المسلمين يجب أن يتولاه من توفرت فيه شروط الأمانة مهما كان لونه ومهما كان جنسه ومعيار السياسة الشرعية في التقوى ، وقد ألح أبو حمزة على هذا المعنى خاصة في حديثه عن يزيد بن عبد الملك (غلام ضعيف سفيه لم يبلغ أشده) .

ثم أن أبا حمزة يثبت بالأدلة الملموسة أمام الملأ مظاهر الطغيان والاستخفاف بكتاب الله . . . « رأينا الأرض قد أظلمت ، ومعالم الجور قد ظهرت ، وكثرة الإدعاء في الدين ، وعمل بالهوى ، وعطلت الأحكام ، وقتل القائم بالقسط ، وعنف القائل بالحق » . ولا ينبغي أن نغفل عن أن هذا الملأ من أنصار بني أمية ولو كانت له حجة في الرد على أبي حمزة ماترك الفرصة تنفلت منه ، ولتناقلت الأخبار مثل هذه الردود ، ولكن كما رأينا أن هؤلاء أنفسهم يشكون من قصر الخلافة ، ولكن قهر الأمويين على ظلمهم ألطف من حكم أبي حمزة الذي يعتبرونه خارجيا مارقا ، فمهما قال من حق لا يمكن أن يقبل .

وتكفي هنا شهادة الإمام مالك التي تناقلتها كتب الأدب وعمي عنها المؤرخون لتبين قوة حجة أبي حمزة لأن خطبته شككت المستبصرين وردت المرتابين ، ولا أراني هنا مضطرا بأن أكرر ما ذكرته في المحور الأول مما عرفته الأمة من خنث لجميع أنواع الحريات ، فإما أن تكون أمويا وإما فلا ، وقد عرفنا عبد الملك بن مروان على رجاحة عقله بالنسبة إلى قرابته ، كيف

يدوي بها صريحة إن كل من يتناول ليقول للخليفة أخطأت لا رادع له إلا السيف، وصدق حجاجه عندما يقول عن أهل العراق «رؤوس قد أينعت فحان قطافها»، نعم إن الرؤوس عند هؤلاء الناس ورود عبقة يتهادونها في ما بينهم بل يتسابقون لقطعها وتبليغها إرضاء لحضرة (الخليفة).

بقي أن القاعدة لذي هؤلاء تتمثل في أنهم يأخذون المسيء بالمحسن والمحسن بالمسيء، وإذا ما ارتابوا في أحد فلا هوادة «يقتلون على الغضب ويأخذون بالظن».

كما أن المقاييس عندهم مقلوبة «يؤمنون الخونة، ويقصون ذوى الأمانة» فلا سلامة في ظلال هذه الخلافة إلا بالبراعة في الخيانة «وإجتنب كل ما يمت بصلة للأمانة»، أما عن حدود الله فلا تسل، فهذه حكر على من لا قرابة له ولا علاقة له بالقصر العالي، أما إن كنت من المقربين فافعل ما تشاء «ويعطلون الحدود بالشفاعات» لكنك إذا كنت الخليفة فاصنع ما شئت وفي كل عند الشعراء مفخرة وإن كان شرب الخمر وتعاطي الفحشاء جهارا. وإن عطل هؤلاء الحدود الشرعية فإنهم أقاموا مقامها - إن صح التعبير - الحدود البشرية، أتعلمون أن من أجل متعة الخليفة «تضرب الإشار وتحلق الأشعار»، وكذا كان الأمر من أجل بردتي مولانا أمير المؤمنين اليزيد بن عبد الملك، وكيف وهو ابن الأكرمين، فأين أنت يا عمر يا من تقدم الدرة للمظلوم وتقول «إضرب ابن الأكرمين».

ولم يحتاج أبو حمزة للحديث عن الولاة والقضاة والعمل لأن هؤلاء نسخة من سادتهم في دمشق لأن الاختيار جزء من كيان المرء ولا يمكن لليزيد إلا أن يختار من أمثال اليزيد والطيور على أشكالها تقع، وإذا كان رب الدار بالطبل ضاربا فلا تلومن الصغار على الرقص. ثم ليزيد أبو حمزة تدليلا على صدق ما يقول لأهل المدينة خاصة والمسلمين عامة حتى يريح عنهم حجاب الغفلة الذي نسجته عوادي الزمن منذ ما يقارب القرن، لكن أنى لأبي حمزة أن يسمع صوته، والناس في طغيانهم يعمهون، وقد ألفوا الظلام وحسبوه نورا، وتعودوا الظلم وصاروا يعتقدون ألا حياة بدون قهر لأن البشر مجبولون على الشر، لكنها كلمة الحق يجب أن تقال، وليكن ما يكون، إنها تتمثل في ما امتازت به الخطبة من تقصي لآثار جميع الخلفاء الذين يركع أمامهم الناس ساجدين، ويقبلون بين أيديهم ملبين ويدعون لهم في كل جمعة متضرعين.

إنهم جمعوا بين الماضي القاتم - لعناء - طرداء - وبين الحاضر والعقب بالجور والفجور، وتكفي بعض العبارات للدلالة على أن أصحابها محدودون لو كان للقرآن سلطان، «وأحل الفرج الحرام»، «يزيد الخمر» «فاسق في بطنه وفرجه» «مأبون في بطنه وفرجه».

فهل يستحق مثل هؤلاء اللعنة أم الخلافة؟، وصدق أبو حمزة عندما لم يغفل عن تحميل الأمة مسؤوليتها، «فيا لها أمة ما أضيعها وأضعفها»، «أصابوا (الأمويون) . . . قوما طغاة جهالا، لا يقومون لا بحق، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى، ويرون أن بني أمية أرباب لهم» فحق لمن اتخذ غيره مربوبا أن يتخذ عبدا «واتخذوا عباد الله عبيدا» فلذلك لم يتحرك أحد عندما ضربت الأبخار وحلقت الأشعار بل كلما قام قائم يجيب داعي الرحمن تصدوا له ودافعوا عن مستحلي الأموال، والفروج وشرابي الخمر.

ويجد أبو حمزة مثال في عبودية أهل المدينة - ولا ينبغي أن يخلط القارىء فإن كانوا سكان المدينة فإن المدينة بقداستها وروحانياتها وما نزل فيها من وحي منهم براء - لبني مروان هؤلاء الذين عرف أبو حمزة بحقيقة أمرهم للتعريف بما وصلت إليه الرعية الأموية من خنوع وإنحراف وبعد عن نصره الحق - الحق ينصر مهما كان مأثاه - وإن كان أهل المدينة على هذا الحال رغم معاشيتهم لروضة الرسول عليه السلام صباح مساء فحدث عن البقية ولا حرج .

إن هؤلاء كانوا على عكس سلفهم من المهاجرين والأنصار فبقدر ما ضرب صحابة رسول الله ﷺ أروع مثال للبشرية جمعاء عقيدة وقولا وعملا، كان خلفهم على أسوأ حال عقيدة وقولا وعملا، إذ غفلوا عن دين الله، وتركوا القرآن الكريم وسنة الرسول عليه السلام وراء ظهورهم، وأعرضوا عنها تمام الإعراض، فقسفت القلوب وكانت تبعا للهوى، فخيم عليها الجهل فصارت كالحجارة أو أشد قسوة، فعشقت أصحابها الباطل وكرهوا الحق، إلى حد أنهم صاروا يرون المنكر معروفا والمعروف منكرا، وعندما دعاهم أبو حمزة إلى طاعة الرحمن، ودعوة إلى طاعة الشيطان، وإلى إتباع حكم آل مروان، فاتضح أنهم صاروا للظلمة أعوانا، وللشيطان خلانا، وصدق عليهم إبليس ظنه .

ولم يكن أبو حمزة ليرسل القول جزافا، وإنما هي الحقيقة التي خبرها من زمان، وقد عرفنا مما سبق في الكتاب ما فيه الكفاية من شهادات الآخرين لما تردى إليه الوضع في مدينة الرسول عليه السلام خاصة والحجاز كافة، وما ذلك إلا بتدبير السادة من آل مروان، لإبعاد أحفاد الصحابة عن الميدان، عسى أن يدوم السلطان .

ولا نريد أن نمضي في التفصيل، فقد مضى في الكتاب من هذه الأخبار غير قليل، وإنما نكتفي بأن نقول مع أبي حمزة «يا أهل المدينة إن أولكم خير أول وآخركم شر آخر . . .» عمي القلوب صم الآذان، وإتبعتم الهوى، فأرداكم عن الهدى وأسهاكم، فلا مواعظ القرآن تزجركم فتزدجروا، ولا تعظكم فتعتبروا، ولا توظكم فتستيقظوا، لبئس الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم لو شقت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صرف العذاب عنكم» .

ولم يقف أمر هذه الغفلة عند العامة بل نفذ الفقهاء والقراء، وهنا يلتفت أبو حمزة إلى هؤلاء ويحملهم مسؤولية ما عليه الأمة من غي وضلال، ذلك لأنهم واكبوا السلطان، واستطابوا عطاءه، وزينوا له أعماله «يا أهل المدينة . . . إنكم أطعتم قراءكم وفقهاءكم فاختانوكم عن كتاب غير ذي عوج بتأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، فأصبحتم عن الحق ناكين، وأمواتا غير أحياء وما تشعرون» ولعل أبا حمزة يشير إلى ما شاع في الأوساط آنذاك من ظاهري الجبر والإرجاء ومنطلقهما السياسة الأموية الهادفة إلى تجميع الناس وإخضاعهم لسلطانهم.

ومن ذلك أن معاوية نفسه يوهم في خطبة أنه لم يغتصب الحكم وأنه خازن من خزان الله، فيقول مرة «لولا يري أهلا لهذا الأمر ما تركني وإياه، ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيره» ويقول مرة أخرى «إنما أنا خازن من خزان الله، أعطي من أعطاه وأمنع من منعه»^(١) وبما أن معاوية ومن ورثهم الحكم على هذا المستوى، لم يبق عى الأمة إلا الطاعة، وإن هي انحرفت في سلوكها فلا ضرر عليها لأنه لا تضر مع الإيمان معصية، وإن أبدى أبو حمزة رفضه لظلم الراعي وخنوع الرعية على الإطلاق شنع بسياسة بني أمية المالية أيما تشنيع، ووزع ذلك في جل مراحل الخطبة، فإن لم ينتبه المستمع مرة فإنه لا يمكن أن يغفل في بقية المرات، «سألناكم: هل يستحلون المال الحرام . . . ؟ فقلتم: نعم»، «يا أهل المدينة مررت بكم في زمان الأحوال هشام بن عبد الملك وقد أصابتكم عاهة في ثماركم فركبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم فكتب بوضعها، فزاد الغني غنى والفقر فقرا . . . ».

«أخبروني عن ثمانية أسهم فرضها الله تعالى في كتابه على القوي - على حبه - للضعيف فجاء التاسع، وليس له منها ولا سهم واحد، فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه، ما تقولون فيه وفيمن عاونه على فعله؟»، «معاوية اتخذ مال الله دولا»، «يزيد الخمور، ويزيد القصور . . .» وما يحتاج إليه هذه المتع من أموال، ثم تداولها بنو مروان بعده . . . فأكلوا مال الله أكلا». «يزيد بن عبد الملك . . . يشرب الحرام، ويأكل الحرام، ويلبس الحرام، ويلبس بردتين قد حيكتا له وقومتا على أهلها بألف دينار وأكثر وأقل، قد أخذت من غير حلها، وصرفت في غير وجهها، بعد أن ضربت فيها الأبشار، وحلقت فيها الاشعار . . .»

وقد علمنا أنه اشترى سلامة المغنية بعشرين ألف دينار، «يأخذون الصدقة في غير وقتها على غير فرضها، ويضعونها في غير موضعها . . .»، وأخذوا المال من غير حله فوضعوه في غير حقه وأستأثروا بفيئتنا فجعلوه دولة بين الأغنياء منه، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء وفروج الإماء . . .» هذه شهادة أهل المدينة في الولاة وفيمن ولاهم، نأكل

ماله (اليتيم) ونفجر بأمه»، هكذا شهد ابن عطية القائد الأموي عندما سألهم الشراة عن مال اليتيم .

تلك هي السياسة المالية للدولة الأموية فإنها لم تكتف بجمع المال من موارد الزكاة التي حددها الله تعالى في القرآن الكريم ، «وانما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم» [٩ التوبة ٦٠] بل أضافوا سهما تاسعا ، ولا تعجب إذا علمت أن هذا السهم المضاف ابتلع الأسهم الأخرى كلها وتجاوزها ، فكان هؤلاء الخلفاء يسلطون جباة متعللين بالصدقة ولكن لا ينتظرون دوران الحول ولا يتوقفون عند الحد المفروض .

ثم يتجاوزون ذلك إلى ضرب أنواع الفىء والخراج والضرائب ، تؤخذ من الناس أرادوا أو لم يريدوا ، كل ذلك لا ليسخر في المصالح العامة ، وإنما لينفق على من في القصور بما عرفوا به من بذخ ومعصية وفجور ، وإلا كيف يسمح لنفسه من يلقب بأمر المؤمنين بأن يترنح بين المغنين والمغنيات على مرأى ومسمع من الأمة جميعها غنيها وفقيرها ، وعالمها وجاهليها .

وكلما قامت ثورة قالوا أنها خروج عن الطاعة وتحولت الأموال إلى الإنفاق على الجيوش والسلاح للحفاظ على هبة (الخلافة) وهل أبقى الخلفاء لهذه الخلافة هبة؟ ويتألب أصحاب المصالح المنتفعون فيحصدون الرؤوس حصدا ، ويرسلون ما طاب لهم منها إلى قصر الخلافة طمعا في الوجاهة لما تدر على صاحبها من مال .

وهذا ومثله نفهم أنه حق لأبي حمزة وأصحابه أن يخططوا السنين والطوال ليصلوا إلى التعبير عن رأيهم علانية في عسف الأمويين وظلمهم السياسي والمالي ، ورغم أن أهل المدينة بذلك معترفون ، فإنهم للامويين موالون ، وعنهم مدافعون ، ولأبي حمزة وأصحابه محاربون ، إنهم بحق كما قال أبو حمزة «يا أهل الضلالة والجهالة سراع إلى الفتنة بطاء عن السنة» ما داموا يقبلون الضيم مع الاعتراف بأنه قهر .

● المنهج المقترح :-

إن أبا حمزة على يقين من أن الناس لا يكتفون بالتعبير عن الرفض وإنما يطلبون البديل وهذا يستشف من عديد من التلميحات وإن كان كما يقال بضدها تتمايز الأشياء ، ولقد حدد أبو حمزة بوضوح أن العامل الأساسي للثورة لم يكن الرغبة في الملك ، «إنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا إشرأ ولا بطرا ، وعبثا ولا هوا ، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه» .

فموقف أبى حمزة واضح تمام الوضوح ، لأنهم لو أرادوا الملك ما سلكوا مثل هذا المسلك ، ولتقربوا مثلاً إلى بني مروان ، ونالوا مثل ما نال غيرهم من اللقم السائغة التي تسعد في الدنيا وتسخط الله في الآخرة .

نعم إنهم باعوا انفسهم في سبيل الله لتصحيح مسار التاريخ ، لإرجاع العدل إلى نصابه ، وفعلوا خيراً لأهل المدينة بين عدة إختيارات أبرزها أن يتركوا سبيلهم في مسيرتهم نحو إزهاق الباطل في معدنه ، وهنا وعد أبو حمزة بمنهج الحكم المنتظر «يا أهل المدينة ، إنا خارجون لحرب مروان ، فإن نظهر نعدل في احكامهم ، ونحملكم على سنة نبيكم ونقسم بينكم» .

تلك هي سياسة الفئة التي سمعت داعياً يدعو الى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجابت داعي الله ﴿ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الارض﴾ [٤٦ الاحقاف ٣٢] ، عدل في الاحكام ، وإتباع للسنة ، وقسمة بالعدل ، وكيف لا تكون سياستها على هذا النسق وقد كان عامل قيامها ما ذكر تلبية من يدعو إلى حكم القرآن؟ . لكن القرآن نص وكل يدعيه ، وإن كان أبن عطية صرح بأنهم يضعونه في الجوالق ، والوليد فعل معه ما علمت ، وما كان أبو حمزة من هذه الشاكلة ، ولقد بين بكل وضوح أن الإمامة المثل لديهم تتمثل في دولة الرسول عليه السلام وفي خلاة العمرين وفي ست من خلافة عثمان وفي خلافة الإمام علي قبل التحكيم .

فهذه الخلافة نعلم أن الخليفة فيها لم يجد امرة ضائعة ، وإنما تمت البيعة فيها عن طريق الإختيار بالنسبة لأبي بكر لأن من أختاره الرسول عليه الصلاة السلام أولى بأن يختار للدنيا ، وعن طريق ولاية العهد بالنسبة إلى عمر ، وعمر ليس من رهط أبى بكر الأقربين ، وعن طريق الشورى بين ست لم يكن واحد منهم من قرابة عمر في شيء فالأساس في بيعة الخليفة ان اكرمكم عند الله اتقاكم .

ولم يكن هذا مجرد إدعاء وإنما هو واقع اذ قد تمت بيعة عبد الله ابن يحيى طالب الحق لما من به عليه المولى تعالى من تقوى ، إذ لم يكن قرشياً ، ولا من آل البيت ، وإنما كان مؤمناً لا حنيفاً ، والناس جميعاً يعلمون أن مصدر الشورى لتحديد هذه الإمامة بيد مولى من الموالى وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى عروة بن أدية التميمي .

وليس الإمام في مثل هذه الدولة إلا واحد من الرعية لا يحتجب عنهم كذا فعل الخلفاء الراشدون وكذا كان طالب الحق في اليمن ، والكل يشهد أنه أحسن السيرة وكذا يشهدون في قائده أبى حمزة فلم يكن واحد منهما يعرف للحياة في القصور ولا بين القيان طعماً ، بل كانا

كأبسط واحد من الرعية، يسعدان لأفراحها ويألمان لآلامها، فالحاكمة لله وحده في هذه الأمة، ولا ننسى أن شعار هذه الطائفة من الناس من يومها الأول لا حكم إلا لله، وليست كلمة حق أريد بها باطل كما قيل، وإنما هي كلمة حق أريد بها حق، ولا منارة للحق إلا إذا خضع الحاكم والمحكوم لحكم الله المتجلي في كتابه الكريم وفي سنة نبيه الشريفة.

لا أريد أن أمضي في تفصيل ما جاء في القرآن الكريم من كليات في ضبط علاقة العدل والإنصاف بين طرفي الأمة، بين الراعي والرعية، أي بين الإمام والأمة، لأن هذا مبسوط في كتب الأحكام ولا تحفى على أحد، إلا أن المهم في أن هذه المعاني التي أشار إليها أبو حمزة جاءت قبل أن يعرف الناس التنظير، بل هي عند الأباضية خاصة أصل التنظير. ثم أن هذه السياسة قائمة على أساس أرقى من «أن نظهر نعدل في أحكامكم» وهو أساس «أحسن إلى من أساء إليك» وفعلاً فقد أساء أهل صنعاء وعلى رأسهم الوالي وعامله على حضرموت لطالب الحق، فما كان منه إلا أن عفا عنها، ومكنها من حريتها المطلقة، ولكن كما يقال أن اللئيم إذا أكرمه تمرّد كما سنعلم فيما بعد أن كل هذا كما نرى ليس مجرد قول، وإنما هو العمل إذ لا قيمة للقول والوعود بدون عمل، وما أكثر وعود الذين يتربعون على الكراسي في اليوم الأول، وما تربّع أبو حمزة على كرسي، وما كان يرغب، وإنما هو طالب حق مع طالب الحق وهمها في «أن نظهر نعدل في أحكامكم».

ولم يكن هذا النوع من الإمامة ليتوجه وجهة وراثية، وقد ذكرنا أن أبا حمزة ألح كل الالحاح في تحول الخلافة بين الخلفاء الراشدين على نفي عنصر القرابة والوراثة، وحقيق لمثل من يؤمن بهذا المبدأ أن يثور على حكم توارثه الأمويون قرناً من الزمن، جاثمين على صدور العباد، كأن البطون الأخرى عقلت عن ولادة الأئمة. أما عن العلاقة بين عناصر الأمة فهي الأخوة في الله وفي الله وحده «فأقبلنا من قبائل شتى قليلون مستضعفون في الأرض فأوانا الله وأيدنا بنصره وأصبحنا - والله الحمد - بنعمته إخواناً».

يا لها من أمة، أليست صورة طبق الأصل للأمة التي اجتمعت حول الرسول محمد عليه السلام، وخلفائه البررة الكرام، لا تربط بين أفرادها لا الرابطة العرقية البغيضة، ولا العلاقة المصلحية الآتية، وإنما هي الأخوة الصادقة لإعلاء كلمة الله. وإذا أردت أن تتعرف على معدن أفرادها فهم على عكس ما عرفت من قبل من انصار بني مروان، الذين غلب عليهم الشيطان، لأن هؤلاء إهتدوا بهدى الرحمن، وانطلقوا في محاربة الطغيان، ومهما أوتيت وأوتي عيري من بيان، فلن نصل إلى تعريف أصحاب أبي حمزة كما عرفهم هو في خطبته التي سارت بها الركبان، وصارت أحسن رمز للبيان، على مر الزمان.

لقد عيره أهل الحجاز بحدائثه أصحابه، فقلب الذم إلى مدح، وشاهده في ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، نعم إن أصحابه شباب ولكنهم ليسوا كالشباب، إذ يعلم الناس أن الشباب شعبة من الجنون، إنهم شباب في أجسامهم وأعمارهم لكن عقولهم إكتهلت واكتملت فهي في منتهى الرصانة لا يعرف التهور إليها سبيلا.

وقد كان لهذا الإكتهال أحسن الأثر في السلوك، فإن كان أمثالهم من الشباب يرتع، ويمرح، وينحرف، فإنهم أعرضوا عن الباطل إعراضا، وولوا وجوههم شطر الخير والصلاح، فعميت أبصارهم عن كل منكر، أما أرجلهم فلم تعرف إلى الحرام طريقا. ولم تكن هذه الإستقامة ناتجة عن الإكتهال فحسب، لأنه كم من كهل إنحرف، وكم من شيخ تصابى، وإنما هو التعايش المتواصل مع القرآن الكريم، لا يقرأونه فلا يتجاوز حناجرهم كما يدعي خصومهم الغارقون في القراءة التي لا تتجاوز الشفتين، وإنما هم بكاؤون عند قراءته على مسلك أبي بكر، يتضاعف هذا البكاء فيتحول إلى شهيق بين آيات الوعد وآيات الوعيد.

تلك هي حالهم أيام السلم تقوى وصلاح، وأخوة ووئام، حتى تخال أنهم لا يعرفون إلى ميدان الحرب سبيلا، ولكن أبا حمزة يفجؤك وهو يتحول بك مع هؤلاء في نصرة الحق، ومقاتلة الجحافل المناصرة للباطل، إنه إقدام منقطع النظير، تتلقى فيه الضربات بالنحور، لا بالظهر، ولأنهم الكرار وليسوا بالفرار، إنه الشراء في سبيل الله في أعلى مراتبه فأما النصر وإما الشهادة ولا ثالث لهما.

إنه لمشهد مثير يختم به أبو حمزة هذا التعريف بأصحابه الذين تحولت أعضائهم الطاهرة الزكية إلى أفواه السباع ومناقير الطيور الكواسر. إنه الترحم على شهداء الحركة بما فيه من دفع للأصحاب حتى يبقوا على العهد، وردع للأعداء الذين كانوا سببا في أن تتحول هذه الأعضاء الخاشعة، والعيون الدامعة، إلى أشلاء في أفواه السباع الضارية ومناقير الكواسر الجارحة.

أين هؤلاء من أولئك وشتان بين الثرى والثرية، وهل تقارن أسفل الدركات بأعلى الدرجات أولئك حزب بني مروان أنصار الشيطان، وهؤلاء حزب الرحمن، وأهل القرآن. بقيت السياسة المالية للإمامة التي يدعو إليها أبو حمزة الذي شنع بموارد بني أمية الحرام، وبنفقاتهم الحرام إنها تلخص في سطور قلائل «إن نظهر... نقسم بينكم»، «النفر منا على بعير واحد، وعليه زادهم، وأنفسهم، يتعاورون لحافا واحدا»، وهذا متى، بعد أن أظهرهم الله على اليمن، وآلت اليهم خزائن بني ثقيف ولالة اليمن التي جمعوا فيها الأموال تجميعا، وقد علمنا ما فعلوا بهذه الأموال، طبقوا فيها شرع الله إذ المال الذي جهل أصحابه الفقراء أولى به.

إنها سياسة تقوم على التقشف، أساسها رفض المال الحرام والإكتفاء بالحلل من الموارد التي حددتها الشريعة وهي ليست بالقليل عند أصحاب الصلاح، والناس جميعا على علم أن زكاة الأغنياء من المسلمين زمن عمر بن عبد العزيز كفت مؤونة الفقراء والمتزوجين والمدنيين.

تلك هي إذن إمامة من أجابوا داعي الرحمن، دستورهما القرآن، والقائم على حظوظها واحد من عباد الرحمن، تتم بيعته لتقواه، بقطع النظر عن لونه وقبيلته وجنسه، ولا حق له في أن يورثها لأحد من ورثته إذا تم له الأمر يعدل في الأحكام، ويحمل الناس على الشريعة السمحة ويعدل في القسم، يقول بأعلى صوته «الناس منا ونحن منهم إلا مشركا عابد وثن، أو كافر من أهل الكتاب، أو إماما جائرا» وهذا يصبح الناس في إمامته إخوانا يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة، يعيشون مع القرآن الكريم، وبالقرآن، وللقرآن «أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود» [٤٨ الفتح ٢٩]، لا تأخذهم في الله لومة لائم شروا أنفسهم إبتغاء مرضاة الله، همهم إما في تحقيق الإمامة العادلة أو الفوز بالشهادة.

٦ (أخطاء حركية :-

لقد إنتصر أبو حمزة إنتصارا باهرا في معركة قديد، وهذا تكون إمامة إلاباضية قد أحرزت على إنتصارين لم تكن الدولة الأموية المحتضرة تقرأ لها حسابا، ولكن شأن هذه الدولة كشأن كل مختصر أبت الا ان تبرز قدرتها قبل أن تلقي أنفاسها الاخيرة.

وإن عرفنا من قبل عوامل النصر فوجب أن نتساءل عن عوامل الفشل إذ كان النصر بقديد النصر الثاني والأخير وتبعته سلسلة من الهزائم كادت تمحو الإلاباضية من الخريطة محوا.

ولا تعتبرون ما سنبديه على هؤلاء الأبطال من تعليقات إستقصا لهم وتقليل من قيمتهم، وإنما هو البعد عن المكان والزمان من شأنه أن يمكن الناقد من الإلتباه إلى بعض العثرات، وما إدعى عبد الله بن يحيى ولا أبو حمزة أنها معصومان من الخطأ، ولا نشك في أنها أخلصا لحركتهما إخلاصا منقطع النظر، وفي أنها أحبا الخير للعالمين، وورعا في تحقيق الإمامة العظمى في طرفة عين - وليست الأيام القلائل التي تقلد فيها الأمر - إلا لحظات في حياة الأمم.

* إنها السرعة لإيصال الخير إلى الناس :-

كان أولى في رأينا بطالب الحق أن يكتفي باليمن إلى حين، وذلك حتى يوطد أركان الإمامة في هذا الطرف البعيد عن مركز الدولة الأموية التي يستحيل سياسياً أن تسكت عن هذه الخسارة لولاية كانت تدر عليها من الأموال الكثير ومن الأنصار غير قليل.

وتوطيد الإمامة يعني ترويض الناس على العدل، وهذا لا يمكن أن يتم بين عشية وضحاها، فأنى لأناس وهم أغلب أهل البلد، يخالفون الإمام في الفرة والمذهب ويعتقدون في قراره أنفسهم أن الإمام مغتصب، وأن الحق مع بني أمية، لأن الدعاية الأموية عودتهم على ذلك، فهم السلف، وهم بالمصطلح المتأخر أهل السنة والجماعة، بينما عبد الله ابن يحيى وإن أثبت لهم العدل ما أثبت خارجي مارق ضال.

إن هذه المفاهيم التي رسخت في أذهان أغلب الرعية في اليمن وغيرها، لا يمكن أن تستأصل إلا بمر الزمن عندما تقوم التجربة الواقعة مقام الدعاية - ولا بد من أن يقرأ لهذه الدعاية التي لا تتوقف ألف حساب. صحيح أن الناس إنتهوا يوماً، فاستمعوا إلى بيان لم يسبق لهم أن استمعوا إلى مثله في حياتهم، لكن أتظن أنهم يصدقون لأول وهلة؟ وهم الذين نشئوا على سوء الظن، وكم مناهم ولاتهم الأماني ووعدهم الوعود فأخلفوا، أليس هذا الخطيب بشراً كبقية البشر؟ ألا يمكن أن يخلف الوعود، بل هو إلى ذلك أقرب لأنه خارجي؟.

وإن كان دخول حضرموت على حين غفلة من أهلها فإن صنعاء مع القاسم الثقفي قد خسرت الناس فيها من جراء ثورة طالب الحق الكثير من آباءهم وأبنائهم وأقاربهم، فلا يمكن أن ينظروا إليه إلا بمنظار مغتصب الحق من أهله، ووقفتهم مع الوالي الثقفي، رغم إعترافيهم بظلمه أحسن دليل على ذلك. ومهما كان عدد الإباضية الموجودين هناك، والوافدين من المواطن الأخرى يصعب أن يقبلهم أهل صنعاء بصدر رحب فإنهم في رأيهم أهل فتنه وشغب، لا دعاة عدل وصلاح.

كل هذا يمكن أن يصلح لكن بخطة محكمة طويلة المدى تحول أنصار بني أمية إلى الولاء للإمام وأصحابه، وهذا يحتاج إلى تجنيد كل الذين أرسلوا إلى الحجاز والشام وغيرهم ليعرفوا الناس بحقيقة عقيدتهم ومذهبهم، مع العلم أن من نشأ على الجبر والإرجاء بصعب أن يتحول بسهولة إلى عقيدة الكسب والإقرار بعدم الخلف بالوعيد، والربط بين القلب واللسان والجوارح في الإيذان.

لكن أهل اليمن لم يروا إلا أمورا لعلمهم إلى الإستخفاف بها أميل ، ما لهذا الرجل يفرغ خزينة الدولة ليوزعها على الفقراء ودولته في أشد الحاجة إليها ، أنه حق ولكنه يصعب أن يستساغ لدى من لم يتعود على الحق ؟ ما لهذا الامام يعفو عفوا مطلقا عمن لو وقع في يديه لذبحه ذبحا ، وأرسل برأسه إلى دمشق ؟ أليس هذا العدو الذي ناصبه العدا ، وأعلن الحرب بقادر على ان يعيد الكرة ، او على الاقل ان يطلع سادته على خطط الامام واصحابه في الحرب والسلام ؟ ألم يكن من الاولى على الاقل ان يحتفظ بالوالي وعامله هذا العامل الذي خان مرتين الى حين حتى تتضح الامور مع ردود الفعل لذي الدولة في مركزها ؟ .

لكن الإمام سلك هذا المسلك عن حسن نية ، وأراد فعلا أن يبرهن لأهل اليمن وغيرهم إنهم بحق ليسوا طلاب ملك ، لأن مثل هؤلاء الناس إذا أدركوا الكرسي لا يفكرون إلا في إستبقائه ولو بوجوه الحرام ، لكن طالب الإمامة بمعناها السياسي يسعى بأن يكن مثالا رجاء أن ينضم إليه الناس عندما يرون أنه على حق ، لكن أنى للمحموم أن يرى العسل حلوا ، قد أفسد الداء حاسة الذوق فيه ، إن طعم العسل لم يتغير ولكن ذوق المحموم يعفن ، كذا حالة أهل اليمن وغيرهم آنذاك ، أفسد الظلم أذواقهم ، فلا بد لهم من علاج ، وفي الأغلب لا يكون الدواء إلا مرا ، ولن نقول بمرارة كمرارة التي يذيقها الأمويون لمخالفيههم ، وإنما شيء منها مما تتحمله أحوال الحرب ولكل مقام مقال ، وسنرى كيف أن علي بن الصحن عندما إحتج لديه أبو حمزة بيسرة السلف قال لكم زمان سيرة ، ألم يأمر الرسول عليه الصلاة السلام بقتل بعض المخالفين ، ولو تعلقوا بأستار الكعبة ؟ لكن للإمام عذره لأنه أبى إلا أن يكون مثالا في الإلتزام بالمبدىء ، محسنا الظن بالناس ، فلم يكن منهم إلا أن قابلوا الإحسان بالإساءة فالذنب ليس ذنبه ، وإنما هو ذنبهم ، وأجره عند الله كامل .

* لماذا الحجاز ثم الشام في ظرف شهر ؟

لقد استطاعت الدولة الأموية رغم تصدع أركانها أن تصد جميع الهجومات الثورية لكنها تحطمت أمام بناء الملك الجدد الذين كانوا من نفس الطينة ، خططوا وتربصوا ، وانتظروا الفرصة السانحة ، فادركوا الملك الذي يطلبون ، ولم يربح العالم الإسلامي إلا تغير الاسم من عصبية أموية إلى عصبية عباسية توارث أصحابها الملك ردحا من الزمن ليس بالقصير .

إنطلق أبو حمزة بعدد قليل ، وبإيمان راسخ ، ليجهز على الدولة الأموية في عقر دارها وكما علمنا كانت الخطة أن ينقسم هذا القليل إلى شطرين نصفه للحجاز والنصف الآخر لبلاد الشام .

وفعلا استطاع هذا العدد القليل أن يحقق ما كان إليه يصبو في الحرمين الشريفين، وكم كان يرجو أن يكون ذلك بدون إسالة دماء، إنه إحسان الظن بالناس، إذ بتصور أبو حمزة أن أهل الحجاز وهم الذي يعبرون عن مقتهم للحكم الأموي لما أذاقهم من القهر سيكونون معه، وخاصة أنه قد سبقته أخبار حسن سيرة طالب الحق باليمن، لكن حسن الظن هذا كذبه الواقع ذلك أن أهل المدينة خرجوا بكل ما يقدرون عليه من قوة لا لصد أبي حمزة عن المدينة، وإنما للحيلولة دون وصوله إلى الشام، والحقيقة كما يقال أن الناس على دين ملوكهم، وأن للدولة الأموية واحد من أبنائها ينعم بكل خيرات الحجاز مع بني عمه في دمشق فكيف يترك هذا الخير كله ليصير واحدا من رعايا إمام متقشف.

أوقائد جيش جنوده يتداولون على جمل واحد، ويتعاورون لحافا واحدا، أنى لعبد الواحد أن يترك هذه المعاني إنه الولاية وإنه التوق إلى الملك، وواحد منها يعمى ويصم، فكيف إذ اجتمعتا، نعم عندما فوجيء استسلم وذلك شأن الراغبين في الملك، إنه لم يثنه ذلك ولم يؤثر فيه هجاء الهجائين، وإنما هو المكر والتخطيط لذلك حالما حل بالمدينة زاد في العطاء، وجمع قواه وبين لبني عمه أنه درعهم الواقى ولعل هذا النصر يوصله إلى الشام حيث القصور، وحيث النداء بأمير المؤمنين لم لا؟ فيكن حينئذ بإيقاف هذا المد الإباضي - الخارجي عنده - عند هذا الحد.

وقد التف حوله من أول وهلة كل أهل المدينة ونصيب منهم من قريش وهم يعلمون موقف أبي حمزة من جعل الإمامة حقا من حقوق المسلمين جميعا مع عدم إعترافيهم بإمامة الإمام الذي يدعو إليه، ومروان مهما يكن من أمر أقرب إليهم نسبا، وعلى ما يرتضون من حيث منهج الحكم، إذ وإن اغتصب أموال فانه يغدق الخيرات على أنصاره ويجازيهم أحسن الجزاء بما يشتهون من المال والعبيد والإماء، وذلك ما تعود عليه هؤلاء الناس.

كل هذه المعاني تصور أبو حمزة أنها تتبخر أمام صولة الحق، وأمام الدعوة إليه، وظل صامدا إلى آخر لحظة أمام أهل المدينة عسى أن تفيدهم الحجة وأن ينضموا تحت لوائه ليتعاونوا جميعا على الإطاحة بالبغي والبغاة لكن أبي هؤلاء إلا أن يبدأ بالقتال فهناك فقاتلهم مضطرا، وكان ما كان مما يكره أبو حمزة ولكنه الواقع.

وإنسرى حمزة كما رأينا طيلة ثلاثة أشهر يسعى إلى رتب الصدع وهؤلاء الناس يعبرونه بأصحابه ويسخرون منهم، ومن سلوكهم المتقشف الزاهد، نعم إنه ترف هؤلاء الناس، ترف بلد الأذواق، وأفسد الطباع، لم يرتق الصدع بحد السيف عدا ما اضططر إليه من قتل بعض القرشيين في نهاية المعركة نزولا عند رغبة أصحابه وعلى رأسهم الخير بشؤون أهل الحجاز أبو

الحر علي بن الحصين، وإنما عمد إلى إبيان فيئ هؤلاء الناس غفلتهم عن حقيقة أمرهم عسى أن يكونوا من التائبين، وبسيرة سلفهم مقتدين، لكن هذه الصراحة لم تزد القوم إلا عنادا، ومكثوا يتربصون، ومع مركز الخلافة يخططون.

وفعلا ما هي إلا شهور ثلاثة حتى عادت إلى الباطل صولته، وانقض بقضه وقضيضه على دعوة الحق وكانت الجولة له في هذه المرة.

نعم إن أبا حمزة وأصحابه تصورا أنهم بوصولهم إلى تخليص الحرمين على مرأى ومسمع من الحجاج من أطراف الأمصار سينضم إليهم كل صوت لإحياء الإمامة العادلة ولكن هؤلاء جميعا بقوا متفرجين، وكانوا لمن له الغلبة ولو كان جبارا مناصرين.

ذاك هو عمر الإمامة العادلة في الحرمين الشريفين أيام قلائل مع أبي حمزة الشاري، تصدى للحفاظ عليها، ولنشر رايبتها في أطراف البلاد بكل ما يملك من قوة فاستشهد دونها وأصحابه وتبعهم بعد حين إمامهم، وعاد الباطل إلى صولته الأموية ثم تبعها الصولة العباسية والله في خلقه شؤون وله الأمر من قبل ومن بعد وهو على كل شيء قدير.

وهكذا يبدو أن عمر الخير قصير، وحتى من أراد الخير قبل إلى حمزة من صلب الدولة الأموية لم يعمر إلا قليلا وأبى الباطل إلا أن يصول فبيت لعمر السم كما بيت لأبي حمزة وأصحابه المحاربة والتقتيل، وما ضره أن يبقى جسده مصلوبا ورأسه في متحف الأمويين محفوظا ما دامت روحه في جنات النعيم.

- ١ (الأغاني ١٢١/٢٣ .
- ٢ (ن . م ١١٧/٢٣ .
- ٣ (الشماخي - سير ١٠٠ .
- ٤ (الأغاني - سير ١١٧/٢٣ .
- ٥ (الأغاني - ١١٧/٢٣ .
- ٦ (ن . م - ١١٧/٢٣ .
- ٧ (ن . م - ١١٧/٢٣ .
- ٨ (الشماخي - سير ١٠٠ .
- ٩ (ن . م - ١٠٠ .
- ١٠ (الأغاني ١١٧/٢٣ - ١١٨ .
- ١١ (الأغاني ١١٨/٢٣ .
- ١٢ (ن . م - ١١٨/٢٣ .
- ١٣ (مهدي طالب هاشم - الحركة الإباضية نقلا عن البلاذري وخليفة ابن خياط .
- ١٤ (الأغاني ١١٩/٢٣ .
- ١٥ (الأغاني ١١٩/٢٣ .
- ١٦ (ن . م - ١٢٣/٢٣ .
- ١٧ (ن . م - ١٢١/٢٣ .
- ١٨ (ن . م - ١٢٣/٢٣ .
- ١٩ (ن . م - ١٢٣/٢٣ .
- ٢٠ (ن . م - ١٢٣/٢٣ .
- ٢١ (ن . م - ١٢٤/٢٣ .
- ٢٢ (ن . م - ١٢٤/٢٣ .
- ٢٣ (ن . م - ١٢٣/٢٣ .
- ٢٤ (ن . م - ١٢٤/٢٣ .
- ٢٥ .
- ٢٦ (ن . م - ١٢٥/٢٣ .
- ٢٧ (ن . م - ١٢٦/٢٣ .
- ٢٨ (ابن عبد ربه أحمد بن محمد (٩٣٩-٣٢٨) العقد الفريد تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري - ط ٢ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٣٨١/١٩٦٢ - ٥٤/٥ .
- ٢٩ (القاضي عبد الجبار (١٠٢٥/٤١٥) كتاب فضل الاعتزال ١٤٣-١٤٤ .

الفصل الثالث النكبة والإستشهاد

(١) التعبئة الأموية :-

توافد الولاة المغلوبين على قصر الخلافة فأطلعوا خليفتهم على حقيقة ما يجري باليمن والحجاز فأثاروا فيه الحمية وأعتذروا لما أصابهم من إنكسار ودفعوه إلى الأخذ بالثأر.

«وما كان مروان أن يسكت، وهو الذي ما يزال من يومه الأول يعمل على تثبيت عرش الأجداد حتى يصل إلى الأبناء والأحفاد، وحتى لا تكون النهاية على يديه على الأقل، وبأيدي قلة قليلة من الشراة الذين لم يقرأ لهم أحد حساب، وفعلا قرر الانتقام لنفسه ولآل مروان فانتخب من عسكره أربعة آلاف واستعمل عليهم عبد الملك بن عطية السعدي فأمره بالجد والسير، وأعطى كل رجل من أصحابه مائة دينار، وفرسا عربيا، وبغلا لثقله، وأمرها أن يمضي فيقاتلهم»^(١)

ولم يكن قبول عبد الملك بن عطية لقيادة هذه الحملة لوجه الله وإنما كان مقيدا بشرط «وشرطوا على مروان أنه اذا قتلوا عبد الله ابن يحيى وأصحابه رجعوا إلى الجزيرة، ولم يقيموا بالحجاز فأجارهم إلى ذلك»^(٢).

واضح أنه لم يكن هم هؤلاء من الحملة نشر الخير في الحجاز أو حيثما حلوا، وإنما كان همهم في العودة إلى الجزيرة حيث يكونوا إلى العرش أقرب وحيث الاستفادة أيسر.

وفعلا مضى هذا الجيش الذي كلف الخزينة ما كلف ليثبت عرش بني مروان في الحجاز واليمن، وماذا يهم حتى وإن استنفذ الخزينة كلها فالضرائب عند الحاجة تعوض الأساس، وإن يستقر في العرش وإن هلك الناس جميعا، إن هؤلاء لا يتعاورون لحافا واحدا وإنما لكل واحد دابتان ومائة دينار مع وعود لا تخطر على بال إذا تم النصر. كما أن هذا الجيش عبى أيضا نفسيا حتى لا يكون متهورا، إنهم الشراة، وإنهم الفرصة الأخيرة لمسح عار الهزيمتين السابقتين، ومهما يكن من أمر فإن للعدد قيمة، وفعلا إنطلق الجيش متفائلا ومتخايلا بهاله من صولة وعدة وعدد.

(١) الاغاني ٢٣/١٤٠ .

(٢) ن . م - ٢٣/١٤٥ .

ماذا تظن أن أبا حمزة فاعل أمام هذا الجيش العرمم أنتصور أنه يخطر بباله أن يتراجع أو أن يجزع كلا لا سبيل إلى ذلك، إنه الشراء مهما كان الثمن، إنها الشهادة المطلوبة أو الإمامة المنشودة وكلاهما خير.

٢ (الهزيمة في الميدان :-

* معركة وادي القرى :

ما أن بلغ أبا حمزة خبر إقبال جيش الشام - وكم كان يرجو لو أنه هاجمه في عقر داره، كما كان الأمر مقررا من قبل - حتى بعث قائده بلج بن عقبة في ستمائة رجل للقائه .

ستمائة همهم أن تكون كلمة الله هي العليا، ولم يهلمهم ما رأوا من امتداد جيش عبد الملك بن عطية لأنهم على يقين أن هؤلاء على باطل، فإن انتصروا فإنها الإمامة وإن غلبوا فإنها الشهادة . إنهم أربعة آلاف همهم نصره آل مروان والرجوع إلى الجزيرة، دوى الأفق بصهيل خيولهم، وقعقة سيوفهم إستعدادا لتحقيق غرض الخليفة والذود عن مركزها ببلاد الشام .

وانطلقت المناقشات بين الطرفين بعد أن تراءى الجمعان واحتل كل مكانه استعدادا للمواجهة، فلم يكن من بلج أن أقام الحجة فدعا عبد الملك بن عطية ومن معه إلى كتاب الله والسنة مذكرا بانحراف بني أمية، وبظلمهم، وبأن بغيتهم في نصره الحق وإحياء الإمامة العادلة .

ولكن ما كان لابن عطية أن يسكت وهو الذي جاء معتزا بالسلطان، ومعتبرا ألا حق إلا مع بني مروان، فانهال على أبي حمزة وأصحابه شتما وسبا، واحتقارا، معتبرا إياهم أعداء الله ومبينا أنهم أحق بأن يوصموا بالظلم من بني أمية الذين لم يعرف المسلمون معهم إلا خيرا .

ال الجولة الاولى :

وعلى مسلك الشراة القائم على السرعة في الهجوم لا دخال الخلل في جيش العدو حمل بلج وأصحابه على جيش الشام فأنكشفت طائفة منهم وكاد الجزع يدخل في هذه الألوف المؤلفة، لكن عبد الملك كان عليما من قبل بمثل هذه الخطة التي ينتصر بها العدد القليل على العدد الكبير، ولا شك أن القاسم الثقفي قد وصف له ذلك ونبهه من خطر الانقضاض من الشراة الذين يطلبون الموت كما يطلب غيرهم الحياة، لذلك فانه صمد مع عصابة ممن كانوا معه وكانت الجولة الثانية .

ال الجولة الثانية :

نادى المنادي أمام هذه الهجمة من بلج بن عقبة التي كاد ينهد لها جيش الشام «يا أهل الشام، يا أهل الحفاظ، ناضلوا عن دينكم وأميركم» فثارت فيهم الحمية والكبرياء وعوض أن يتفرق شملهم ويولوا هاربين وقفوا صامدين «فكروا وصبروا صبرا حسنا وقاتلوا قتالا شديدا» وهنالك صبوا ثقلهم على القائد وهم يعلمو أنه يعدل ألفا، وهم يعلمون أنهم لو قتلوه قاربوا النصر، وفعلا لم يستقر لهم قرار حتى قتلوا بلجاً والكتيبة التي كانت تشدد عضده وهذا تصورا أن المعركة انتهت في يومها الأول لكن كانت الجولة الثالثة بعد استشهاد القائد .

الجولة الثالثة :

لم يبق من جيش بلج إلا سدسه بعد أن استشهد في الجولتين السابقتين خمسمائة فانجاز هؤلاء المائة إلى جبل من جبال المدينة بقيادة أبرهة بن عبد الله بن الصباح الحميري، واستمرت المناورات بينهم وبين جيش ابن عطية ثلاثة أيام في كل مرة يقذفون ببعض من فيقتلون من الجيش الأموي ما شاء الله، لكن الكثرة تحدد بهذه القلة وتعمل على إبادة ما كان الثمن إلى أن أحس أبرهة أنه لم يبق من أصحابه إلا ثلاثون حسب رواية الأغاني فعبهم الجبل في ظلام الليلة الرابعة ليلتحقوا بأبي حمزة في المدينة ظانين أنهم فروا من الزحف إلا أن القائد طمأنهم أنهم ليسوا فرارا وإنما هو لهم فئة وإليه إنحازوا كما يقول الله تعالى ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ [٨ الأنفال ١٦] .

وهكذا تنتهي هذه المعركة بعد أربعة أيام أذاق فيها الشراة الجيش الشامي الولايات إذ كاد هؤلاء على قلة عددهم أن ينتصروا في الجولة الأولى لكن العدد المدرب والعدة قد غلبت هذه المرة وما ذلك بغريب في المقاييس العسكرية، ولم يطمئن بال ابن عطية إلا بعد أن تأسى بأسلافه من قواد الجيش الأموي فنصب رأس بلج على رمح وطاف به في أطراف جنده، ولكن ما كان رأس بلج يبتغي وإنما هم في رأسين آخرين، أبي حمزة والإمام عبد الله، وليبدأ بأقربهما إليه في المدينة .

٣ (معركة مكة ٧٤٧/١٣٠ واستشهاد أبي حمزة :-

بعد أن وصل أبرهة إلى المدينة أدرك أبو حمزة أنه لا سبيل إلى مواجهة ابن عطية إلا بوصول المدد من اليمن وليكن ذلك في مكة المكرمة فستخلف الفضل على المدينة وتوجه نحو مكة .

ويبدوا أن أبا حمزة أخطأ في هذا الإجراء لأنه يعلم ما يكن أهل المدينة لأصحابه من عدا، وأن ابن عطية مدرّكهم لا محالة، ولا قدرة لهم للوقوف أمامه، فكان أولى أن يترك المدينة، وأن يأخذ معه كل أصحابه إستعداد للمواجهة الحاسمة.

وفعلا لم يكن من عمر بن عبد الرحمن ابن الخطاب إلا أن جمع السوق والبربر والعبيد، وهجموا على المفضل وأصحابه فقتلوا من أدركوا منهم وفر الباقون مدرّكين أصحابهم بمكة وفي ذلك يقول الشاعر:

ليت	مروان	رأنا	يوم	الإثنين	عشية
إذ	غسلنا	العار	وانتضينا		المشرقية

وهكذا كفى عمر هذا عبد الملك بن عطية المؤونة فدخل المدينة وعادت للدولة الأموية بعد أن خلت من الإباضية وأقام هناك شهرا إستعدادا لاقتناص رأس أبي حمزة، وهو ليس منه ببعيد إذ علم أنه توجه إلى مكة، وفي مكة - حتى وفي هذا الظرف الحرج - يبقى أبو حمزة طالب إمامة محافظا على العهود والإلتزامات، لكن ليت الأطراف المقابلة تفعل بالمثل، وهذا ما اعتبره أقرب أصحابه إليه من الأخطاء الحركية فأبو الحر على بن الحصين ما يزال يلح عليه بأن لكل زمان سيرة، ولكن أبي حمزة أبي إلا أن يقف عند الحدود الملتزمة وبما أن أهل مكة قد دخلوا في الطاعة فلا سبيل إلى أعمال السيف فيهم، وتأمل في هذه المحاورة بين أبي حمزة وأبي الحر «فقال له (لأبي حمزة) أنى قد كنت أشرت عليك يوم قديد وقبله أن تقتل هؤلاء الأسرى كلهم فلم تفعل، وعرفت أنك سيغدرون فلم تقبل، حتى قتلوا المفضل وأصحابنا المقيمين بالمدينة، وأنا أشير عليك اليوم أن تضع السيف في هؤلاء فإنهم كفر فجرة ولو قدم عليك ابن عطية لكانوا عليك أشد منه فقال: لا أرى ذلك لأنهم قد دخلوا في الطاعة، وأقروا بالحكم، ووجب لهم حق الولاية، فقال: إنهم سيغدرون فقال: أبعدهم الله «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه» [٤٨ الفتح ١٠]»^(١)

والفارق واضح بين الرجلين إذ أراد أبو الحر أن تطبق أحكام الحرب كاملة حتى بعد أن تحط الحرب أوزارها، وذلك لخبرته بأستعداد أهل المدينة وأهل مكة للقدر، بينما ميز أبو حمزة بين الحرب والسلم فإذا حطت الحرب أوزارها فلا سبيل إلى القتل، وما دامت بيده القيادة فقد طبق سيرة السلف كاملة، واعتبر من الغدر أن يقتل هؤلاء الذين دخلوا في الطاعة ولكنهم في الحقيقة مكرهون على الطاعة فما أن حانت الفرصة حتى صدق فيهم قول أبي الحر، وهو بهم عليم، لأنه بينهم مقيم، منذ أمد من السنين.

المواجهة الأولى للمعركة :

ما يزال ابن عطية يستنبط الخطط المضادة لمسلك أبي حمزة على قلة عدده إلى قسمين فصير طائفة بالأبطح، وتولى هو الطائف الثانية بأسفل مكة إزاء أبي حمزة.

ومن وفاء أبي حمزة للمبدئ الذي يتمثل في إقامة الحجة على الطرف المقابل لما التقى بابن عطية قال: «لا تقاتلوهم حتى تخيروهم، فصاح بهم، ما تقولون في القرآن والعمل به؟ فصاح ابن عطية: نضعه في جوف الجوالق، قال: فما تقولون في مال اليتيم؟ قال: نأكل ماله ونفجر بأمه... فلما سمعوا كلامهم قاتلوهم...»^(٤)

وفعلا اضطرب أبو حمزة أن يوجه أبرهة في ثمانين فارسا إلى الأبطح فقاتل أهل الشام قتالا مريرا وهزمهم إلى عقبة منى، وهكذا أفلح أبرهة في الجولة الأولى ولو كان وراءه مدد لاستطاع أن يواصل النصر ولكن أين العدد والقسم الثاني من الجيش في المواجهة الثانية، وهناك وقف أهل الشام على عقبة منى وكروا بعددهم وعدتهم وهم على علم بأن العدد المقابل قليل وعملوا على قتل القائد ولكن لا عن طريق المواجهة في هذه المرة وإنما كمن له ابن هبار القرشي وهو على خيل دمشق فقتله عند بشر يقتلونهم حتى دخلوا المسجد، وهكذا سقط القائد الثاني من أعضاد أبي حمزة في المواجهة الأولى فلم يبق له إلا أن يحسم الموقف بنفسه.

المواجهة الثانية :

وتم اللقاء بين ابن عطية وأبي حمزة في أسفل مكة وكان ضاريا في بداية المواجهة لكن ما أن علم أهل مكة بانكسار المواجهة الأولى حتى أقبلوا يزفون، وصدق فيهم قول أبي الحر لأبي حمزة «ولو قدم عليك ابن عطية لكانوا أشد عليك منه» وحوصر أبو حمزة بمن معه بين فكين فقاتلوا إلى آخر رمق واستشهد أبو حمزة الشاري واستشهد معه زوجته وهي ترتجز:

انا الجعيدة بنت الأعلم من سأل عن إسمى فاسمى مريم
بعث سوارى بسيف مخذم

ولم يبق بعد أبي حمزة من رؤوس الحركة إلا أبو الحر علي بن الحصين، ولم يطمئن الأصويون إلا بعد أن حاصروه في دار من درو قریش فأضرموا فيها النيران مما دفعه إلى أن يرمى بنفسه فقاتلهم حتى أسروا ما كان هؤلاء أن يعفوا عن الأسرى وخاصة على رجل من أمثال أبي الحر الذي انفلت من أسرهم من قبل بأعجوبة فقتل.

وهكذا أفلحت خطط عبد الملك بن عطية العسكرية التي أدخلت الإرتباك في الأقلية الإباضية مع ما ظهر من سلاح جديد لم يعرف من قبل «ومنهم من عليه درعان أو درع وسنور وتجايف وعدة لم ير مثلها في ذلك الزمان»^(٥) ، وهذا ما جعل ضربات أبي حمزة وأصحابه تذهب سدى .

ثم أقبل ابن عطية في صولة النصر ياسر من بقي من أصحاب أبي حمزة فإذا بهم أربعمئة فدعا بهم لينتقم الإنتقام الأخير .

وعلى طريقة الأمويين لا يشفى غليلهم بعد تحقيق الغلة إلا صلب أجساد رؤوس الحركة «الخارجية» وفي هذه المرة كان الصلب من نصيب أبي حمزة وأبرهة بن الصباح وأبي الحر علي بن الحصين ورجلين من أصحابهم على فم شعب الخيف ، «ولم يزالوا مصلوبين حتى أفضى الأمر الى بني العباس» وحج مهلهل الهجيمي في خلافة أبي العباس فأنزل أبا حمزة ليلا فدفنه ودفن خشبته^(٦)

أما البقية الباقية من أصحاب أبي حمزة فإنهم التحقوا بالإمامة باليمن وتروى المصادر أن البعض منهم التحق بالبصرة مركز الدعوة .

وهكذا بعد هذه المعركة الضارية عادت الحجاز إلى دائرة العسف والظلم بعد أن حرص أبو حمزة على إذاقة أهلها لذة العدل والإنصاف ما يقارب السبعة أشهر ابتداء من دخولهم في التاسع من ذي الحجة ١٢٩/٧٤٦ حتى لحظة استشهاد أغلبهم في معركة مكة التي كانت في نهاية جمادي الثانية أو بداية شهر رجب ٣٠/٧٤٧ .

وبهذه الصورة تنتهي حياة المجاهد أبي حمزة الشاري الذي أبي إلا أن يموت شهيدا وهو في ساحة القتال ، شهيدا من أجل نصرة الحق ، شهيدا من أجل أحباط الباطل ، شهيدا من أجل إحياء الإمامة العظمى ، ويبقى جثمانه مصلوبا سنتين كاملتين صامدا لعوادي الزمن ليشهد سقوط الدولة التي طالما رجا من الله سقوطها ، لكن لا لتقوم الإمامة وإنما لتحل محلها دولة أخرى لا تقل عنها جورا .

أما رأسه فقد نعم بها لم ينعم به في حياة صاحبه إذ وصل إلى قصر مروان ونحن نعلم أن أفخم هدايا أنصار الخليفة رؤوس الذين يدعون إلى حكم الرحمن ويلحون على مخالفة حكم مروان . ويكفي أبا حمزة ومن معه فخرا أنهم لم يجزعوا كما هو شأنهم أمام العدد والعدة ولم يستسلم واحد منهم مع حفاظ على ما ألزم به من المبادئ تجاه الذين أقرؤا بالطاعة فلم يلتق الله خائنا وإنما كانت الخيانة من قبلهم في مكة والمدينة .

(٥) الطبري - تاريخ - ٣٣١/٤ . (٦) الاغانى - ١١٤/٢٣ . (٧) ن . م - ١٤٤/٢٣ .

ويكفيه فخرا انه دوخ الدولة الاموية بمن معه من فئة قليلة لم تتجاوز الالف في اغلب المواجهات فنهضت بطم طميمها وهيأت من العتاد ما لم يعرف له مثل في ذلك الزمان ومع ذلك لم يكتب لها الغلبة إلا بعد جهد وعناء واثبتت مرة اخرى ظلمها وعسفها مع قائدها عبد الملك بن عطية السعدي على عكس ما بين طالب الحق وقائده ابو حمزة من شيم في الحرب والسلم كانت وحدها جديرة - لو كانت للناس عقول - بأن تحول مجرى التاريخ في اتجاههم ، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، وفعلما ما تزال رياح القهر عاصفة والناس من حولها يهتفون لانها اذا سكنت وحلت محلها نسمات العدل يكونوا اول من يخنق بها اذ في نفحاتها لا سبيل لهم إلا أن يكونوا «من الذين في كل واد يهيمون» .

نعم هذا هو ابو حمزة لقد عاش حميدا ومات شهيدا وما يزال كلما ذكر الشراء اعتبر رمزا من اهم رموزه ، وكلما ذكرت الخطابة شهد الناس انه علم من اعلامها ، ومن منا لم يتعاش مع بعض هذه الخطب وخاصة منها تلك التي ينوه فيها بخصال اصحابه في السلم والحرب «شباب والله مكتهلون في شبابهم» ، وأحسن ما نورد هنا مرثية عمر بن الحصين - ويقال الحسين - العنبري مولى لهم في عبد الله بن يحيى وابي حمزة واصحابها .

حقا انها مرثية لا تبعد في جودتها عن خطبة ابي حمزة في تعريف اصحابه والنصان ينبعان من مشكاة واحدة اساسها المحبة المخلصة لشباب الحركة الاباضية الذي ابى إلا ان يبيع نفسه في سبيل احياء الامامة العظمى التي اندرس رسمها تحت سياط بني امية وسيوفهم وسنابك خيولهم .

يا رب فاسلكني سبيلهم	ذا العرش واشدد بالتقى أزري
في فتية صبروا نفوسهم	للمشرفة والقنا السمر
تالله القى الدهر مثلهم	حتى اكون رهينة القبر
اوفي بدمتهم اذا عقدوا	وأعف عند العسر واليسر
متأهلين لكل صالحة	من لاقوا عن النكر
صمت اذا احتضروا مجالسهم	أذن لقول خطيبهم وقر
الا تحيهم فأنهم	رجف القلوب بحضرة الذكر
متأوهين كأن جمر غصا	للخوف بين ضلوعهم يسرى
تلقاهم إلا كأنهم	لخشوعهم صدورا عن الحسر
فهم كأن بهم جوى مرض	او مسهم طرف من السحر
لا ليلهم ليل فيلبسهم	فيه غواشي النوم بالسكر

ألا	كذا	خلصا	وأونة	حذر	العقاب	وهم	على	ذعر
كم	من أخ لك	قد فجعت به		قوام	ليلته	إلى	الفجر	
متأوه	يتلو	قوارع	من	أي	القرآن	مفزع	الصدر	
نصب	تجيش	بنات	مهجته	بالموت	جيش	مشاشة	القدر	
ظمان	وقدة	كل	هاجرة	تراك	لذته	على	قدر	
تراك	ما تهوى	النفوس	إذا	رغب	النفوس	دعت إلى	النذر	
ومبرأ	من	كل	سيئة	عف	الهوى	ذو مرة	شذر	
والمصطفى	بالحرب	يسعرها		بغبارها	وبفتية		سعر	
يختاضها	بأقل ذي	شطب		عضب	المضارب	قاطع	البت	
لا شيء	يلقاه	أسر له		من	طعنة	في ثغرة	النحر	
كخليلك	المختار	أذك به		من	مغتد	في الله أو	مسرى	
خواض	غمرة	كل متلفة		في	الله	تحت العثير	الكدر	
تراك ذي	النخوات	مختضبا		بنجيسة	بالطعنة		الشذر	
وأبن الحصين	وهل له	شبه		في	العرف	أنى كان	والنكر	
بسامة	لم تحن	أصلعه		لذوي	أخوته	على	غمر	
طلق	اللسان	بكل محكمة		رآب	صدع	العظم	ذي الوقر	
لم ينفك	في جوفه	حزن		تغلى	حرارته		وتستشرى	
ترقى	وأونة	يخفضها		بتنفس	الصعداء		والزفر	
ومخالطي	بلج	وخالصتي		سم	العدو	وجابر	الكسر	
نكل	الخصوم	إذا هم	شغبوا	وسداد	ثلثة	عورة	الثغر	
والخائض	الغمرات	يخطر	في	وسط	الأعادي	أيما	خطر	
بمشطب	أو غير	ذي شطب		هام	العدا	بذبابه	يفرى	
وأخيك	أبرهة	الهجان	أخي	الحرب	العوان	ملقح	الجمر	
بمرشة	فرغ	تشج	دما	ثج	الغوى	سلافة	الخمر	
والمضارب	الاخذود	ليس لها		حد	ينبها	عن	السحر	
وولي	حكم	فجعت به		عمرو	فواكبيدي	على	عمرو	
قول	محكمة	وذي فهم		عسف	الهوى	مثبت	الأمر	
ومسيب	فاذكر	وصيته		لا تنس	أما كنت	ذا	ذكر	
فكلاهما	قد كان	محتسبا		لله	ذا تقوى	وذا	بر	

في	مختبين	ولم	أسمهم	كانوا	يدي	وهم	أولو	نصرى
وهم	مساعر	في	الوغي	رجح	من	يمشي	على	العفر
حتى	وافوا	لله	حيث	لقوا	لا	كذب	ولا	غدر
فتخالسوا	مهجات	أنفسهم	وعداتهم	بقواضب	بتر			
وأسنة	أثبتن	في	لذن	خطية	بأكفهم	زهر		
تحت	العجاج	وفوقهم	خرق	يخفقن	من	سود	ومن	حمر
فتفرجت	عنهم	كلماتهم	لم	يغمضوا	عينا	على	وتر	
فشعارهم	نيران	حربهم	ما	بين	أعلى	السحر	والنحر	
صرعى	فحاجلة	تنوبهم	وخوامع	لحماهم	تبرى			

٤ (النكبة في اليمن :-

أنتهى أمر الحجاز لكن ما تزال الإمامة قائمة في صنعاء ولا يمكن بحال أن يسكت أحد الطرفين، وفعلًا أمر مروان بعد أن استبشر برأس أبي حمزة قائده عبد الملك بالمسير إلى اليمن .
كما أن الإمام عبد الله بن يحيى وأن لم يدرك قائده أبا حمزة فإنه قرر المسير إلى الحجاز، والتقى الجيشان وكانت معارك عنيفة أنهت باستشهاد الإمام وأستشهاد الكثير من أتباعه، وأنسحب الباقون إلى صنعاء .

وكالعادة تطير البشرى إلى دمشق مع يزيد بن عبد الملك ابن عطية حاملة معها رأس طالب الحق كأفخر هدية لينضم إلى بقية الرؤوس التي ستزيد في حسنات الأمويين يوم يلقون ما عملت أيديهم بين يدي رب العالمين الذي يمهل ولا يهمل .

٥ (العودة إلى مسلك الدفاع ثم الكتمان :-

رغم المجازر الانتقامية التي أقامها ابن عطية لم تكن اليمن لتستسلم وقد رسخت في جانب منها العقيدة الأباضية بل ظلت معقلا من معاقل الأباضية حتى القرن السابع للهجرة .

وقبل أن نودع اليمن لا ينبغي أن نغفل عن القائد المظفر عبد الملك بن عطية فإنه ما أن أستقر في صنعاء حتى أراد سيده مروان أن يكرمه بالإشراف على موسم الحج فهب مليبا طلب من لا يرد له طلب، لكن القدر أعترض هذا الذي يضع المصحف في الجوالق ويأكل مال

اليتيم ويفجر بأمه فتعجل في بضعة عشر رجلا اعترضتهم كوكبة الشراة ولما ادركوا أنه أبن عطية ثأروا لأخوانهم ونصبوا رأسه ، وهكذا نصب رأس ناصب الرؤوس وصالب الاجساد لكن لم يحصل له شرف القرار في قصر الخلافة وإنما دس بعد حين في تراب اليمن .

٦ (تحويل الوجهة الى عمان والمغرب :-)

وما أن عرف الأباضية فشل إمامة الظهور في اليمن حتى ولوا وجوههم شطر عمان حيث بايعوا الجلندي بن مسعود إماما للظهور (سنة ١٣٢/٧٤٩) ثم شطر المغرب حيث بويع عبد الخطاب المعافري إمام ظهور في طرابلس سنة (١٤٠/٧٥٧) ، وهكذا ما إن ماتت إمامة حتى قامت مقامها إمامتان إحداهما في المشرق والثانية في المغرب وقد كان لكل منهما من الأثر ما كان .

(١) الأغاني ٢٣/١٤٠ .

(٢) ن . م - ٢٣/١٤٥ .

(٣) ن . م - ٢٣/١٤٣ .

(٤) ن . م - ٢٣/١٤٥ .

(٥) الطبري - تاريخ ٤/٣٣١ .

(٦) الأغاني - ٢٣/١١٤ .

(٧) ن . م - ٢٣/١٤٤ .

خاتمة

لقد عشنا في صفحات هذا البحث مع المجاهد أبي حمزة الشاري، رمز من رموز الشراء، وعلم من أعلام الثورة على الباطل أدرك أن الجهاد واجب مقدس، فأنبى مع من معه من شباب مكتهلين في شبابهم منحنية أصلاهم على أجزاء القرآن، فرفعوا لواء هذا الواجب، عاملين على تصحيح مجرى تاريخ المسلمين، همهم إحياء الإمامة العظمى التي تملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا.

هكذا يقول الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز «الوليد بالشام والحجاج بالعراق، وأخوه باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقره بن شريك بمصر، وأمتلأت الأرض والله جورا».

فتورة أبي حمزة لم تكن ثورة عشوائية أو للاستئثار بالملك وقد حاولنا في هذا البحث أن نبرز عواملها والاستعداد لها وحقيقتها عندما قامت وما حققتها من نتائج مع أبي حمزة قائد الأمام عبد الله بن يحيى طالب الحق من سيرة حسنة في الناس في الأيام القلائل التي كتب لها فيها النصر، وما نتج عن ذلك من تألب الشر عليها لما علم فيها من عقيدة راسخة.

أما عن أسبابها فإن خلافة المسلمين قد ماتت بين لعين وطريد، وبين ناقص وخليع وحمار، وبين نديم للقرء، وفاسق في بطنه وفرجه، وبين ممزق للعطاء ومستأثر بالفيء، وبين مظهر لزي فرعون، وضعيف سفيه مترع على العرش بين حباة وسلامة، لم يسلم من هؤلاء إلا واحد أراد تصحيح المسار، فأرست به سفينة الخلافة على ضفاف العدل، لكن سرعان ما عصفت الرياح، رياح الظلم لتعود المسيرة إلى ما كانت عليه وأشد.

ألم يحق لأبي حمزة أن يثور، والخليفة دليل الأمة ومرشدها هذه حالة، والخلافة رمز العدل قد تحولت إلى عنوان للطغيان.

وإذا كان الأمر هكذا في قصر الخلافة فحدث عن الولايات والولاة ولا حرج في هذا القصر يختار أشد ما في كنانته ليقذف به المسلمين حتى يأتوا خاضعين، وتغتصب منهم أموالهم كارهين، بل وتؤخذ الجزية عن بعضهم وهم صاغرون، وظلم زياد وخلفه الحجاج من بعدهما كاف لتقوم في كل يوم ثورة. نعم قامت الثورات هنا وهناك فتصدى لها هؤلاء وقتلوا من أجل الحفاظ على العرش الآلاف من الأبرياء وأبنتوا عرشهم هذا على أبراج من الجماجم، جعلوا أسهاما يحتفظون به من رؤوس في متاحف قصر الخلافة.

نعم من حق أبي حمزة أن يثور، ألم يكن يتردد على الحرمين الشريفين معدن البر والتقوى، فلا يجد إلا فسقا وإنحرافا، ألم يتحول موسم الحج إلى موعد بين المغنين والشعراء والعشاق؟ ألم تصر مدينة رسول الله ﷺ، ينتحب فيها المنتحبون لا من خشية الله، وإنما جزعا لفراق فاسقة من الفاسقات؟ نعم من حق عبد الله بن يحيى وهو يتولى القضاء في اليمن أن يقول أنه رأى باليمن جورا ظاهرا وعسفا شديدا، وسيرة في الناس قبيحة، مبينا أنه لا يحل المقام على ما يرى، ولا يسع الصبر عليه، وقد علمنا ما ذاقته اليمن السعيدة التي أرادت أن تزداد سعادة بالمسلمين من قسوة الثقفين الذين توارثوا فيها كرسي الولاية صاغرا عن كابر كما توارثوا روح الطغيان عن بعضهم البعض.

وفعلا تم الاتصال مع مركز الدعوة بالبصرة هذا المركز الذي ما يزال يستعد للظهور منذ أن حول الأئمة فيه مسار حركتهم بعد أبي بلال من الشراء إلى القعود والكتمان. هكذا كان مسلكتهم مع الأمامين عبد الله بن أباص وجابر بن زيد يقوم على تنظيم حركة سرية تكون الأنصار وتدفع بهم إلى الأمصار حتى يحين الوقت للثورة والظهور، ثم جاء أبو عبيدة فأحكم مسار الحركة، أحكام واستجلب الدعاة من أطراف البلاد من اليمن والمغرب وعمان خاصة، وعبأهم تعبئة إيمانية صادقة في سرداب من سراديب البصرة ومصنع من مصانع القفاف، وهو في الحقيقة مصنع للأئمة والمجاهدين.

إلى أن أهل هذا السرداب - وهو واحد منهم - أطلق عبد الله بن يحيى صيحة، فدوت جنباته مهللة، ولبت نداء أبنه البار، فقذفت باطل اليمن بقلذات كبدها ومن بينهم أبو حمزة.

أبو حمزة المختار بن عوف السليمي الأزدي، الذي ورث الشجاعة من أصله العربي المجيد، وزادها صقلا وتهذيبا في صحار أعرق الأمصار، ثم أستقبلته حلقات أبي عبيدة بالبصرة أحسن استقبال، فأذكت فيه شعلة الغيرة على الدين لما وجدت فيه من نبوغ منقطع النظر، وأنتدبته لتحسس الأخبار في الحرمين الشريفين حيث يتولى أمر الدعوة أبو الحر على بن الحصين، فانبرى في كل محفل يدعو جهارا إلى مخالفة بني مروان وإلى إقامة دولة القرآن والإمامة التي تبدد كل طغيان، وذلك بأفصح بيان لما وهبه الله من ذلاقة لسان، فتصدى له زبانية مروان وأذاقوه من جلد السياط ألوانا، فلم يزد ذلك إلا إيمانا.

وما أن نادى منادي الجهاد لنصرة الحق حتى أنطلق شاريا ليرد العمل بالقول فلم يكن خارجيا سفاكا للدماء مستعرضا للدماء الأبرياء، وإنما كان شاريا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر باليد لا يقا تل إلا من يبدأه بالقتال.

ذلك هو مسلكه - شراء بمفهومه الإسلامي السامي - عندما كان جنديا من جنود الإمام طالب الحق باليمن، لم يستنكف من أن يكون مقودا رغم ماله من عبقرية في ساحة القتال، بل أستسما مع الفئة القليلة عند أبواب مدينة صنعاء حتى أتت مستسلمة رغم ما أعد قاسمها من الألوف المؤلفة للحفاظ على التركة الموروثة ومورد رزقه ورزق سيده مروان.

وكيف لا ياتمر بأمر إمام بايعه عن رغبة وإقتناع ورأى من سيرته ما أحى سيرة العمرين، ألم يعف عن عامل حضرموت مرتين، ألم يعف عن الوالي المستبد، ألم يأمر بعدم الأجهاز على الجرحى، ألم يأمر بالألا غنيمة، ألم يوزع ما وجد في الخزينة من أموال على فقراء اليمن، نعم حق لمثل هذا الإمام أن يطاع بل من الشرف أن يكون أبو حمزة من أعضاده وجنوده.

وما كان للأمام أن يغفل عن مواهب خلانه على درب الإيمان، نعم إنها الحكمة، لقد أذخر جهد أبي حمزة في القيادة لمرحلة لاحقة، وهاهي قد جاءت وقد كان ذلك بتخطيط من مركز القيادة بالبصرة. وما إن أستقر الأمر في اليمن حتى سرح الإمام طالب الحق أبا حمزة على رأس جيش للحجاز لتتقدم منه فصيلة بعد حين مع بليغ بن عقبة إلى بلاد الشام، إنه المجاهد القائد، فهلا أصابه شيء من الصلف، كلا والله ألم نعلم أنه كان يتداول وجنوده على بعير واحد، ويتعاورون لحافا واحدا، إنه شار وكفى، باع مهجته في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

وقف مع جيشه على جبل عرفات حيث تستدر الرحمات ليعلم المسلمين جميعا أنه لا يقصد ترويع وفود الرحمن، وإنما يدعو إلى مخالفة مروان وإلى إقامة دولة القرآن، فلم يكن من ممثل مروان إلا أن طالب بالهدنة فبين أبو حمزة أنه وأصحابه بحجهم أضن، ولم تثر القائد الشاري الاستفزازات وإنما حافظ على العهد إلى أن أدخله الله المسجد الحرام آمنا، بعد أن أنسحب الوالي في أول النفر، فخر لرب العالمين ساجدا وقام في الناس خطيبا موضحا أن الغاية هي نصرة الحق.

ثم من مكة قصد القائد بلاد الشام لكن أبي أهل المدينة إلا أن يصدوه، فحاورهم طويلا، وأقام عليهم الحجة بكل ما أوتي من بيان، لكن فرضوا عليه القتال، فكان من أمر قديد ما كان، ودخل مدينة رسول الله ﷺ، وألقى البيان تلو البيان ليوضح للناس بأفصح لسان، حقيقة الطغيان الذي تجسم في آل مروان، ولكنه منهج من لبوا داعي الرحمن، لأقامة دولة الأيمان، لكن ما يزال أهل المدينة يعيرونه بأصحابه حتى فضح جميع عيوبهم «سراع إلى الفتنة، بطاء عن السنة» وعرفهم بما يتحل بن أصحابه من خصال الإسلام «غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم».

في هذه الأشهر الثلاثة أحسن القائد في الحجاز السيرة وحرص على أن يذوق الناس في ظل حكمة العدل والأيمان لكن أنى لنفوس تلوثت في العفن أن تنعم بعبيق الورود.

وهناك تدور الدوائر ويتنمر مروان وكيف لا يتنمر وقد أنفلتت منه اليمن ثم الحجاز مع تصدع مواطن أخرى ويقذف بجيش نظامي مكنه من عدة لم يعرف لها مثيل، ومنهم من عليه درعان وستور وتجايف، وعدة لم ير مثلها في ذلك الزمان «فتكون ضربات جيش مروان قاتلة بينما تضع ضربات جيش أبي حمزة في صولة الحديد، وما هما إلا معركتان حتى تحولت الغلبة إلى معسكر الطغيان وأستشهد أبو حمزة وأصحابه في نصره كلمة الإيوان، لم يتراجعوا ولم يتأخروا إلى أن أتت الحرب على إمامهم باليمن وأبى الطغيان إلا أن يميت دعوتهم لكن أبت إلا أن تبقى صادمة عبر الزمن بعد أن ثارت في الحين من راس ابن عطية فدسته في تراب اليمن دون أن ينتشي بجروبه بين يدي مروان، ثم تعصف الرياح بمروان وبآل مروان، وسيكون اللقاء بين يدي الرحمن إنه هو الواحد الديان، وإنا لنسأل الله جزيل الثواب والغفران، وأن يعفو عنا زلات القلب واللسان، وأن يرفع درجاتنا في أعلى الجنان، وأن يقيض في كل زمان عبدا للرحمن، ينتصرون للحق، ويثورون بحق على الطغاة والطغيان.

**** كتب الشيخ أبي الحر على بن الحصين العنبري المكي إلى الإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي لما كان إماما على اليمن :-**

أما بعد ، فانظر رحمك الله نفسك حين ينفك النظر، وتفكر وأعتبرينفك العبر والتذكر، فإنه ﴿انما يتذكر أولو الألباب﴾ [٣٩ الزمر ٩]، وتفقد نفسك وأنظر أي رجل أنت اليوم بمنزلتك التي أنت فيها، وأي رجل كنت قبل اليوم وأي عبد كنت قبل اليوم في حالك، وفي معرفتك لربك، وحيث بلغت أمنيته التي تتمناها لربك، ولنفسك، وكيف شكرك وصبرك، فإن عرفت من وحيث بلغت أمنيته التي تتمناها لربك، ولنفسك، وكيف شكرك وصبرك، فإن عرفت من نفسك وحالك في دينك ودنياك ولباسك ومعيشتك، وأجتهادك لربك، وتواضعك وربعتك، وأقتصادك على ما كنت عليه لربك قبل أن تنزل منزلتك التي أنت بها وعليها بارجاء لنفسك وإرجائها لربك.

فإن أنكرتها ولم تعرفها في دينها ودنياها، ومعيشتها وقلة همها وما كفيت، وما حمل عنها مما حد لها، وما شغلت به عما كانت به مشغلة ومعنية، فأبك عليها بكاء من أهلك نفسه، وهلك على يديه، وبكاء من خاف الله بما ركب وضيع، فإن الجاهل بعد العلم من ترك ما يعلم إلى ما لا يعلم، وعمل بما يجهل، وإن الأعمى بعد البصر من أتبع الهوى، وركب ما

نهى عنه إلى ما يهوى، وإن المستحق لعقوبة ربه من أخذ المعية متعمدا، ورجا على نفسه في
النصب لربه، وأتباع شهوته من الدنيا، ولذته فيها، وإن العالم بالله إنها يبكي لنفسه في دنياه
رجاء السرور لها في الآخرة، والبشرى بما أضحك المتقين.

فالله الله يا أخي أن تعمى بعد البصر، أو تضل بعد الهدى، وبعد معرفة الاسلام، وبعد
إخلاص الطاعة لا بالتقوى، فإن أولى الألباب والنهى لم يكونوا أهل لهو ولا لعب، ولم يكونوا
أهل نسيان ولا غفلة، ولا أهل راحة ولا فترة، ولا أهل تلذذ بالدنيا ومطاييب عيشها، ولم
يكونوا أصحاب نعيم ولا فخر، ولا أصحاب أبل ولا بقر، ولا أصحاب خيل ولا ركب، ولم
يكونوا أصحاب رغبة في مال ولا أهل، ولا ولد ألا ما أعطاهم الله، فإن كثيرا رفضوه عن
أنفسهم، ورفضوه إلى ما يخافون عيبه، وآثروا به أهل الفاقة من خلقه، تخوفا أن يفسدهم
ذلك عن الله، فيبطروا، ويشروا، ويمرحوا ويشغلهم ذلك عن الذي وكلوا به، والذي هم
به معنيون، فكان الأقل من الدنيا أحب إليهم من الشبع ما لم يجهدوا، وهم في الشبع على
أنفسهم أخوف وفي الجوع أرجاء وأذكر، وكان الفقر أحب إليهم من الغنى، وهم في
الفقر أعبد لله وأتقى، وفي الغنى أنسى الله وأعصى، لضعفهم عن الشكر وجسهم ما ليس
لهم، وأستشارهم به عن أهله، وكان البلاء أحب إليهم من الرخاء، للذي يرجون من الأجر،
ويخافون من الإثم في الرخاء، ولم يكونوا بطلين في العشيات والضحى، ولكنهم كانوا يصبرون
أنفسهم ﴿مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون جهة﴾ [١٨ الكهف ٢٨]،
ويجعلون عشياتهم وغدواتهم معادن لذكر الله وعبادات ومحاضر، فكانت مضارهم التي يجرون
فيها أنفسهم، وخيلهم، طاعة لله وذكره بالغدوة والأصال، زجلهم فيها وأصواتهم القرآن،
ومنازعتهم وشغلهم ذكر الرحمن، يسارعون بها في ذلك الليل والنهار، ويذكرونها تعاهدا
بالعشي والإبكار، نصبوا لله بعبادته، وسابقة إلى رحمته التي أمروا بها، وأمروا بالتعاهد لها،
يسابقون إليها أهل السباق وأهل اليقين بعلم يوم التلاق، وينافسون أهل العمل الصالح
ليدركوهم أو يسبقوهم، ويضمرون بطونهم وأجسادهم تحففا من الربو والبدونة، ويتخوفون
أن يثقلوا عن جزيهم أو يقعوا عن سفرهم، أو يسبقوا في يوم مجازيهم، ويوم سبقهم، يؤخذ
السبق الذي جعل لهم دونهم ويمنى به غيرهم.

وهكذا الأكياس يصنعون، فكانت أنفسهم خيلهم التي يجرون ومضامهم مجالس الذكر
التي يحضرون، يغدون إليها ويروحون، ومساجد الله التي يعمرون يبيتون فيها سجدا،
وقياما، ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب
فهي القلوب والأبصار ﴿٢٤ النور ٣٧﴾، هي مضامهم، وعاداتهم التي إليها يغدون،

وإليها يروحون، وكان ضارهم الصيام، فبطونهم التي يجيئون وأبصارهم التي في ليلهم يسهرون أثناء الليل سجدا وقياماً ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ [٥١ الذاريات ١٨] يعملون أبدانهم ويتحملون على أقدامهم، وينضبون أنفسهم في العبادة، فتحملوا المكارة من طاعة الله، والمؤنة من العبادة، وتعاهدوا الفريضة، وآتبعوا السنة، ولزموا ذكر الله من الحمد والتسبيح بالغدي والعشي، يروحون بذلك وبه يغدون، يذكرون النعم التي يخافون كفرها، ويكثرون ذكر ربهم لئلا ينساهم عند فضله، وما أنعم عليهم به فينزع ما أعطاهم، ويغير ما بهم، ويرغبون في أستتمام ما أنعم عليهم به ليزدادوا به من خير ما عنده، ويستوجبوا المزيد من فضله وثوابه، ورفضوا الدنيا وأقبلوا قبل الآخرة، كأنها نصب أعينهم، إليها يسارعون، وإليها يسابقون، فكأنما الدينا غائبة عنهم، ليروا مع أهلها وليسوا منهم، ويروا فيها وهم في غيرها، يقينا بما أبصروا وعلموا بما نظروا، خوفا مما حذروا، فأدركوا باليقين ما طلبوا، وأمنوا بالخوف ما كرهوا، وسبقوا أهل كل سبق مسارع، وأهل كل مسارع إلى متسع، فاستراحوا وروحوا، وروح عنهم قبل كل شاخص ناصب، وقبل كل متعب تاعب، وقدموا قبل كل سريع سابق، فنزلوا المواطن وتوطنوا المنازل قبل كل مرتاد طالب، وقبل كل مسارع مسابق في خير ما طلبوا، وفي خلاف ما سارعوا وسابقوا.

وأعلم أن كل مرتاد وماهد، ومسارع ومسابق، ينوي نفسه قبل إنقطاع الدنيا عنه، ويمهد لها ويسابق لها، أما منزل غبطة لا ينبغي عنه حولا، وأما محل نقمة لا يجدون دونه موثلا، حين ليس لنادم من ردة من بعد إنقطاع المدة، وإنما يمهد لها الجنة أو النار إما مسابقا إلى الجنة أو النار، وإما مشغولا بها له أو عليه أو ساعيا بها يسعد به أو يشقى، أو لاهيا بها يصيب به الراحة أو تعباً مع العناء.

فالله !! الله !! فإنك قد سمعت ورأيت ما يتحدث الناس به، ويخبرون عن من مضى من أصحاب رسول الله عليه السلام، كيف ساروا حين ولوا وتولوا، وحين غنموا واستغنوا، حين ملكوا وملكوا، وحين صاروا حكاما على العباد، وملوكا في البلاد، وكيف تحول بعضهم عما كانوا عليه يحمدون ويذكرون، وكيف أصبحوا اليوم يذمون ويمقتون بما أحدثوا وتركوا من سبيل ربهم وسنة نبيهم.

وأذكر أبا بكر وعمر بن الخطاب، وأذكر عمارا وأبا بلال وجابرا وشرة المسلمين رحمهم الله، وأذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير ومعاوية. وأذكر أهل الحق والباطل ممن مضى من هذه الأمة والقرون الأولى، كيف كانوا وإلى ما صاروا، بعد كل شيء جاءهم وبعد متابعة النبي عليه السلام، وبما نجا من نجا وبما هلك من هلك، وبما حمد من حمد، وبما ذم من ذم، فأركب

من ذلك ما ترجوه به الحقوق بهم . . . فهم على الوفاء وركب الطريقة الحق وسبيل الهدى، فإنهم كثيراً ما يجوعون، وقليل ما يشبعون، وكثيراً ما يشتغلون، وقليل ما يتفرغون، وكثيراً ما يخافون ويبكون، وقليلاً ما يضحكون ويفرحون، ولم يكونوا أصحاب لهو ولا لعب، ولا باطلا ولا هزل، ولا أصحاب خيل، ولا مصارات، ولا مراكب، ولا أصحاب أرزاق واسعة في ما عملوا، ولا أصحاب كسوة فاضلة في ما تواضعوا لله ونصبوا، ولم يكونوا أصحاب أموال فائضة في ما أنفقوا وأكلوا وشربوا وإنما كانوا أصحاب رحلة، وقريباً من العراء، وقريباً من الجوع والفقر، فارقوا الدنيا ولم يعرفوا كثيراً من عيش أهلها في زمانك هذا ولا كثيراً من شهواتها ولذاتها من الطعام والشراب والكسوة والمركب، ولا يعرفونه ولا يشتهونه .

ولقد بلغنا وبلغك أو ما شاء الله أن يقال أن رسول الله ﷺ لم يشبع من خبز البر حتى لحق بالله، ولم يلبس الحرير من الثياب حتى لحق بالله، ولم يأكل اللحم والسمن في مجلس، ولا كما يروى بعض الناس وكما يقولون والله أعلم .

ولقد حدثني المغيرة أبو عبد الله أنه حمل إليه طعام في قصعة وهو مع أصحابه فتشوق ومد إليها عنقه فما وضعت بين يديه قال «ظننت أنها لحم» فما ظنك بنفسك وبأصحابك؟ .

وبلغنا أن أبا بكر رحمه الله إنما كان له لقحة يشرب لبنها وعبد يقوم عليها ويصقل سيوف المسلمين، وإنما كان رزقه في سلطانه على العمل بطاعة الله . . .

ملاحظة: يتوقف النص عند هذا الحد في المخطوطة التي بين أيدينا، وعسى الله أن يمن ببقية الكتاب الذي وجهه أبو الحر علي بن الحصين إلى الامام طالب الحق .

المصادر والمراجع

(الترتيب ألف بائي حسب أسماء المؤلفين)

- * أبْن الاثير (٦٣٠ / ١٢٣٢) الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت ١٩٨٧/٣٩٨، ج ٣.
- * أبْن حجر العسقلاني (٨٥٢/١٤٤٩) فتح الباري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، ط. دار المعرفة، بيروت (د.ت)، ج ٤.
- * أبْن خلدون (٨٠٨/١٤٤٦) المقدمة، والعبر، ط. دار الكتاب اللبناني ١٩٧٧م، م ٣.
- * أبْن خلدون (ق٦/١٢) أجوبة ابن خلفون، تحقيق وتعليق د. عمر خليفة النامي، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت ط. ١، ١٣٩٤/١٩٧٤.
- * أبْن سلام الأباضي (٢٧٣/٨٨٧) بدء الإسلام وشرائع الدين، تحقيق قيروز شقارتس والشيخ سالم بن يعقوب، ط. دار صادر بيروت ١٤٠٦/١٩٨٦.
- * أبْن عبد ربه (٣٢٨/٩٣٩) العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين و... ط. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٣٨١/١٩٦٢، ج ٤.
- * أبْن العماد الحنبلي (١٠٨٩/١٦٧٨) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت (د.ت)، ج ١.
- * أبْن مداد () سيرة العلامة المحقق عبد الله بن مداد، نشر وزارة التراث العماني عدد ٥٦، المطابع العالمية عمان ١٤٠٤/١٩٨٤.
- * أبْن يعقوب سالم (أطال عمره) تقييدات من مكتبة الخاصة، نسخها من خزانة المدرسة الأباضية بالقاهرة بوكالة الجاموس.

- * أبو غانم الخراساني (٨/٢) المدونة الكبرى، ترتيب محمد أطفيش، قدم له سالم بن حمد الحارثي، دار الیقظة العربية، سوريا لبنان ١٣٩٤/١٩٧٤، مصورة عن مخطوطة الأزرقی (محمد بن عبد الله) (٨٦٤/٢٥٠) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي صالح ملحس، دار الثقافة، بيروت ١٣٩٩/١٩٧٩، ج ١.
- * الأصفهاني (٩٦٦/٣٥٦) الأغاني، بيروت ١٣٨٠/١٩٦١، ج ٢٣، ١١١-١٥٨.
- * أطلس (محمد أسعد) (معاصر) تاريخ العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ط ٣ ١٤٠٠/١٩٨٣، ١م.
- * أحمد أمين (١٩٥٤/١٣٤٤) فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط. ٦، ١٩٦٤.
- * باجية صالح (معاصر) الأباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، ط. ١، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس ١٣٩٦/١٩٧٦.
- * البرادي (أبو القاسم) (١٤/٨) كتاب الجواهر المنتقاء في إتمام ما أحل به كتاب الطبقات (الدرجيني) ط. حجرية، القاهرة ١٣٠٢/١٨٨٥.
- * جابر بن زيد (٧١١/٩٣) جوابات الإمام جابر بن زيد، مرقونة بالمكتبة الإسلامية بروي، عمان.
- * الجاحظ (٨٦٩/٢٥٥) البيان والتبيين، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة ط. ٥، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ١٤٠٥/١٩٨٥، ج ٢.
- * الجعبري (فرحات) نظام العزابة عند الأباضية في حربة، المطبعة العصرية، وزارة الشؤون الثقافية، المعهد القومي للآثار، تونس ١٣٩٤/١٩٧٥.
- * البعد الحضاري للعقيدة الأباضية، مطبعة جامعة السلطان قابوس، مسقط عمان ١٩٨٧/١٤٠٨.
- * الجيظالي (أسماعيل) (١٣٤٩/٧٥٠) قناطر الخيرات، القسم الأول حققه وعلق عليه عمرو خليفة النامي، مكتبة وهبة الزحيلي، ط. ١، ١٣٨٥/١٩٦٥.
- * الحديدي (عادل) (معاصر) المرشد العام للولايات والقبائل في سلطنة عمان، نشر وزارة الداخلية، مسقط ١٤٠٢/١٩٨٢م.

- * حسين (طه) (١٣٩٣/١٩٧٣) المجموعة الكاملة، حديث الأربعاء، دار الكتاب اللبناني بيروت ط. ٢، ١٩٨٠، م ٢.
- * الحموي (ياقوت) (١٢٢٨/٦٢٦) معجم البلدان، دار صادر، بيروت (د.ت).
- * الحوفي (أحمد محمد) (معاصر) الفكاهة في الأدب، القاهرة ١٩٦٦.
- * خالد محمد خالد (معاصر) خلفاء الرسول، عمر بن عبد العزيز، دار الكتاب العربي، بيروت ط. ٢، ١٩٧٤/١٣٩٤.
- * خليفات (عوض) (معاصر) نشأة الحركة الأباضية، ط. دار الشعب عمان، الأردن ١٩٨٨/١٣٩٨ م.
- * الخليلي (أحمد) (معاصر) حوار حول معالم شخصية أبي حمزة، روي سلطنة عمان، شعبان ١٤٠٩ / مارس ١٩٨٩ م.
- * الدرجيني (أبو العباس أحمد) (حوالي ١٢٧١/٦٧٠) طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر (د.ت).
- * دروزة (محمد عزة) (معاصر) تاريخ الجنس العربي، المكتبة العصرية، بيروت، ط. ١، ١٤٠٣/١٩٨٣، ج ٨.
- * محسن عبد الأمير (معاصر) الخلافة الأموية (٨٦٠-٦٨٤/١٧٠٥) دراسة سياسة دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت ط. ١، ١٩٧٣/١٣٨٣.
- * الرازي (أحمد) (١٠٨٦/٤٦٠) تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين بن عبد الله العمري، ط. ٢، صنعاء، السمن ١٤٠١/١٩٨١، لم يذكر طالب الحق.
- * الرقيشي (أحمد بن عبد الله) (ق ١١/١٧) مصباح الظلام، دار الكتب المصرية رقم ٢٠٥٤٩، نقلا عن مهدي طالب هاشم، الحركة الأباضية.
- * الزركلي (معاصر) الأعلام دار العلم للملايين بيروت، ط. ١٤٠٤/١٩٨٤.
- * سالم عبد العزيز (معاصر) تاريخ الدولة العربية، تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٠/١٩٧٠.

- * السالمي (عبد الله) (١٩١٤/١٣٣٢) جوهرة النظام في علمي الأديان والأحكام (أرجوزة شعرية)، تحقيق ابن أسحاق إبراهيم أطفيش، مطبعة النصر ١٣٩٤/١٩٧٤ م.
- * تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، تحقيق أبي إسحاق إبراهيم أطفيش، مطبعة الشعب، القاهرة ط. ٢، ١٩٣١/١٣٥٠.
- * الشقصي (خيس بن سعيد) (ق ١١/١٧) منهج الطالبين وبلاغ الراغبين، تحقيق سالم بن حمد الحارثي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه (د.ت)، ج ١.
- * الشماخي (أحمد) (١٩٢٢/٩٢٨) كتاب السير، ط. حجرية، القاهرة ١٣٠١/١٨٨٣.
- * صفوة (أحمد زكي) جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج ٢، العصر الأموي المكتبة العلمية، بيروت ١٣٥٢/١٩٣٣.
- * ضيف (شوقي) (معاصر) الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ط. دار المعارف القاهرة.
- * الطبري (٩٢٢/٣١٠) تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ط. ٢، ١٤٠٨/١٩٨٨، ج ٣ و ٤.
- * عبد الجبار (القاضي) (١٠١٤/٤٠٥) كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة تحقيق فؤاد السيد الدار التونسية للنشر، تونس ١٣٩٣/١٩٧٤.
- * عفيف (أحمد جابر) الحركة الوطنية في بلاد اليمن، ط. ١، دار الفكر دمشق، ١٩٨٢/١٤٠٢.
- * العقاد (١٩٦٤/١٣٨٣) معاوية بن أبي سفيان، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت).
- * العوتبي (سلمة بن مسلم) (ق ٥/١١) الإنسان، ط. دار جريدة عمان للصحافة والنشر، نشر وزارة التراث العماني، عمان ١٤٠٤/١٩٨٤، ج ٢.
- * القلقشندي (١٤١٨/٨٢١) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، دار الكتب العلمية بيروت، ط. ١، ١٩٨٤/١٤٠٥.
- * كحالة (عمر رضا) معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ط. ٣، بيروت ١٩٨٢/١٤٠٢.

- * المرید (٢٨٥/٨٩٨) الكامل في اللغة والأدب، ط. مكتبة المعارف، بيروت (د.ت).
- * المجذوب (البشير) (معاصر) الظرف والظرفاء بالحجاز في العصر الأموي دار التركي للنشر ١٩٨٨/١٤٠٨.
- * المجذوب (عبد العزيز) (معاصر) الصراع المذهبي بأفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر ١٩٧٥/٣٩٥.
- * المسعودي (٣٤٦/٩٥٧) مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢/١٤٠٢، م٢، ج٣.
- * معمر (علي يحيى) (١٤٠١/١٩٨٠) الأباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى، نشأة الأباضية ط. مكتبة وهبة القاهرة، ١٩٦٤/١٣٨٤.
- * النامي (عمرو خليفة) (معاصر) أطروحة باللغة الإنجليزية من نشأة الفكر الأباضي وتطوره، نوقش بكمبريدج ١٩٧١/١٣٩١.
- * هاشم (مهدي طالب) (معاصر) الحركة الأباضية في المشرق العربي، نشأتها وتطورها حتى نهاية القرن الثالث هـ، دار الاتحاد العربي للطباعة، بغداد، ط. ١٩٧٧/٣٩٧.
- * الوارجلاني (أبو زكريا) (ق ١٢/٦) كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تحقيق عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر ١٩٨٥/١٤٠٥.
- * اليماني (تاج الدين) تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، دار الكلمة، صنعاء، ط. ١٩٨٥/١٤٠٥.

